يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

ترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

ليالي بلزاك

(ألف ليلة وليلة الفرنسية)

للأديب الفرنسي الخالد: "أونوريه دي بلزاك"



أونوريه دى بلزاك

ليالى بلزاك

(ألف ليلة وليلة الفرنسية)



LES CONTES DROLATIQUES

par

HONORE DE BALZAC

٢٠٠ صفحة ـ ١٠ قروش

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الجميع

الكتاب الرابع والثلاثون

ليالى بلزاك

ترجمة : زكى شنوده المحامى

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون ٥٩٥٥٦

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن واحد وسبعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجرة البريدالمسجل ، ماعدا العدد : العاشر وثمنه عشرون قرشاوالأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا . أما الاعداد الستة الاولى والعددالعشرون فقد نفدت ، والادارة مستعدةلشرائها

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة أجر البريد المسجل ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى

• ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه .

واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بان الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) الخطيئة الاولى ، أوديب ، مدام بوفارى ، (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأللحب ، جين اير (ثلاثة أجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثأر للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (ثلاثة أجزاء) بوشكين ، جان جاك روسو ، قصص من الصين ، ليالى بلزاك .. وثمن النسخة من كل عدد عشرة قروش فيما عدا الاعداد : ١ و٤ و٧ و١٩ و٢٢ فثمن النسخة عشرون قرشا ، والاعداد : ١٢ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ اثنا عشر قرشا ، و٣ و٥ و٦ ثمانية قروش ، ويضاف الى هذا السعر قرشان مقابل أجر البريد المسجل

القصص التى سعى بها « بلزاك » الى المجد

عزيزى القارىء ..

• **احسبك** تتوق الى معرفة قصة تأليف هذه « القصص الماجنة » — التى يصح أن تسمى بحق « ليالى بلزاك » ! — قبل أن تستمتع بمطالعتها ..

اذن فاليك هى :

((اذا لم تكونى قد أحببت حكايات ((لافونتين)) ، اوقصص ((بوكاشيو)) ، فخليق بك أن لا تقرئى ((القصص الماجنة)) ، وان كانت هى وسيلتى الكبرى الى الشهرة المرجوة فى المستقبل))!

بهذه الكلمات — التى كتبها « انوريه دى بلزاك » ، الى صديقته مدام «هانسكا» — نستطيع ان نلمس النظرة التى كان الكاتب الفرنسى الكبير ينظر بها الى هذه المجموعة من قصصه : «وسيلتى الكبرى الى الشهرة المرجوة فى المستقبل» ! .. هكذا كان اعتداد «بلزاك» بهذه المجموعة . وقد أثبت التاريخ أنه لم يكن مغاليا فى هذا الاعتداد ، **فان ((القصص الماجنة)) و ((الكوميدية الانسانية)) و ((الأب جوريو)) كانت الأعمال الادبية الثلاثة التى خلدت اسم ((بلزاك)) فى دنيا الادب .**

والواقع أن هذا الكاتب الفحل كان قد ختم «مرحلة التقلب» من حياته الادبية ، عندما شرع فى كتابة «القصص الماجنة» .. و«مرحلة التقلب» تلك هي المرحلة التى ضمت الفترتين الاوليين من حياته الادبية : الفترة التى بدأت فى سنة ١٨٢٩ ، عندما نشر اسمه الحقيقى — لاول مرة — على احدى قصصه .. والفترة التى سبقتها ، والتى نشر فيها «بلزاك» كثيرا من القصص الغريبة والمثيرة والفاضحة ، تحت اسماء منتحلة ، كان اشهرها : « هوراس دى سانتوبان » و « لورد رون » !

واذن ، فقد كانت ((القصص الماجنة)) بداية ((مرحلة

الاستقرار » فى حياة أديب روائى أنتج قبلها كثيرا من القصص، ولكنه لم يجرؤ على أن يضع اسمه الحقيقى عليها . فاذا رأيناه ـ بعد ذلك ـ يخرج عن تواريه وراء الاسماء الادبية التى كان ينتحلها ، لينسب انتاجه الى اسمه الحقيقى ، فمعنى ذلك انه كان قد بدأ ـ عندما أقدم على ذلك فى سنة ١٨٢٩ ـ يطمئن الى رسوخ قدميه فى ميدان القصة .. وكان فى تلك الاثناء قد شرع فى كتابة «القصص الماجنة» ليجعل منها التحفة الرائعة التى يرقى بها الى الشهرة التى كان يصبو اليها !

* * *

• وليس هذا مجال الحديث عن سيرة «بلزاك» وتاريخ حياته ، (فتلك ناحية وفاها «كتابى» حقها فى العدد ٢٤) .. وانما أقصر الحديث هنا على هذه المجموعة القصصية بالذات ، التى أعدها «بلزاك» ليصل بها الى تخليد اسمه فى تاريخ الادب العالمى ، كما خلد «بوكاشيو» الايطالى اسمه من قبل بقصص «ديكاميرون» . **ويبدو ان «بلزاك» كان يترسم بالفعل ـ وهو يكتبها ـ خطى «بوكاشيو» الذى حاول جاهدا أن يمنح الادب الغربى أثرا خالدا مشابها للتحفة الشرقية التى تمثلت فى «ألف ليلة وليلة» ، على نحو ما أوضحت فى الدراسة التى قدمت بها للمجموعة الاولى من قصص « ديكاميرون» التى صدر بها العدد ١٣ من «مطبوعات كتابى»**

وليس من التجنى فى شىء ، القول بأن «بلزاك» فى «لياليه» ـ او «قصصه الماجنة» ـ كان يترسم خطى « بوكاشيو » : فلقد جعل « بوكاشيو » تحفته « ديكاميرون » مؤلفة من مائة قصة ، قسمها على عشر ليال .. وكذلك نجد أن المجموعة الاولى من « قصص ماجنة » ـ التى نشرت فى سنة ١٨٣٢ ـ مؤلفة من عشر قصص ، وقد ظهرت تحت عنوان : « القصص الماجنة المائة » .. ثم ظهرت المجموعة الثانية فى سنة

١٨٣٣ ، وكانت هى الاخرى تتألف من عشر قصص.. واعقبتها مجموعة ثالثة ـ فى سنة ١٨٣٧ ـ وكانت بدورها تتألف من عشر قصص ، وقد اعلن فيها «بلزاك» عن مجموعة رابعة ، وعد بأن تتألف هى الاخرى من عشر قصص .. على أن هذه المجموعة الرابعة لم يقدر لها ان تكتب ـ رغم انه ذكر فى اعلانه عناوين قصصها ! ـ والظاهر أنه لم يستطع المضى فيها ، لسبب من الاسباب ، فعدل عن اكمالها الى مائة ، واكتفى بالثلاثين التى نشرت ، لانه لم يلبث ان جمعها معا فى مجلد واحد ، فى سنة ١٨٥٣ .. وفى هذه المرة اكتفى باسم « القصص الماجنة » ، واسقط كلمة «المائة» !

* * *

• **على أن** «بلزاك» كان أكثر جموحا من «بوكاشيو» ، فى انتهاجه اساليب الادب المكشوف فى هذه القصص ، وقد كان هذا مصدر عناء ومشقة لى فى «اختيار» المجموعة التى أقدمها اليك منها فى هذا الكتاب : فقد حرصت ـ من جهة ـ على تأدية الرسالة التى آليت على نفسى القيام بها ، عن طريق ترجمة التحف الشامخة لدى الشعوب الاخرى ، الى لغتنا العربية ، **لكنى حرصت ـ فى الوقت نفسه ـ على مراعاة آداب مجتمعنا العربى وتقاليده ، ومن ثم جمعت لك من قصص «بلزاك» الثلاثين ، هذه المجموعة التى تعطيك نموذجا صادقا وافيا للكتاب كله ، ولكنها ـ فى الوقت ذاته ـ لا تضم القصص التى أغرق «بلزاك» فيها فى «المجون» ، حتى أوشك أن يوحى الى بعض النقاد بأنه انما ابتغى من ورائها الاثارة الرخيصة .**

والواقع أننا قد نلتمس عذرا لبلزاك فى ذلك الاغراق ، اذا عرفنا أنه ارتد فى قصصه هذه الى الجو المكشوف ، الماجن ، المرح ، الذى كان يسود فرنسا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر .. وقد نلتمس له عذرا ـ كذلك ـ اذا تذكرنا

ان روح رواة القصة القدامى من ابناء (الغال) ـ اجداد الفرنسيين ـ ونعنى بها روح التحرر المكشوف ، تظهر بين الحين والحين فى كتابات أدباء فرنسا فى مختلف الاجيال . وقد ظهرت هذه الروح خلال القرن التاسع عشر ، فى انتاج اكثر من اديب فرنسى : ظهرت فى «جاميانى» لألفريد دى موسيه ، وفى «بنات عم زوجة الكولونيل» لموباسان .. وحوكم من اجلها «جوستاف فلوبير» عندما كتب « مدام بوفارى » ، (على ما أوضحناه فى مقدمة الترجمة العربية التى وافتك بها «مطبوعات كتابى» فى عدديها التاسع والعاشر)

واذن ، فان «بلزاك» ـ عندما عكف على كتابة « القصص الماجنة » ـ كان متأثرا بطابع تقليدى عريق فى ادب بلاده ، ففى عنفوان الحركة « الرومانتيكية » التى سيطرت على الادب الفرنسى فى القرن التاسع عشر ، تذكر «بلزاك» مرح وعبث القرون الوسطى ، واتجه الى الاهداف التى طالما استهوت الأجيال السالفة من مواطنيه ، فنسج قصصه حول الزوجات الخائنات ، والازواج الغافلين ، والرهبان الغاوين ، والفتيان والفتيات الذين تستهويهم المغامرات الغرامية .. واضفى على هذا النسيج لونا من الفكاهة الاصيلة فى نفوس أبناء (تورين) !

على أن «بلزاك» لم يغرق فى المجون الى الدرجة التى نسى معها الادب العاطفى الرفيع .. بل ان مجموعته حوت تحفا من هذا اللون وتحفا من ذاك ، وتحفا ضمت النوعين معا .. وهذا ماساعدنى على ان اجمع لك هذه الباقة ، التى تمثل روح «بلزاك» اصدق تمثيل ، كما تمثل اسلوبه الشاعرى، ودراساته العميقة للنفس البشرية ..

وبعد هذه اللمحات السريعة ، أتركك لتحكم بنفسك على القصص التى اخترتها لك

والله ولى التوفيق

حلمى مراد



أخوان في السلاح!

• في بداية حكم الملك هنري الثاني ـ الذي كان مغرما جدا بالجميلة ديانا ـ كانت ثمة عادة متوارثة ، وان كانت ممارستها قد ضعفت ـ في ذلك الحين ـ ثم اختفت الآن اختفاءا تاما ، مثلها في ذلك مثل كل العادات الجميلة التي كانت سائدة في العهود القديمة ! .. وكانت هذه العادة البديعة ، المنطوية على أنبل المشاعر ، هي أن يقوم كل فارس من الفرسان باختيار زميل من زملائه ليكون أخا له في السلاح .. وذلك بعد أن يختبر كل منهما الآخر ويتأكد من اخلاصه وشهامته . فاذا اطمأن كل من الرجلين الى صاحبه عقد بينهما رباط يربطهما لمدى الحياة .. ومن ثم يصبح كل منهما أخا للآخر : **يدافع عنه في القتال ضد الاعداء الذين يهددونه ، ويدفع عنه في البلاط افتراء الاصدقاء الذين يغتابونه .. فاذا اتهمه أي انسان ـ وراء ظهره ـ بالخيانة أو الحماقة أو الاجرام أو الاثم، بادر أخوه الحميم الى رد التهمة عنه ، قائلا للمفتري : « لقد كذبت بكلماتك التي أخرجتها من حلقك ! » ..**

وهكذا كان كل منهما يذهب الى ميدان القتال ، واثقا كل الثقة من شرف أخيه واقامته على عهده .. ولا داعي لان نضيف أن كلا منهما كان عليه على الدوام أن يؤيد الآخر في كل الأمور ـ خيرها وشرها ـ وأن يشاطر الاخر كذلك في الخير وفي الشر .. فكانا ـ بذلك ـ أفضل من الأخوين الطبيعيين اللذين لم تجمع بينهما الا مصادفة الميلاد من أم واحدة ، ولم تربط بين قلبيهما الا عاطفة قاهرة لاتصدر الا عن اذعان لحكم صلة الرحم .. وبذلك كانت تلك العادة النبيلة مصدرا لأسمى المشاعر التي تماثل ـ فيما تنطوي عليه من شرف وشهامة ـ أخلاق قدماء الاغريق ، والرومان ، وغيرهم من الشعوب .. الا

ان هذا ليس موضوعنا ، فقد سجل مؤرخو بلادنا هذه الأمور، فألم بها كل انسان

* * *

• **ولقد** حدث فى تلك الأيام ان سيدين من شباب (تورين) ـ هما السيد « مايبه » ، والسيد لافاليير ـ اختار كل منهما الآخر أخا له فى السلاح ، وكان ذلك فى ذات اليوم الذى حصلا فيه على مهماز الفرسان ، وبمجرد أن غادرا منزل السيد « مونتمورنسي » ، حيث كانا قد تثقفا بما لذلك القائد العظيم من آراء ثمينة ، وبرهنا على مقدار تأثرهما بصحبته الطيبة ، حين خاضا معا معركة (رافينا) ، وابديا فيها من الشهامة ما استحقا من أجله الثناء من اكبر الفرسان سنا فى ذلك الزمان .. **ففى معمعان تلك الموقعة العنيفة ، أنقذ «لافاليير» حياة « مايبه » . وقد استبان لهذا الاخير مقدار ما ينطوى عليه قلب منقذه من بسالة ونبل .. واذ كان كل منهما قد أصيب بجراح أثناء القتال ، فقد دشنا تآخيهما بدمائهما ، وأجريت مراسيم ارتباطهما ، وتشاطرا فراشا واحدا تحت خيمة قائدهما السيد مونتمورنسى .. حسب التقاليد ! .**

ولعله من الضرورى ان نخبرك ـ ايها القارىء العزيز ـ بأن السيد « مايبه » ، كان على عكس المعروف عن عائلته من جمال الطلعة .. كان صاحب وجه لا يسر الناظرين ، ولم يكن يتصف بأى جمال ، اللهم الا جمال الشيطان .. أما فيما عدا ذلك فقد كان مرن الجسم ـ ككلب الصيد الأغبر ـ عريض المنكبين ، متين البنية كالملك « بيبين » ، الذى كان مقاتلا مخيفا ..

أما السيد « لافاليير » ، فقد كان شخصا ظريفا ، أنيقا ، يبدو أن من أجله ابتدعت الأشرطة الفاخرة ، والجوارب الحريرية ، والأحذية المزررة .. وكانت خصلات شعره الطويلة الفاحمة ، تحكى فى جمالها ضفائر شعر النساء . وباختصار ..

كان كالطفل الذى يروق لجميع النساء أن يلعبن معه !.. حتى لقد قالت الحسناء « دوفين » ، بنت أخ البابا ـ ذات يوم ـ الملكة نافار ، التى لم تكن تكره مثل هذه المزح الصغيرة : « ان هذا الوصيف بلسم لكل الأوجاع ! » .. مما دفع بحمرة الخجل الى محيا الفتى التورينى الجميل الصغير . فقد فهم هذه الملاطفة ، على انها تعبير ، اذ انه لم يكن قد تجاوز السادسة عشرة اذ ذاك !

وعندما عاد السيد «مايبه» من ايطاليا ، وجد خف الزواج جاهزا لقدمه .. فان أمه كانت قد حصلت عليه ـ من أجله ـ ممثلا فى شخص الآنسة «دانيبو» .. التى كانت عذراء لطيفة الشمائل ، ذات شكل جميل ، وكانت مجهزة بكل شيء .. فقد كانت تملك قصرا بديعا فى شارع (باربيت) ، ذا أثاث فاخر ، ولوحات ايطالية .. كما كانت ترتقبها ممتلكات واسعة ، سوف ترثها ..

* * *

• **ولقد** حدث عقب وفاة الملك « فرانسيس » ببضعة أيام وكانت وفاته فى ظرف أوقع الرعب والبلبلة فى قلب كل انسان ، اذ مات جلالته على أثر اصابته ب « داء نابولى » وهو ذلك المرض الخبيث الناشيء عن الحب .. حدث فى ذلك الظرف ، أن اضطر السيد «مايبه» ـ السابق الذكر ـ الى أن يغادر البلاط ، كى ينجز مهمة خاصة ، ذات أهمية كبرى ، فى مدينة (بيد مونت)

وثق ـ ايها القارئ العزيز ـ من ان السيد « مايبه » ، كان متألما كل الألم ، ومهموما كل الهم ، لأن يترك زوجته الوفية ـ وهى بكل هذا الشباب ، وكل هذا الظرف ، وكل هذه الرشاقة ـ فى وسط الأخطار ، والاغراءات ، والشراك ، والمصائد ، والمكائد ، والأحابيل ، التى كان يموج بهما ذلك

المجتمع الرفيع الذى ضم اشخاصا كثيرين جدا ، من ذوى الجمال والفتنة والجسارة ،وكلهم مولعون بالنساء ، يشتهونهن كما يشتهون فخذ الخنزير المحمر الذى يقدم فى محلات (باسكال) !

وبسبب هذه الغيرة الشديدة ، أصبح السيد « مايبه » فى حالة يرثى لها من البلبلة والاضطراب .. الا أنه بقوة التفكير المتواصل ، وقع على فكرة رائعة يطمئن بها على زوجته ، بطريقة جديرة بالذكر .. فسرعان ما استدعى اليه أخاه فى السلاح ـ السيد العزيز « لافالبير » ـ لكى يوافيه فى صبيحة يوم رحيله .. وما ان سمع فى فجر ذلك اليوم حوافر جواد صديقه فى فناء الدار ، حتى قفز سريعا من فراشه ، تاركا نصفه الحلو غارقا فى ذلك النوم اللطيف الملىء بالاحلام ، المثقل بالنعاس ، الذى تغرم به السيدات الناعمات . .وخلف ستائر النافذة صافح كل من الصديقين الوفيين أخاه فى حرارة واخلاص . وبادر « لافالبير » صاحبه بقوله :

ـ كان يجب أن أسارع الى اجابة دعوتك منذ الأمس .. الا اننى كنت مرتبطا بمقابلة غرامية مع حبيبتى ، التى كانت قد ضربت لى موعدا .. ولم أستطع ـ بأى حال ـ أن أتخلف عن موافاتها فى ميعادها ، غير أننى غادرتها عند الفجر ، وها أنذا ألبى نداءك .. فهل تريدنى على أن ارافقك ؟ .. لقد أخبرتها بعزمك على الرحيل ، وقد وعدتنى أن تظل بغير حب ، الى حين عودتى ، وقطعنا بذلك عهدا فيما بيننا .. فاذا هى خدعتنى ، فلا بأس .. فان الصديق أفضل عندى من العشيقة !

فأجابه « مايبه » ، وقد تأثر جدا بهذه الكلمات : **« يا أخى العزيز .. انما أريد ان أسألك برهانا أعظم على شهامة قلبك .. فهل تتكفل بحراسة زوجتى ، وتدفع عنها كل طامع فيها ، وتظل الى جانبها ناصحا ، وهاديا ، وتحفظها مكبوحة الجماح**

عن نزوات الحب ، وزلات القلب ؟ .. ولكى تريح بالى أرجو أن تجيبنى : أتراك لن تجد مانعا من أن تقيم هنا - فى الغرفة الخضراء - أثناء غيابى .. وأن تكون حارسا لزوجتى ؟ »

فقطب لافاليير حاجبيه وقال : « ان خوفى ليس منك ولا من زوجتك .. وانما الذى يخيفنى هو كلام الناس ذوى الأفكار الشريرة ، الذين سينتهزون هذه الفرصة كى يعرقلونا بأحابيلهم الشبيهة بكرات الحرير .. »

فأجابه « مايبه » ، وهو يضمه الى صدره : « أما انا فلا تخف منى لأنه اذا كان الله قد كتب على أن ابتلى بأن أكون تيسا ذا قرون ، فان ألمى خليق بأن يتضاءل ، اذا جاء بلائى على يديك أنت أيها الأخ العزيز .. أما فيما عدا ذلك فكن واثقا من اننى سأموت من فرط الحزن ، لأن حياتى كلها معلقة بزوجتى الحبيبة الطاهرة .. »

واذ قال ذلك ، أدار رأسه ، حتى لا يرى لافاليير الدموع التى طفرت من عينيه .. ومع ذلك فان الفارس الذكى ، استطاع أن يلمح انسيابها فتأثر كل التأثر وأخذ يد « مايبه » بين يديه ، قائلا له : **« يا أخى .. اقسم لك بشرفى كرجل ، أن خنجرى سينفذ الى اعماق عروق أى انسان قبل ان يضع اصبعا على زوجتك ! .. وان لم أمت ، فسوف تجدها عند عودتك سالمة الجسم ، ولكننى لا أضمن لك سلامة القلب .. لأن القلب فوق سلطان الرجال ! »**

فقال مايبه : « اذن لقد اتفقنا ! .. وسأكون على الدوام خادمك ، ومدينا لك .. »

وعلى الفور امتطى جواده ، وانطلق فى رحلته ، دون أن يعود الى زوجته النائمة ، حتى لا يغرق فى الدموع والآهات ، وغيرها من تعبيرات التوجع التى تستعملها النساء عندما يقال لهن : « وداعا ! » .. وبعد ان شيعه « لافاليير » الى باب المدينة ، عاد الى القصر .. وهنالك انتظر حتى غادرت « مارى

دانيبو » فراشها ، فأخبرها برحيل زوجها العزيز ، وأخطرها بأنه يضع نفســه تحت امرها .. وكان ذلك كله بأسلوب فى منتهى الظرف ، حتى ان المراة البالغة العفة ، داعبتها الرغبة فى ان تحتفظ بهذا الفارس الجميل لنفسها !

* * *

• **ولكن** لا ضرورة هنـاك لبذل الجهد فى تحليل نفسيـة السيدة الفاضلة، اذا عرفنا انها كانت قد سمعت بالفعل حديث الصديقين ، وتكدرت جدا مما ساور زوجها من الشك فيها .. وا أسفاه ! ان الله وحـده هو الكامل ، وان فى أفـكار الرجال لناحية رديئـة دائما .. وانه لعلم واسع البـحر ذلك الذى يبحث فى تلك الأمور .. على أنه من المستحيل معرفـة كل شىء ، ومن المستحيل أن يمسك الانسـان بالشىء دائما من طرفه الصحيح .. **وانى لأعتقد أن سبب الصعوبة الكبرى التى يلمسها الرجال فى ارضاء النساء ، هو ان فيهن شيئـا أكثر نسائية مما يعتقـدن هن أنفسهن .. ولا أريد أن أزيد هـذه العبارة تفسيرا ، حتى لا اجدنى مضطرا لأن أتجاوز حـدود الاحترام الواجب نحوهن ، والاحتشـام اللازم ازاءهن .. الا أن الحقيقة التى لا شك فيهـا ، هى أنه ينبغى لنا الا نوقظ حيوية ذلك الشىء الكامن فى أعمـاقهن .. اما الدستور الذى يتحتم علينا نحن الرجال أن نخضع له فى دولة النساء ، فهو يتركز فى ان المهمة الوحيدة التى تنحصر فيها حياة امرأة ، هى أن تمزق قلب رجل ، وأن تخضعه لها !**

هذه فيما أظن أفضل سبيل لتحليل اللغز المحير ، الذى يكمن وراء الزواج ..

واذن ، فقـد سرت « مارى دانيبو » من أسلوب الفارس الشهم ووعوده الجذابة .. الا أنه كان ثمة شىء ما في ابتساماتها ، يدل على اتجاه ذهنها الى فكرة ماكرة .. ولكى نتكلم بصراحة ،

كانت تلك الفكرة تتمثل فى اعتزامها أن تضع حارسها الجميل بين شقى الرحى .. بين شرف الوفاء ، ولذة الهوى .. بأن تغمره بفيض من الحب .. أن تحاصره بكثير من المغريات .. أن تتعقبه بالنظرات الحارة ، حتى تنسيه ذلك الذى يسميه بالاخلاص ، وتجعله يسلو تلك الفضيلة التى يتشدق بها الفرسان .. فضيلة الشهامة !

★ ★ ★

• **وكان** كل شىء مرتبا ترتيبا كاملا لتنفيذ عزمها .. فان السيد « لافالير » كان ملزما بمقتضى عهده لصديقه ، بان يلازم زوجته فى ذات دارها .. كما انه ليس ثمة شىء فى الدنيا يمكنه أن يثنى امرأة عن بلوغ هواها .. وعلى أية حال ، فان العابثة الماكرة ، أعدت عدتها لأن تقتنص الشاب فى الفخ ، فراحت تدعوه - أحيانا - لأن يبقى بقربها الى جانب النار ، حتى منتصف الليل ، وهى تغنى أغنيات ناعمة .. وتنتهز - أثناء ذلك - كل فرصة كى تكشف له عن أكتافها البضة وغيرها من المفاتن الأخرى ، النائمة وراء ردائها الماكر ، الذى يأبى الا أن يقفز الى هنا وهناك .. وهى بيئذاك ترمقه بنظرات عميقة نافذة ، يتلألأ فيها ذات البريق الذى ينبعث من كأس خمر .. كل ذلك دون أن يبدو على وجهها أى شىء من الأفكار التى كانت تصطخب فى رأسها ..

وفى أحيان أخرى ، كانت تسير الى جانبه - عند الفجر - فى حديقة القصر ، متكئة بكل جسمها على ذراعه ، وهى تضغط ضغطا شديدا عليه ، ثم تتنهد .. ولا تلبث أن تطلب اليه أن يعقد لها أربطة حذائها ، التى لم يكن يحلو لها أن تنحل الا فى مكان بعينه من منعطفات الحديقة ! وفى هذه الاثناء ، تلقى اليه الماكرة بتلك الكلمات الناعمة ، وتثير التفاته بتلك الأشياء الناعسة التى تعرفها النساء جيدا ! ..ثم لا يفوتها أن تشاكسه

ببعض المشاغبات اللطيفة ، التى تثير كوامن المشاعر الخفية فى قلوب الرجال .. اذ تبدى بعض الاهتمام به ــ كضيف فى دارها ــ كأن تذهب اليه فى غرفته ، لترى ماذا كان مستريحا ، وما اذا كان فراشه مرتبا ، والغرفة نظيفة والتهوية جيدة ، وما اذا كان يشعر بأى تيارات هوائية أثناء الليل ، وما اذا كانت الشمس تدخل الغرفة اثناء النهار ، وتساله عما اذا كان قد اضطر أن يتخلى عن بعض أهوائه المعتادة ، قائلة له : « هل اعتدت ان تتناول أى شىء فى فراشك عند استيقاظك فى الصباح .. كالعسل ، أو اللبن ، أو التوابل .. وهل موعد وجبة الغداء يناسبك ؟ لسوف أجعل ميعاد غدائى يوافق ميعادك .. قل لى ! .. لعلك تخجل من أن تطلب ذلك منى .. كن صريحا واخبرنى .. »

وهى تصحب هذه الالتفاتات الصغيرة ، الظريفة ، بمائة عبارة شيقة : فمثلا .. تقول وهى تلج الغرفة : « ها أنذا أتطفل عليك دون استئذان .. فابعث بى خارجا .. ان تكن راغبا فى الوحدة ، فسأنصرف لفورى ! » .. الا أنها كانت على الدوام تدعى بترحيب لأن تدخل .. وأن تبقى ..

وكانت السيدة الماكرة لا تبدو على الدوام الا فى أردية هفهافة ، تكشف عن نماذج من جمالها الخلاب الذى يجعل الرجل يصهل كالحصان ، ولو كان قد حطمه الزمان ، وبلغ من السن ما بلغه السيد « متوشالح » ، ذو التسعمائة والستين عاما !

الا أن الفارس النبيل ، كان صلبا مرهفا كالابرة ، فترك السيدة تتمادى فى حياكة أحابيلها وتدبير حيلها ، وقد سره أكبر السرور أن يراها شاغلة نفسها به .. الا أنه ــ باعتباره أخا مخلصا ــ كان ما يفتأ يذكر السيدة بزوجها الغائب .

***

● وفى ذات مساء ــ وكان الجو حارا جدا ، وقد بدأ الشك

يساور لافاليير فى ألاعيب المرأة ـ راح يقول لها ان « مايه » يحبها حبا شديدا ، وان لها فيه زوجا شريفا ، مهذبا .. وانه مشغوف بها ، وغيور عليها .. فقالت له : « اذا كان غيورا ، فلماذا أتى بك الى هنا ، اذن ؟ »

فأجابها : « ألم يكن ذلك منه تصرفا يدل على منتهى الحذر ؟ .. ألم يكن ضروريا أن يعهد بك الى شخص يدافع عن عفتك ؟ ألا يلزم لذلك رجل يحميك من الحمقى .. ؟ »

فقالت : « اذن فأنت حارسى ؟ »

فأجاب لافاليير : « .. ولى الشرف ! »

فقالت : « اذن لقد أساء الاختيار جدا ! » .. وأردفت عبارتها هذه بنظرة قصيرة ، فاجرة ، حتى أن الاخ المخلص ، رمقها بعين صارمة ، تنبعث منها ومضة نافذة كحد السكين ، ودار على عقبيه تاركا السيدة الجميلة وحيدة ، مجروحة الكبرياء من جراء ذلك الرفض القاسى لخوض معركة غرام ..

واذ وجدت نفسها منفردة ، راحت تفكر تفكيرا عميقا ، وبدأت تبحث عن العقبة الحقيقية التى تعترضها .. فمن المستحيل أن يدخل فى عقل امرأة ، أن رجلا يمكنه أن يرفض ذلك الشيء الذى لايشترى معذلك الا بالثمن الغالى ، اذا عرض له سهلا ميسورا .. واجتمعت الأفكار فى رأسها ، وتناسقت واندمجت ، حتى تبلورت آخر الأمر فى فكرة واحدة كاملة .. **وكانت تلك الفكرة هى أنها قد وقعت الى قمة رأسها فى الحب .. وأن النساء لا ينبغى لهن أبدا أن يلعبن بأسلحة الرجل ، اذ أنها كالغراء ، تلصق دائما بالأصابع ! .. كان هذا هو أول الخيط فى تفكيرها .. ومنه توصلت الى الخطة التى كان يجب عليها أن تسلكها منذ بداية الأمر .**

وهداها طول التأمل الى أنه لابد أن يكون الفارس النبيل متعلقا بسيدة أخرى .. واذ تلفتت حواليها لترى أين أمكن لضيفها الجميل أن يجد هدفا لحبه .. فكرت فى الحسناء

« ليمييه » ، وهى احدى وصيفات الملكة « كاترين » .. وفى مدام « دونيفير » ، ومدام « ديستريه » ، ومدام «دوجياك»، اللاتى عرفن جميعا بأنهن يعشقن « لافاليير » .. فلابد أنه يحب واحدة منهن الى درجة تملأ عليه كل فكره !

واذ استقرت على هذا الظن ، انبعث منه عامل آخر أضيف الى العوامل الأخرى التى تعتمل وتتفاعل فى نفسها .. **وذلك العامل هو الغيرة ، التى أججت فى قلبها الرغبة فى أن تغوى حارسها ، وتراوده عن نفسه !** .. وفى هذا السبيل لم تكن تريد أن تقسو عليه أو تجرحه ، وانما أن تعطر بالطيب شعره ، وأن تقبل رأسه ، وأن تعامله بنعومة ورفق ..

لقد كانت بالتأكيد أجمل ، وأصبى ، وأشهى ، وأظرف منافساتها جميعا .. أو كان هذا على الأقل هو رأيها المتفائل فى نفسها ..

* * *

• **وهكذا** راحت تدفع بها بواعث وحوافز أحاسيسها ، والعوامل العضوية الأخرى التى تؤثر فى النساء .. فعادت الى مهمتها الأولى ، لتبدأ هجوما جديدا على قلب الفارس ، حتى تستولى عليه .. **لأن النساء يحببن أن يغزون ما هو محصن ومنيع !**

وحينئذ لعبت لعبة القطة الأليفة ، وعششت بالقرب منه ، وبدأت تؤدى أمامه دور الجليسة الحلوة المؤانسة.. وما فتئت تلاينه ، وتداهنه ، وتراوضه فى رفق ، حتى حدث أنها فى احدى الأمسيات بدت أمامه حزينة يقتل نفسها اليأس والقنوط ، وان كانت فى أعماق روحها مرحة منشرحة الى أقصى الحدود ، فسألها فارسها الحارس قائلا لها : « ماذا بك ؟ »

فأجابته حالمة ـ وهو ينصت الى صوتها الذى كان يغرد

كالموسيقى ـ بأنها تزوجت « مايبه » ضد رغبة قلبها ، وأنها لذلك تعيسة جدا ، اذ أنها لم تعرف لذات الحب .. وان زوجها لا يفهمها .. وان حياتها مليئة بالدموع .. وأنها ـ فى الحقيقة ـ ما زالت عذراء القلب .. بل عذراء كل شىء ، اذ أنها لم تجرب شيئا ـ فى الزواج ـ الا الخيبة وانعدام اللذة .. ثم أضافت ان الحب الذى حرمت منه لابد أن يكون لذيذا جدا ، لأن كل السيدات يسرعن اليه ، ويترامين عليه ، ويكرهن من كل قلوبهن من يصدهن عنه .. ولأن بعض الناس يبذلون الثمن الغالى ليحصلوا على قليل منه ..

وقالت انها لمشتاقة الى أن تذوقه .. بل أنها فى سبيل ليلة حب واحدة ، مستعدة أن تهب كل حياتها ، وأن تظل كل أيامها خادمة مطيعة لحبيبها .. الا أن ذلك الذى تريد أن تكون تجربتها الأولى معه ، وتتمناه أكثر من غيره ، يصد عنها ، ولا يستمع اليها ، مع أن حبهما سوف يبقى سرا مجهولا الى الأبد ، مادامت ثقة زوجها فيه عظيمه جدا .. وانه سيؤدى بها الى الموت ، اذا ظل مع ذلك رافضا !

وكل هذه العبارات ـ التى يتألف منها النشيد العام الذى تحفظه النساء منذ ولادتهن ـ ألقيت بين ألف لحظة من لحظات الصمت والتوقف .. وقد تخللتها التأوهات ، والتنهدات ، المنتزعة من صميم القلب .. وزينتها الرجفات ، والرعشات ، والتضرعات الى السماء ، والنظرات المبتهلة ، وعلامات الخجل المفاجئة ، وانقباضات اليدين على خصلات الشعر المتهدلة .. وباختصار ، لم يكن ثمة عنصر من عناصر الاغراء ناقصا .. وفى قرارة كل هذه الكلمات ، كانت ثمة رغبة لافحة تؤججها ، وتبدى عيوبها فى اطار مزخرف !

وعند ذاك سقط الفارس النبيل عند قدمى السيدة ، وأخذهما ـ وهو يبكى ـ وقبلهما .. ولا حاجة بنا لأن نؤكد لك ـ أيها القارىء العزيز ـ أن السيدة الفاضلة قد سرها كل

السترور أن تتركه يقبل قدميها .. بل انها تركت ردائها له ، دون أن تتبصر فيما كانت تفعل ولكى تحول دون اتساخه على الارض ، رفعته جدا الى خصرها

ومع ذلك فقد كان مقـــدرا عليها أن تظل عاقلة فى ذلك المساء ، اذ أن لافالبير الجميل بادرها قائلا فى قنوط :

ـ أواه يا سيدتى ، اننى لتعيس سىء الحظ !

فقالت له : « ماذا ؟ »

فأجابها قائلا : « وا أسفاه ! فان لذة حبك محرمة على ! »

فقالت له : « كيف ؟ »

ـ أنا لا أجسر على أن أبوح بحالى اليك !

ـ وهل هو سىء جدا الى هذا الحد ؟

ـ آه . أنك سوف تخجلين منى

ـ تكلم . ولسوف أخفى وجهى بيدى !

الا ان السيدة الماكرة أخفت وجهها بحيث كان بوســعها أن تنظر الى حبيبها خــلال أصابعها .. فقال : **« وا أسفاه ! فاننى فى تلك الليلة التى خاطبتنى فيها بكلمات رقيقة جدا ، اضطرمت دمائى بنار غادرة . ولم أكن أعلم ان سعادتى قريبة منى الى هذا الحـد .. واذ لم أجسر على أن أعترف بنـارى اليك ، أسرعت مهرولا الى بيت فى أطراف المدينة يذهب اليه جميع الرجال .. وهناك، من أجل حبى لك ، ولكى أنقذ شرف زوجك الذى هو أخى .. أصبت بعدوى مرض خبيث ، الى درجة بالغة السوء ، حتى أننى لفى أشد الخطر من أن أموت بالمرض الايطالى ! »**

وانقض هذا النبأ على السيدة كالصاعقة ، فأطلقت صرخة امرأة تصدم فى قمة رغبتها . وبانفعال عظيم دفعته عنها باشارة صغيرة ، اجتهـــدت ـ وهى فى عنفوان تأثرها ـ أن تكون مهذبة ..

أما لافاليير المسكين ، فقد نهض ـ اذ وجد نفسه فى ذلك الموقف الذى يدعو الى كل الاشفاق وانصرف من الحجرة .. الا أنه لم يكد يبلغ ستائر الباب ، حتى أدارت « مارى دانيبو » عينيها اليه ، وتأملته مرة أخرى ، قائلة فى نفسها وهى تتلوى متوجعة : « آه ! وا أسفاه ! » .. ثم انتابتها حالة عصبية شديدة ، وانسابت دموعها اشفاقا على فارسها الجميل ، وازداد حبه اتقادا فى قلبها .. لأنه كان فاكهة حرمت ثلاث مرات ! !

* * *

• **وخيل** اليها ـ فى احدى الأمسيات ـ أنه أجمل مما رأته فى أى وقت مضى ، فقالت له : « ولكننى ـ من أجل « مايه » ـ مستعدة لأن أشاطرك مرضك ، فنقاسى معا ذات المخاوف ! »

فقال لها : « اننى أحبك حبا بالغا ، فلست أرضى أن تفعلى بنفسك هذا . »

وتركها ليذهب الى جميلته « ليمييه » .. الا أنه اذ لم يكن يملك أن يرفض الاستجابة للنظرات الملتهبة التى كانت توجهها اليه السيدة أثناء وجبات الغداء ، وفى الامسيات .. فقد كان ثمة نار متقدة تحرقهما معا ، فقد كانت السيدة مضطرة الى أن تعيش دون أن تمس فارسها ، اللهم الا بعينيها .. **ولما كانت الى هذا الحد مدلهة بحبه ومشغوفة به ، فقد ظلت محصنة ـ من كل الجهات ـ ضد غزوات غيره من فرسان البلاط .. فليس ثمة استحكامات تبلغ فى المناعة ما تبلغه استحكامات الحب ، ولا حارس أفضل منه .. أنه كالشيطان الذى ما ان يقع انسان فى قبضته ، حتى يحيطه بألسنة اللهيب !**

وفى ذات مساء ، رافق « لافاليير » زوجة صديقه الى حفلة

رقص أقامتها الملكة كاترين . وهنـــالك رقص مع الحسناء « ليمييه » ، التى كان يحبها حبا جنونيا .. وكان الفرسان فى ذلك الوقت يحملون حبيباتهم فى شهامة أثنـــــاء الرقص ، ويصطفون اثنين ، اثنين .. ومن ثم فقد اشتعلت نار الغيرة من « ليمييه » فى قلوب كل السيدات اللاتى كن حينذاك يتمنين أن يستسلمن للافاليير الجميل .. وقبل أن يأخذن أماكنهن فى حلبة الرقص ، ضربت له موعدا للقاء ـ أثناء الصيد ، الذى كان مزمعا فى اليوم التالى ..

والواقع أن ملكتنا العظيمة « كاترين » ، كانت ـ لأغراض سياسية ـ تذكى نار الحب بين أولئك العشاق وتؤججها كما يؤجج صانعو الفطائر أفرانهم بمحراك النار .. وقد نظرت أثناء هذه الحفلة الى أولئك المدلهين ، وقالت لزوجها : « اذا كانوا ينشغلون هنا بالتنافس على العشيقات فهل يجدون وقتا لأن يتآمروا ضدك ؟ »

فقال لها : « نعم ! .. انما أخشى البروتستانت ؟ »

فقالت ضاحكة : **« هون عليك! فلنأت بهم الى هنا كذلك .. ولـكن لمـاذا ؟ .. انظر الى لافاليـير الذى يتهمـونه بانه من « الهيجونوت » .. لقد اقتنصته صغيرتى العزيزة «ليمييه» ، التى تلعب أوراقها بطريقة ليست سيئة بالنسبة لفتـــاة فى السادسة عشرة .. وانه لن يلبث أن يضع اسمها فى قائمـــة عشيقاته ! »**

فقالت « مارى دانيبو » ، على الفـــور : « كلا يا مولاتى ! لا تصدقى ذلك .. فلقد دمره ذلك المرض الخبيث .. مرض نابولى ! »

ولدى هذا الاعتراف الساذج ،تبودلت النظرات بين كاترين، والحسناء ديانا ، والملك ، الذين كانوا جالسين معا ، وانفجروا ضاحكين ... وسرعان ما انتشر الأمر في الصالة كلها ، وانهالت من جرائه عبارات التهكم والمعايرة المخزية على « لافاليير » ..

واذا بالرجل المسكين يجد نفسه وقد راح الجميع يشيرون بأصابعهم اليه ، فتمني فى تلك اللحظة لو ان فى مكانه رجل آخر .. **وزاد الأمر سوءا ان منافسيه فى حب « ليميبيه » لم يتأخروا عن أن يحذروها ـ وهم يضحكون ـ من الخطر الذى كانت مهددة به ، فما ان سمعت بذلك حتى بدا أنها توجست من حبيبها .. واستولى الرعب على قلوب كل الحاضرين من ذلك المرض اللعين .. وهكذا وجد لافاليير نفسه مهجورا من الجميع كأنه المجذوم !** .. وغادر الفارس المسكين قاعة الرقص ، تتبعه « مارى دانيبو » وهى تتعثر فى خطاها من فرط الخجل والندم على ما فرط منها .. اذ حطمت الرجل الذى تحبه ، وأضاعت حياته اذ كان الاطباء يجزمون بأن الأشخاص الذين يصابون بمرض الحب هذا ، يفقدون من جرائه أعظم مفاتنهم ، وكل قوى رجولتهم ، وتغدو عظامهم سوداء !

وهكذا أصبح مقررا أنه ما من سيدة سوف تقبل أن تربط نفسها بزواج شرعى مع أجمل رجل فى المملكة !

* * *

◆ **وفى** الطريق ، بدا الفارس الجميل مغرقا فى الصمت



والاكتئاب .. فما لبثت مرافقته أن قالت له : « يا سـيدى العزيز .. لقد ألحقت بك ضررا كبيرا ! »

فأجابها لافالبير قائلا : « عفوك يا سـيدتى ، فان ضررى قابل للعلاج .. ولكن فى أى مأزق سقطت أنت ؟ أنك لا تدرين الخطر الذى أحدق بحبى ! »

فقالت له : « رويدك ! اننى واثقـة الآن من اننى اكتسبتك على الدوام لنفسى .. وفى مقابل هذا الخزى العظيم ، والعار الذى دمغنا به معا ، سأكون صديقتك ، ومضيفتك، وحبيبتك الى الأبـد .. بل اننى سأكون أكثر من كل ذلك .. سأكون خادمتك ! .. **لقـد قررت أن أكرس نفسى لك ، فأمحو آثار هذا الشين .. سأسهر عليك،وأشفيك بحديثى ومواساتى.. واذا قال الاطباء - المتخصصون فى هـذه الأمور - ان المرض قد تشبث بك واشتد عليك بحيث أنه سـيؤدى الى هلاكك - كما حدث لملكنا المرحوم فرانسيس - فسأظل مع ذلك فى صـحبتك حتى أموت بفخـار .. اذ أموت بعلتك ! » ..**

ثم انفجرت باكية وهى تردف قائلة : « بل ان هذا - اذا قدر لى أن أفعله - لن يكون عقـابا كافيا لى ، كى أكفر عن الخطأ الذى ارتكبته فى حقك ! »

وكانت هذه الكلمة مصحوبة بدموع غزيرة ، أذابت حرارتها قلبها الممتلىء بالاخلاص ، فكأنه شمع مصهور .. واذا بهـا تترنح ، حتى كادت أن تسقط على الأرض خائرة القـوى ، لولا أن أسرع « لافالبير » - وقد تملكه الانزعاج - فأمسك بها ، ووضع يده على قلبها ، تحت ذلك الصدر الذى تصرخ الفتنة وتعربد فيه .. فما ان شـعرت السيدة بحرارة يده الحبيبة على قلبها ، حتى بدأت تفيق من اغمائها .. الا أن رأسها سرعان ما دار بنشوة المباهج المسكرة التى راحت تسرى كالخمر فى دمها ، فتملكها الدوار من جديد .. وكادت من فرط تلذذها أن تفقد وعيها مرة أخرى .. ثم قالت حالمة :

« وا أسفاه ! ان هذا الحنان البسيط سيكون ـ فى المستقبل ـ هو المتعة الوحيدة لحبنا .. على أنه سيكون ـ على بساطته ـ أفضل ألف مرة من كل محاولات مايبه التى لا جدوى من ورائها ولا لذة فيها .. ألا دع يدك هنا .. صدقنى أنها فوق روحى .. انها لتلمسها ! »

وعند هذه الكلمات أصبح الفارس فى حال تدعو الى الاشفاق .. واعترف للسيدة ـ فى سذاجة ـ بأنه يستشعر سرورا عظيما فى هذه الملامسة حتى أن آلامه قد تزايدت ، وأن الموت أفضل لديه من هذا الاستشهاد البطىء الناشىء عن الحرمان !

فقالت له : « دعنا نمت اذن ! »

الا أن محفة الموت ـ الذى كانت تنشده ـ لم تكن فى متناول اليد .. وعلى ذلك فقد نام كل منهما بعيدا على الآخر !

★ ★ ★

• **وبسبب** هذا الحادث ـ الذى لم يكن قط فى الحسبان ـ وجد لافاليير نفسه محروما من الحب والزواج ، ولم يعد يجرؤ على أن يظهر فى المجتمعات العامة ..

وهكذا عرف مدى الثمن الباهظ الذى يتكبده من يتعهد بحراسة عفاف امرأة .. الا أنه بقدر ما أبدى من شرف واخلاص ، استشعر لذة وسعادة فى تلك التضحيات العظيمة التى بذلها على مذبح الاخوة .. لا سيما بعد ان تبين كم كان الواجب الذى ألقته المقادير على عاتقه قاسيا وثقيل الوطأة ، الى درجة لا تطاق !

اما الحسناء « مارى دانيبو » ، فان اعترافها بالحب ـ الذى كانت تعتقد انه متبادل ـ والخطأ الذى ارتكبته فى حق فارسها ، واحساسها باللذة الخفية التى اسكرتها حين وضع يده على قلبها .. كل ذلك أوقعها فى حبائل الحب الافلاطونى ،

الذى لا تحف به أخطار ، ولا يؤدى الى اضرار ، رغم ما فيه من حلاوة وسحر ! .. وقد كان هذا هو المصدر الذى انبعثت منه تلك المسرات الأبليسية لذلك اللون من الحب الذى ابتدعته النسوة ، اللاتى كن ـ منذ وفاة فرانسيس الأول ـ يخشين عدوى المرض الخبيث الذى قتله ، ولكنهن يتقن ـ مع ذلك ـ الى تذوق اللذات مع عشاقهن ! .

واذ لم يجد « لافاليير » فى المباهج الخفيفة ـ التى كان ينطوى عليها ذلك الحب العفيف ـ ما يحول دون أداء مهمته على أكمل وجه ، فقد بدأ مرحلة جديدة فى حياته مع زوجة صاحبه .

وهكذا أتيح لمارى المدلهة المحرومة من متعة الحب أن تلقى بنفسها كل مساء فى حضن حبيبها ، رافعة يديه الى شفتيها ، واضعة خدها بلطف على خده ، وعيناها تلتهمانه بنظرات ملتهبة عشقا وغراما ! .. وفى أثناء هذا العناق العفيف ـ الذى كان الفارس يعانى خلاله ما يعانيه الشيطان حين يلقى عليه ماء مقدس ـ كانت تبثه حبها العظيم الذى لم تكن له حدود ، والذى كان يمتد فى الآفاق اللانهائية الرغبة التى لم يتسن اشباعها !

كل النار التى تشتعل فى جسد المرأة فى ساعة لذتها الكبرى ـ حين لا يكون لليل أنوار الا بريق عينيها ـ كان سعيرها يتحول الى ومضات ساحرة من الأحلام والاوهام التى كانت تتراقص فى خيالها ، فتبعث المسرة فى روحها ، وتسكر بخمر الصبابة قلبها !

وفى ذات ليلة ، وقد شملتهما النشوة البهيجة التى لا تساور سوى ملكين لا تربط بينهما الا الروح ـ راحا ينشدان معا تلك الترانيم الخلابة التى اعتاد العشاق ان يرددوها وهم بعد فى مرحلة الحب العفيف .. تلك الترانيم التى كان الفضل للاسقف « تيليم » فى انقاذها من النسيان ، اذ عنى بنقش

نصوصها على جدران ديره ، الواقع فى أرض (شـ ـينون) ، حسب قول السيد «الكوفريباس» الذى رآها هنالك باللاتينية، وترجمها لمصلحة المؤمنين !

وقد بدأت ((مارى دانيبو)) انشودة غرامها ، اذ ندت عنها وهى بين ذراعى حبيبها صرخة مكبوتة ، تمتزج فيها النشوة العذبة بالعذاب ، وهى تقول له : ((لا حيلة لى ! فأنت قوتى وحياتى .. أنت سعادتى وكنز مسرتى .))

فأجابها : « وأنت ! أنت جوهرتى .. أنت ملاكى . »

هى : أنت .. أنت ملاكى سيرافيم !

هو : أنت روحى !

هى : أنت الهى !

هو : انت نجم صباحى ونجم مسائى .. أنت ضيائى .. انت جمالى وبهائى .. انت دنياى بأسرها !

هى : أنت سر وجودى .. أنت معبودى !

هو : أنت مجدى ، أنت خلدى ، أنت شرفى ، أنت دينى !

هى : أنت رجلى الجميل .. أنت رجلى النبيل .. أنت فارسى ، أنت حارسى ، أنت ملكى ، أنت حبيبى !

هو : أنت جميلتى .. زهرة أيامى ، حلم ليالى !

هى : أنت شاغل فكرى فى كل حين !

هو : أنت نور عينى ! **هى** : أنت صدى روحى !

هو : أنت ضيائى بالنهار ! **هى** : انت نورى بالليل !

هو : أنت أحب النساء الى !

هى : انت معبودى دون الرجال جميعا !

هو : انت دمى ، انت نفسى .. أنت أفضل من نفسى !

هى : أنت قلبى .. أنت حبى .. أنت مناى !

هو : انت سعادتى الوحيدة .. انت قديستى !

هى : اننى أسلمك شجرة هواى .. وكم سيكون فخارى ، اذ أراك تزداد لى حبا ، لأنك أنت سيدى !

هو : كلا ، بل أنت مصدر الحب .. يا الهتى .. يا مارى العذراء .. !

هى : كلا ، بل أنا خادمتك .. جاريتك ..

هو : كلا ، كلا .. أنا الذى هو عبدك .. خادمك المطيع ، الذى يمكنك أن تتنفسيه كهواء ، وأن تسيرى عليه كبساط .. ان قلبى هو عرشك !

هى : يا أعز الناس عندى .. ان صوتك هو سر كيانى ، ومصدر وجدانى ..

هو : ان عطفك يلهبنى ! **هى** : أنا لا أرى سواك !

هو : أنا لا أحب غيرك !

هى : أواه ، ضع يدك على قلبى .. فقط يدك .. وسوف ترانى أشحب ، حتى تسرى حرارة دمك فى دمى !

★ ★ ★

• **وخلال** هذه الملحمة ، كانت عيونهما المتقدة بالحرارة ، تسطع كالنار .. وكان الفارس النبيل يشعر بنصيبه من اللذة التى كانت « مارى دانيبو » تستشعرها من وجود يده على قلبها .. وفى غمرة هذا العناق العفيف ، كانت كل قوتهما تنطلق وتزمجر فى عروقهما ،وكل رغبتهما تغلى وتدمدم كحمم البركان فى أعماقهما .. وقد تركزت كل أحلام شبابهما فى تلك اللذة العارمة التى راحت تصرخ وتولول كالوحش الجائع فى جسديهما المحمومين .. **حتى اذا فاض بهما الوجد والعذاب، انهمرت الدموع من عينيهما ، وضم كل منهما الآخر وراح يضغط عليه بكل قواه ، ويحاصره كما تحاصر النار المنازل . ولكن هذا كان غاية أمرهما ، فقد وعد صديقه «الافالييه» بأن**

يعيد اليه جسم امرأته سالما وسليما .. الجسم فقط، وليس القلب ! .

وفى اليوم التالى ، وردت رسالة من « مايبه » يقول فيها أنه فى طريق عودته ، فجاء ذلك فى الوقت الملائم بالذات ، لأنه ما من فضيلة يمكنها أن تصمد طويلا أمام اغراء الحب ! .. وما أسرع ما غادر الفارس النبيل حبيبته الى (بوندى) ، كى يستقبل هناك أخاه ، ويمد له يد العون أثناء مسيره خلال الغابة ، دافعا عنه ما قد يتعرض له خلالها من أحداث .. وفى قرية (بوندى) رقد الصديقان معا فى فراش واحد ، حسب العادة القديمة .

وهنالك – فى فراشهما – سرد كل منهما أخباره على مسامع صاحبه : فقص احدهما مغامرات رحلته ، وروى



الآخر أحاديث معسكر الفرسان ، وما وقع فيه من ضروب الشهامة والنخوة .. الا أن أول سؤال وجهه « مايبه » الى صديقه ، كان متعلقا بمارى دانيبو ، التى أقسم « لافاليير » أن يسلمها الى أخيه سليمة الجسم ، كما استلمها .

* * *

• **وفى** اليوم التالى ، اجتمع الثلاثة معا .. وعلى الرغم

مما شعرت به مارى من مضـــايقة ، فانها حسب الشريعة العليا للمرأة ، استقبلت زوجها بحفـــاوة كبرى . على أنها راحت تنظر ـ من طرف خفى ـ الى « لافاليير » ، وتشـــير باصبعها الى قلبها ، وكأنها تقول له : **« هذا لك ! »**

وفى أثناء العشاء ، أعلن « لافاليير » انه اعتزم الرحيل فورا الى ميدان القتال ، فلما سمعه ماييه يعلن هذا العزم تكدر جدا ، وأبدى رغبته الصادقة فى أن يصحب أخاه ، غـــير أن لافاليير رفض ذلك فى الحال .. ثم اتجه الى « مارى دانيبو » وقال لها هامسا :

« يا سيدتى ، أنا أحبك أكثر من الحياة ، ولكن ليس أكثر من الشرف ! »

واذ قال ذلك امتقع وجهه .. وأما السيدة فانهـــا لم تكد تســـمع ذلك حتى ابيض لونها ، لأنه لم يحدث قط أثناء مداعباتهما ان صدر قول فيه من صادق الحب ما كان فى هذا القول !

ولقد أصر ماييه على أن يصحب أخاه حتى مدينة (مو) . فلما عاد الى زوجته ، راح يسألها عما عســـاها تكون تلك الأسباب المجهولة ، والدوافع الخفية ، لهذا الرحيل السريع .. فأجابته : « اننى أعرف سر ذلك .. فان صاحبك قد خجل من البقاء هنا .. لأنه مصاب بمرض نابولى » !

وما أن سمع « ماييه » قولها ، حتى تولته دهشة عظيمة ، وصاح قائلا : « محض هراء ! فقد رأيته حينما كنا فى الفراش معا فى بوندى ، فى الليلة قبل الماضية .. وبالأمس رأيته فى (مو) ، فلم يكن فيه شىء .. انه سليم الجســم كالجرس الرنان ! »

وحينئذ انخرطت الســـيدة فى البكاء ، وقد أدركت أن

« لافاليير » زعم المرض ليتجنب خيانة صديقه ، واحتمل ما احتمل من اعراض القوم وازدرائهم ، ليبر بعهده لصديقه ، فراعها ذلك الوفاء العظيم .. ذلك الاذعان القاسى للعهد الذى قطعه ـ ذلك الفارس النبيل ـ على نفسه ..

على أنها ـ اذ كانت ما تزال تحتفظ بحب لافاليير فى أعماق قلبها ـ لم تلبث أن ماتت حين سمعت انه سقط قتيلا فى موقعة (متز) !.. وقد روى ذلك السيد« بوردى دوبرانتوم»، فى كتابه : « القيل والقال »

- * -



رهان الأميرة!

• **كان** « جيهان » – ابن سيمون فورنييه ، المعروف باسم « سيمونان » – مواطنا لمدينة (تور) . وكان مسقط رأسه قرية (مولينو) ، القريبة من (بون) ، اخذ عنها لقبه ، فصار معروفا بلقب « دوبون » – جريا على ما كان يفعله بعض الناس في ذلك الزمان . . وقد حدث انه اضطر يوما – عندما كان يعمل خازنا لدى لويس الحادى عشر – لان يفر هاربا مع زوجته الى (لانجيدوك) ، بسبب فضيحة ألحقت به . . وترك وراءه في «تورين» ابنه جاك ، معدما ، مفلسا . ولقد كان هذا الفتى – الذى لم يكن يملك من حطام الدنيا غير جمال طلعته ، وغير سيفه ، ومهمازه – محسودا من الكهول الذين انهكت السنون قواهم ، اذ كانوا من أجل جماله وفرط الفتوة البادية عليه ، يعتبرونه – رغم فاقته – غنيا جدا . . **وكانت تسيطر على رأسه فكرة جازمة وعزم قاطع على أن ينقذ أباه من ورطته ، وان يحصل لنفسه على وظيفة فى الحاشية الملكية ، التى كانت فى ذلك الحين مقيمة فى (تورين) .**

وبهذا العزم ، قام الفتى التوريني عند مطلع فجر ذات يوم ، فغادر منزله ، متلفعا بعباءته من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، حتى لم يعد يبدو منه الا أنفه الذى تركه معرضا للهواء . . وانطلق الى المدينة وهو خالى الامعاء من الطعام ، كى لا يعانى فى الطريق مضايقات الهضم . . وراح يهيم فى الطرقات ، حتى اذا صادفته كنيسة أعجبه شكلها ، دلف اليها ، وطاف بها ، ينش الذباب عن رسومها وبعد اعمدتها ، شأن رجل لا يدرى ما ينبغى ان يفعل بوقته او بنقوده . . وكان يتراءى له – فى بعض الاحيان – ان ينهمك فى استعراض سلسلة نسبه الى أجداده ! . . **الا أنه كان فى الواقع ما يفتأ ، بينذاك ، يسترق النظر الى السيدات ، ثم يخرج خلفهن حين انصرافهن ، فيتبعهن**

من بعيد ، منتهزا كل فرصة كى يؤدى لهن بعض تلك الخدمات الصغيرة ، التى قد تفتح له باب مغامرة ربما يجد من ورائها سبيلا للوصول الى شىء من مآربه ، او الحصول لنفسه على عشيقة فاتنة ، يجد لديها مضيعة لايامه ومتعة للياليه !

وكان يقتطع ـ فى كل يوم ـ من كنزه المدخر الصغير ، ثمن رغيف خبز وبضع تفاحات لايكاد يسد بها رمقه، ثم يعب بعد ذلك قدر ما يشاء ـ وبمطلق حريته ـ من ماء (اللوار) !!

وكان هذا الغذاء الصحى ، الذى دعت اليه موجبات الحرص والحذر ـ والذى كان يتلاءم مع ثقوب حزامه ـ يجعله مرحا خفيف الحركة ككلب الصيد ، ويهىء له فكرا نيرا ، وقلبا دافئا . فان ماء (اللوار) اكثر الاشربة جميعا مجلبة للقوة ، لأنه اذ يقبل من منبعه البعيد ، يتقوى من طول الجرى بين ساحليه الممتدين عبر السهل كله حتى يصل الى (تورين) .

وكان الفتى المسكين ما ينفك يتخيل ألف فرصة وفرصة مواتية ، وألف مغامرة ومغامرة سعيدة .. بل كان يذهب الى أكثر من هذا ، فيتطرق اليه الاعتقاد الجازم بان اوهامه تلك ـ التى كانت تتراءى له ـ ليست سوى حقيقة واقعة ..

فالله لك يا ايام الشباب .. يالك من أيام سعيدة !

* * *

• **وفى** احدى الأمسيات ، كان « جاك دو بون » ـ وكان هذا اسمه ، وان لم يكن فى الواقع أميرا من أمراء (بون) ـ يسير متسكعا على شاطىء النهر ، منهمكا فى لعنة سوء طالعه، وفى توجيه السباب الى الدنيا كلها .. واذا به يلمح ـ عند منعطف شارع ضيق ـ سيدة محجبة ، يتضوع منها عبير عطر نافذ ، أنعش مشاعر الهوى فى نفسه ، فسار خلفها ..

وكانت تلك الغادة مزدانة بالجواهر البديعة ، وقد راحت تختال فى ثوب رائع من المخمل الايطالى ، ذى كمين مزدانين

باشرطة عريضة من الحرير اللامع .. وعلى جبينهـا المتوارى خلف برقعها ، كانت ثمة ماسة بيضاء كبيرة الحجم ـ كأنها الشمس الساطعة وقت الغسق ـ وقد اخذت تلمع بين جدائل شعرها المصفف ابدع تصفيف ، والمنسق أبرع تنسيق ، حتى لكأن خادماتها قد قضين ثلاث ساعات فى تنميقه !

وكانت مشيتها تنم عن انها سيدة لم تألف المشى ، وانما اعتادت ألا تنتقل الا على محفة .. وكان أحد خدمها يتبعها ، وهو مدجج بالسلاح . وبدا واضحا ـ مما على سيمائها من نعمة وطلاوة ـ انها كانت تنتسب الى أحد الاشراف ذوى المرتبة الرفيعة ، او انها كانت احدى سيدات البلاط الملكى .. وكانت تحرص ـ أثناء سيرها ـ على ان ترفع طرف ثوبها لكى لا يمس الارض ، وتحنى قامتها قليلا الى الامام كسيدة من سيدات المجتمع الرفيع .

وسواء أكانت محترمة ، أم غانية ، فانها راقت للفتى «جان دوبون» ، ووقعت من نفسه ، حتى لقد استولت عليه ـ وان لم يدر الى ناحيتها أنفه ـ فكرة طائشة ، ألحت عليه بأن يهب هذه السيدة نفسه كل ايام حياته .. وبهذه الفكرة اعتزم ان يتبعها ، ليرى ما اذا كانت ستقوده الى الجنة او الى جهنم ذات الضرام .. الى عش الغرام ، أو الى المشنقة !

وكانت السيدة تتهادى على شاطىء (اللوار) متجهة نحو (بليسيز)، وهى ـ بينذاك ـ تستنشق عبير المـاء الرطيب كالسمكة .. متسكعة ، متلكئة كفأر صغير يريد ان يرى وان يتذوق كل شيء .. فلما ادرك خادمها أن «جاك دوبون» يتبع سيدته خطوة بخطوة ، ويلازمها حيث تتجه ، ويقف حين تقف، ويرقب عبثها بوجه لا حياء فيه ـ وكأنه يفعل أمرا من حقه أن يفعله ـ توقف الخادم الشهم ، واستدار فى عنف نحوه ، بوجه بادى الضراوة والعداء ، كوجه الكلب الشرس المكشر عن أنيابه .. وكأنه كان يقول بالنظرات المنبعثة من عينيه المتقدتين،

للطارىء المتطفل : « مكانك يا سيد ! »
ولكن التورينى الاصيل كان واثقا من نفسه ، مطمئنا الى أنه ان كان من حق أية قطة ان تنظر الى ملك ، فان من حقه هو بالاحرى — وهو المسيحى ، المتشرف بماء المعمودية — ان ينظر الى أية سيدة جميلة ! .. ومن ثم فانه رشق الخادم بنظرة ساخرة ، وتابع سيره متقدما السيدة تارة ، متأخرا عنها تارة اخرى .. أما هى ، فانها لم تقل شيئا ، وانما راحت تنظر نحو السماء — التى كانت قد لبست قبعة الليل — وتتفرس فى النجوم ، وتطيل التأمل فى كل شىء يمكن ان يدخل الى نفسها السرور .. **واستمرت هكذا — وهو يلازمها — حتى وصلت أخيرا الى الجهة المقابلة لبورتيلون .. فتوقفت قليلا .. ولكى تبصر بمزيد من الوضوح ، خلال غلالة الظلام الرقيقة ، رفعت حجابها عن وجهها ، وألقت به الى الخلف على كتفيها ، ثم صوبت نحو الفتى نظرة سيدة واعية تتلفت حواليها لتتأكد من خلو الطريق ممن عساه أن يسرقها !**
ويمكنك ان تصدقنى اذ أقول لك أن « جاك دوبون » كان يبدو — لأول وهلة — زير نساء بكل ما للكلمة من معنى .. وكان من روعة المظهر ، والمنظر ، بحيث يمكنه ان يسير الى جانب أميرة من أميرات الاسرة المالكة دون ان تجد غضاضة فى صحبته ، أو تستحى من السير معه .. فقد كان ذا طلعة تتفجر منها الرجولة والفحولة والقوة التى ترضى أحاسيس الجنس اللطيف .. واذا كان لونه قد تلوح قليلا بفعل حرارة الشمس — لطول تجواله فى الطرقات — فان بشرته ظلت تبدو — مع ذلك — ناصعة البياض ، اذا ما غمرته ظلمة الليل

* * *

• **وكانت** النظرة الحادة التى سددتها اليه السيدة ، حادة كسن الابرة . ولكنها بدت له كشعاع من النور نفذ الى قلبه ،

فأنزل عليه بردا وسلاما ، وعلى هذه النظرة راح يشيد املا شامخا فى خوض موقعة غرامية .. فعقد العزم على ان يندفع فى المغامرة الى نهايتها ، مهما يلاقى فى هذا السبيل من مصاعب واخطار .. وتابع سيره الى داخل المدينة خلف السيدة ، التى ولجت الى شارع (تروا يوسيل) ، ثم قادته فى تيـــه من الدروب الضيقة ، الى ميدان فسيح يقع فيه اليوم فنـدق « لا كروزيل » .

وهنالك توقفت السيدة أمام قصر شاهق ، وتقدم خادمها فطرق الباب ، فسرعان ما فتحه خادم آخر .. ودخلت السيدة واغلقت الباب خلفها ، تاركة السيد «دو بون» ، فاغرا فاه مذهولا ، يبدو عليه من الغباء ما كان يبدو على السيد القديس « دينيس » ، عندما راح يهرول باحثا عن عقله ! .. ثم رفع الفتى أنفه فى الهواء ، متشمما اية اشارة من اشارات الحظوة والقبول قد تلقى اليه !

وظل هكذا حزينا حائرا ، غارقا الى أذنيه فى احـــلامه وأوهامه ، وهو لا يدرى ما يفعل .. حتى اذا طال وقوفه ، انبعث فجأة من احدى النوافذ صريف حاد قطـع عليه شرود فكره .. وتوهم ان سيدته على وشك ان تدعوه اليها ، فرفع بصره الى ناحية النافذة .. ومن هنالك تلقى سيلا من المـاء على قمة رأسه ، تبعه ذات الوعاء الخزفى الذى كان يحويه ، وقد هوى مهشما ، فلم يبق منه سوى مقبضه ، فى يد الشخص الذى سكب الماء !

وبعث هذا الحادث الانتعاش فى قلب « جاك دو بون » ، اذ أدرك أن الفرصة لم تفلت منه بعد ، فسرعان ما نشط الى اقتناصها .. فارتكن الى الحائط صائحا : « آه . لقد قتلت!» .. ثم ارتمى على الارض فوق شظايا الاناء المكسور ، وارخى أطرافه وكأنه قد مات حقا . وانتظر مترقبا النتيجة ! .. ولم



يطل به الانتظار ، فما أن سمع خدم القصر صرخته ، حتى خرجوا مهرولين منزعجين ، يملأ الفزع قلوبهم من سيدتهم التى اعترفوا لها بفعلتهم .. وحملوا الرجل المجندل ــ وهو يجاهد نفسه كى يكبح جماح الضحك ــ وصعدوا به سلم القصر

وفى هذه الأثناء ، قال أحد الخدم : « انجسده بارد ! » ..

وقال خادم المائدة ، وقد ابتلت يده وهو يجس نبض الفتى : « انه ملطخ بالدم ! » .. وعندئذ صاح الذى ارتكب الفعلة : « لو أنه أفاق ، فسأقدم نذرا الى القديس جاتيان ! » .. وعقب خادم آخر قائلا : **« ان السيدة تسير على نهج المرحوم والدها ، كما تعلم .. وما لم تشنقك ، فأن أقل عقاب لديها هو ان تطردك من عملك ، وتلقى بك خارج بيتها .. انظر .. انه بالتأكيد قد مات ، فقد اصبحت جثته ثقيلة جدا ! »**

فصاح فاعل الجريمة فازعا : « ويلى ! أحقا أنه مات ؟ »

وحدث فى تلك الأثناء ، ان أفلت قميص الفتى التورينى من نطاقه ، وهم يحملونه صاعدين به السلم فى عناء شديد ، فصاح بغير وعى : « آه .. قميصى ! »

وعندذاك ، تنهد الجاني ، وكأنما واتته نجدة من السماء ، وقال : « انه يئن » ..

* * *

• **وهكذا** كانت حال خدم القصر – وكان هذا ، كماينبغى ان تعلم ، هو قصر الوصية على عرش فرنسا ، ابنة الملك لويس الحادى عشر ، ذات الذكرى العاطرة ! – فلما وصلوا الى أعلى السلم ، ادخلوا « جاك دو بون » فى احدى الغرف ، وأرقدوه – وهو متيبس متشنج – على منضـدة ، دون أن يداخلهم الرجاء لحظة واحدة ، فى أن من الممكن انقاذه ..

وما أن أبصرته الوصية على العرش – مدام « دو بوجو » – حتى صاحت فى خدمها فى انزعاج عظيم : « أسرعوا فاستدعوا طبيبا ! .. أسرعوا الى هنا !.. أسرعوا الى هناك ! »

وانفرط عقد الخدم فى لحظة ، فراحوا يركضون هنا وهناك .. وارسلت السيدة النبيلة تابعيها لاحضار بلسم وماء معقم ورباط من التيل لتضميد الجراح ، وأشياء أخرى كثيرة .. حتى اذا غدت وحيدة فى الغرفة ، اقبلت تتأمل الفتى الجميل المسجى على المنضدة ولا حراك به .. واذ راعتها فتنة محياه، الذى ظل خلابا – حتى وهو ميت – صاحت قائلة : **« أواه ! أن الله يريد ان يعاقبنى ، من أجل مرة واحدة فقط فى حياتى .. مرة قصيرة الأمد ، راودتنى فيها فكرةطائشة !..وها هو قديسى الشفيع غاضب منى ، وقد شاء ان يحرمنى من اجمل رجل رأيته طيلة عمرى .. فبحق السماء ، وبحق روح أبى ، لسوف اشنق كل رجل له يد فيما حدث ! »**

وعند ذاك وثب « جاك دو بون» من فوق المنضدة ،وارتمى عند قدمى الوصية على العرش صائحا : « يا سيدتى .. سأعيش لاخدمك ، فما أصابنى سوى خدوش طفيفة ..وانى لاعدك فى هذه الليلة وحدها بملذات اثنتى عشرة ليلة مجتمعة

.. وبجلد هرقل ـ الذى لم يكن بين الرجـال من هو أقوى منه ـ وسأقضى الليل متعبدا فى محرابك ! »

واذ رأى أن الأمور قد تزداد يسرا اذا رصع عباراته ببعض الأكاذيب ، انطلق يقول للسيدة : « لقد ظللت طيلة العشرين يوماالماضية ، أحرص على رؤيتك يوما بعد يوم .. فلقدجننت بحبك،وان لمأجسر ـبسبب احترامى العظيم لشخصكـ على أن اتقدم منك ، أو افضى بعاطفتى اليك .. ولك أن تتصورى كم أسكرنى جمالك الملكى ، اذا تأملت تلك الخدعة التى احتلت بها على الوصول اليك ، والتى كان لها كل الفضل فى السعادة التى استشعرها الآن ، اذ أجدنى جاثيا عند قدميك ! »

وحينئذ قبلها قبلة حارة ، وسدد الى عينيها نظرة هيام أثملتها وبددت كل شك ربما كان قـد ساورها ! .. وكانت الوصـيـة على العرش قد تجاوزت ـ فى ذلك الحين ـ سن شبابها ، كمـا هو معلوم . وفى تلك المرحلة الحرجة ـ حـين تدلف المرأة الى فصل خريفها ـ كثيرا ما تتملك السيدات ، اللاتى قضين سنى حياتهن السالفة فاضلات عفيفاتمحرومات من متعة الحب ، رغبة طارئة فى ان يسـترقن ـ بين آونة وأخرى ـ لحظات يسمحن فيها لأنفسهن يتذوق بعض لذائذ الغرام ـ بمنأى عن العيون ـ حتى لا يصلن الى العالم الآخر فارغات الأيدى والقلوب .. اذ يتركن شجرة المعرفة دون ان يأكلن بعض ثمارها .

ودون أن تبدى مدام « دو بوجو » انها دهشت من وعود هذا الشاب ، وعلى الرغم من أن سيدات الأسرات المالكةيجدن لديهن ورهن اشاراتهن ـ فى العادة ـ عشرات من أمثاله ، فان ما أفضى به اليهـا ذلك الفتى التورينى ، قد انطبع فى أعماق ذاكرتها .. وخلب لبها جمال طلعته ، وأذاب قلبها لهيبالنار المستعرة فى قبلته ، فأخذت بيده واجلسته .. ووجد ـ رغم

بؤسه ـ الجرأة على أن يبتسم فى تدله وتشبب لمولاته ، التى كان لها جلال وردة اكتمل تفتحها ، وجمال غانية ، وهيبة ملكة

★ ★ ★

• **على أن** الوصية على العرش ما لبثت أن رسمت على وجهها ذلك السيماء الوقور العابس الذى كان لأبيها ، وقالت للفتى : « من انت ؟ »

فأجابها : « انا عبدك المخلص ، جاك دو بون ، ابن أمين خزانتك ، الذى لحقت به الفضيحة ، رغم خدماته الوفية !»

فقالت السيدة : « آه ، حسنا .. ارقد على المنضدة مرة أخرى ، فأننى اسمع شخصا ما مقبلا ، وليس من اللائق ان يظننى شعبى شريكة لك فى هذه المهزلة ، وهذا المجون ! »

وادرك الفتى الماكر من نعومة صوتها ـ وهى تقول له ذلك ـ انها عفت عن جرأته ، بسبب ما لمسته من فرط حبه . فرقد مرة اخرى على المنضدة ، وهو يتذكر كيف وصل بعض سادة فرنسا الى مناصبهم الرفيعة فى البلاط ، على سروج مهلهلة .. فكانت تلك الفكرة مطابقة كل المطابقة لما كان هو عليه اذ ذاك !

فلما دخل الخدم الى الغرفة ، قالت السيدة لهم : «حسنا، لم نعد بحاجة الى شىء ، فأن هذا السيد قد آفاق .. شكرا لله وللسيدة العذراء ، اذ لم يحدث اغتيال فى بيتى ! » : **واذ قالت ذلك مررت أصابعها خلال خصلات شعر الحبيب الذى سقط لها من السماء ، وأخذت بعض الماء المنعش ، فرطبت به جبينه .. ثم راحت تفك أزرار قميصه ، متظاهرة بمساعدته على ان يفيق من اغمائه ، وبينذاك راحت تتفحص ـ بخبرة أبرع الاختصاصيين ـ مدى نعومة ونضارة بشرة ذلك الشاب الذى وعدها فى جسارة بأقصى ما يمكن أن يمنح لامرأة من لذة !**

ودهش كل الحاضرين ـ رجالا ونساء ـ اذ رأوا الوصية على العرش تفعل هذا الفعل .. بيد انه لم يكن ثمة مبرر للدهشة ، فان غريزة البشر لا تستثنى من حكمها أولئك الذين يجرى فى عروقهم دم ملكى ..

وما لبث جاك دو بون ان وقف على قدميه ، مصطنعا مظهر الشخص الذى كان فاقدا حواسه ثم استردها .. وقدم الشكر الى الوصية على العرش فى تواضع عظيم ، وصرف الأطباء ، والجراحين ، وكل الذين حضروا لفحصه فى ساعة موته المزعوم ، قائلا انه قد استعاد وعيه وشفى تماما .. ثم قدم نفسه للحاضرين ، ذاكرا لهم اسمه ولقبه . واذ أدى التحية الى مدام « دو بوجو » ، ابدى رغبته فى الانصراف ، متظاهرا بأنه موجس منها ، لما يعلمه الجميع من فضيحة أبيه .. على أن الفزع كان قد ساوره ـ فعلا ـ من جراء ذلك الوعد الشنيع ، الذى تجاسر على أن يفضى به الى السيدة المبجلة !

ولكن السيدة مالبثت ان قالت على الفور : « اننى لا أوافق على ذلك ، وليس مما يليق بمن يدخلون بيتى ، ان يقابلوا بمثل هذه المعاملة التى لقيتها ! » .. ثم التفتت الى خدمها قائلة : « ان السيد دو بون سيتناول عشاءه هنا ! » .. وتحولت الى رئيس الخدم فقالت : « لسوف ادع مصير الذى ارتكب هذه الاهانة المشينة ، للسيد دو بون نفسه ، اذا بادر الجانى فقدم نفسه توا .. والا فاننى لن ألبث ان أكشف عن شخصيته وأشنقه ! »

واذ سمع الخادم ـ الذى كان يرافق السيدة اثناء نزهتها هذا القول ـ خطا خطوة الى الامام . فقال جاك : « أضرع اليك ، يا مولاتى ، أن تصفحى عنه .. بل اننى ألتمس منك مكافأته ، اذ اننى بفضله قد نلت نعمة رؤيتك ، وحظوة تناول العشاء فى صحبتك .. وربما ظفرت بتفضلك باعادة والدى الى الوظيفة التى سبق لوالدك العظيم أن عينه فيها ! »

فأجابت الوصية على العرش : « حسـنا قلت » .. ثم وجهت خطابها الى الخادم قائلة له : « دستوتيفيل .. اننى اسلمك قيادة فرقة من رماة السهام ، على أن لا تعود الى القاء الاشياء من النافذة ! »

ثم تقدمت الى دو بون - وقد افعمها السرور به - فمنحته يدها ، وقادته فى عظمة الى غرفتها ، حيث تحـادثا معا فى حرية بينما كان الخدم يعدون العشـاء .. وفى ذلك الوقت لم يفشل فتى تورين فى أن يظهر مواهبه ، وفى ان يرفع نفسه فى عينى السيدة ، التى كانت تشبه أباها فى طباعه وميوله - كما هو معروف للجميع - وكانت مثله تفعل كل شىء كيفما تراءى لها !

* * *

• **وفكر** جاك دو بون - فيما بينه وبين نفسه - فى أنه سيكون من العسير عليه ان يبقى الليل كله مع الوصية على العرش ، اذ أن مثل هذه الأمور ليست مما يسهل تدبيره .. حتى القطط ، لابد لها - على الدوام - من ان تجد مكانا ملائما فوق اسطح المنازل ، كى تقضى فيه لحظات غزلها ومداعباتها . . وعلى ذلك فقد قنع الفتى - بينه وبين نفسه - بمجرد توصله الى معرفة هذه السيدة ذات المركز الرفيع ، فلم يطمع فى أن يفى بالوعـد الطائش الذى تجاسر فأفضى به اليها .. ولو انها اضطرت الى انجاز ذلك الوعد ، لكان لزاما أن يقصى عن القصر كل الخدم والمقيمين فيه ، حتى تخرج سمعة السيدة سالمة غير مخدوشة .. **ومع ذلك ، فقد ظل الفتى فى شك من قدرة السيدة الفاضلة على ترتيب الامر كما ينبغي ان يدبر ، لتحقيق البغية المنشودة .. كما ساوره الشك فى قدرته هو نفسه على أداء المهمة خير أداء !**

وكانت الافكار ذاتها تعتمل فى ذهن السيدة - فى تلك الاثناء -

فأقبلت تعالجها وكأنهاتعالج شئون الدولة .. وبالفعل توصلت الى تدبير الأمور على صعوبتها ، وما لبثت أن بدأت فى تنفيذ الخطة التى رسمتها بمنتهى الذكاء والدهاء .. فأرسلت فى طلب سكرتير لها كانت تثق فى براعته ، وكان أهلا لان يحكم مملكة بأسرها ، أكمل ألوان الحكم .. واسرت اليه امرا بأن يدخل عليها أثناء العشاء ويناولها رسالة مفتعلة ..

فلما حان ميعاد الوليمة ، لم تمد السيدة يدها الى طعام ، اذ كان قلبها قد انتفخ كأسفنجة ، فانكمشت معدتها ، واذكانت ـ من فرط ما أرهقت عقلها فى التفكير فى ذلك الفتى الجميل المشتهى ـ قد فقدت كل رغبة فى الطعام ! .. أما جاك فانه أقبل اقبالا شديدا على الأكل ، ولم يأل جهدا فى أن يملأ بطنه من كل ما وجده امامه ممالذ وطاب ، نظرا لجوعه الطويل ، ولأسباب أخرى كانت تدور فى ذهنه !

وفى هذه الأثناء أقبل السكرتير ، وسلم الى السيدة الرسالة المتفق عليها ، فما أن ألقت عليها نظرة ، حتى تبدت عليها امارات التجهم ،وقطبت حاجبيها على طريقة المرحوم والدها .. وصاحت قائلة : « ألا يكون سلام أبدا فى هذه الأرض؟ يا رحمة الله ! ألا ننعم بليلة واحدة هادئة ؟ » .. وقامت من مكانها ، فراحت توسع الخطا فى الحجرة ، وهى تقول فى عصبية : «أنت يا من تقف هناك ، ائتنى حالا بجوادى ! .. أين السيد « فييفيل » وصيفى ؟ آه ، انه فى بيكاردى ! .. يا استوتيفيل .. سوف تلحق بى مع أهل منزلى فى قصر أمبواز .. »

ثم نظرت الى جاك ، وقالت له : « لسوف تكون مرافقى يا سيد دوبون ! .. انك تريد أن تخدم الدولة ، وها هى ذى الفرصة سانحة أمامك ! .. هيا ، بالله ، فهناك متمردون ينبغى ردعهم ، ونحن فى حاجة الى فرسان مخلصين . »

وفى أقل من الوقت الذى يحتمل أن يستغرقه متسول

اضنته الشيخوخة ، كى يقول : « شكرا » ، أسرجت الخيل وجهزت الرحيل ، فامتطت السيدة فرسها ، واطلقت له العنان ـ والفتى التورينى بجانبها على فرسه ـ ميممة بأقصى سرعة ، نحو قلعتها فى (أمبواز) ، يتبعها رجالها المسلحون ..

ولكى نتوخى منتهى الاختصار ، ونصل الى الحقائق دون كثير من الوشى والتعليق ، نقول أن « دوبون » ، أنزل ـ فى القلعة ـ فى حجرة لا تبعد عشرين ياردة عن مخدع السيدة ، بمنأى عن الأعين المتطفلة ! .. بينما استولت الدهشة البالغة على أفراد الحاشية والخدم ، وراحوا يتساءلون فيما بينهم : « أين هو الخطر ؟ .. ومن أين عساه يأتى ؟ » .. ولكن بطلنا الهمام ، استطاع أن يعرف عن يقين ، أين كان الخطر ! !

والواقع أن السمعة الطيبة التى تتمتع بها الوصية على العرش فى كل أنحاء المملكة ، أنقذتها فى ذلك الظرف من الشبهات .. اذ كانت الفكرة السائدة عنها أنها تشبه فى مناعتها حصن (بيرون) !

* * *

◆ **وفى** جوف الليل ، وبعد أن غدا كل شىء مغلقا ـ حتى العيون والآذان ـ وسيطر السكون على القلعة ، أقصت مدام « دو بوجو » وصيفتها عن مخدعها ، واستدعت مرافقها الفتى .. فلما حضر اليها أجلسته الى جانبها ، فوق مقعد من المخمل ، وسألته بصوت حنون : « أليس فيك جروح؟ .. لقد كان خطأ عظيما منى أن أحمل فارسا ـ جرح على يدى أحد خدمى ـ على أن يظل راكبا اثنى عشر ميلا .. ولقد كنت مهمومة من أجلك ومشغولة عليك ، حتى اننى لم

أستطع أن أذهب الى فراشي دون أن اراك .. فهل تتألم ؟ »

فأجابها : **« اننى أتألم من فرط الشـــوق ، مذ تبينت ، يا سيدتى النبيلة الجميـــلة ، ان خادمك قد وجد حظوة لديك .. ! »**

فأجابته : « أما رويت لى قصة حين قلت .. »

فسألها : **« قلت ماذا .. ؟ ! »**

فأجابت : « هل نسيت ؟.. ألم تقل لى أنك تبعتنى عشرات المرات الى الكنائس ، والى الأماكن الأخـــرى التى ذهبت اليها ؟ » .

فقال لها : **« لقد حدث هذا حقا .. »**

فأجابته السيدة : « لشـــد ما أنا فى عجب ، فما رأيت فى حياتى – الى اليوم – فتى نبيلا تبدو جســـارته وقوته فى سيمائه بهذا الشكل .. ولست أستشعر أى خجل مما سمعتنى أقوله حينما كنت أحسبك ميتا ، فأنت تروق لى ، وانك لتبعث السرور فى نفسى ، ومـــا اعتقـــد الا انك تريد بى خيرا ! »

وهكذا حانت لحظة الوفاء بالوعد ، فسقط جاك عنـــد ركبتى الســـيدة ، وقبل قدميها ، ويديها ، وكل موضع فيها ... وراح – خلال ذلك – يثبت لمولاته الفاضلة بكل البراهين ، ان اضطلاعها بأعباء الدولة ، لا يحرمها الحق فى أن



تتذوق متع الحياة . **ولكنها رفضت أن تسلم بهذه النظرية فى سهولة ، وأبت الا أن تغتصب اغتصابا ، حتى تلقي وزر الخطيئة على عاشقها .. ومع ذلك فانها ــ كما ينبغى أن تعلم ــ كانت قد أعدت نفسها لهذه الساعة كل الأعداد ، فتعطرت بأقوى العطور شذى ، واتخذت أبهى ثياب الليل ، وتأججت بالرغبة فى العناق وأضفى عليها الشوق لونا زاهيا ، زاد من نضرة بشرتها .. وعلى الرغم مما أبدت من مقاومة لغرام فتاها ، فانها استكانت آخر الأمر لقوته العارمة ، وكأنها صبية مستضعفة ! ..** الا أنها ــ فى غمرة نشوتها ــ أبدت له شكها فى قدرته على انجاز وعده بأن يجمع لها فى ليلة واحدة ملذات اثنتى عشرة ليلة .. وراهنته على أن تمنحه ــ ان استطاع ذلك ــ اقطاعية (آزى لوبريليه) ذات اللقب الرفيع ، وان تصدر عفوها عن أبيه !

ولحسن حظ الفتى التورينى ، انه تبين ــ فى تلك اللحظة الحاسمة ــ أن سيدته لم تكن من الشيخوخة كما كان يتصور ، بل انها بدت له فى غلالة نومها ذات شباب نضير .. وهذا ــ فى الواقع ــ شأن النساء . فكم من سيدة تبدو ، فى النهار ، مثقلة بسنى العمر ، حتى اذا أقبل الليل ، تبدت تحت أضوائه وكأنها فى العشرين .. وكم من شابة فى العشرين ، تبدو فى المائة ، اذا لفها الظلام !

ومن ثم فقد قبل « جاك دو بون » الرهان ، وأكد لمولاته الوعد ، ثم راح ، وهو بين ذراعيها ، يسرد أحلامه واحدا بعد الآخر ، كلما حقق للسيدة احدى اللذات التى مناها بها .. « فهذه المرة لأنقاذ والدى من العقوبة ! » .. و « هذه المرة من أجل الاقطاعية ! » .. و « هذه من أجل غابة آزى ! » .. «وهذه أيضا من أجل حق صيد السمك ! » .. و « هذه من أجل جزائر الأيندر ! » .. و « هذه من أجل المروج ! » .. و « هذه في مقابل اعفاء أرضنا ــ في لا كارت ،

التى اشتراها أبى بالثمن الغالى ـ من المصادرة ! » .. « ومرة من أجل منصب فى البلاط ! » .. **واذ وصل دون عائق الى هذه النقطة ، اطمأن الى أن شرفه فى الوفاء بوعده قد أصبح موطدا ، فلم يعد أمامه من الأحلام الا أن يجعل فرنسا كلها تحت سلطانه .. وكان هذا فى الواقع أمرا يتصل بشرف التاج ! .. وكان آخر حلم راوده ، هو أن يبنى له كنيسة فى (آزى) .. وقد تحقق به البند الحادى عشر من بنود الرهان !**

وهكذا أتم الفتى احدى عشرة حلقة من وعوده ، أدرك معها انه قد غدا بالفعل سيدا لقلعة (آزى) . لذلك آثر أن يستبقى الحلقة الثانية عشرة الى أن تستيقظ مولاته فى الصباح ، لتكون تحية أمينة ، يرفعها سيد قلعة (آزى) الى الوصية على العرش . ولكن الطبيعة اذا أرهقت ، صارت كالجواد العنيد ، لا يأبه للسياط اذا ما ارتمى على الأرض ، بل يؤثر الموت على ان يتحرك دون أن يستشعر من نفسه الانتعاش الكافى ! .. لذلك فان سيد قلعة (آزى) كان ـ حين رغب فى تحية ابنة الملك لويس الحادى عشر ـ مثقل الجسم والنفس ، رغم ما أبداه من حفاوة .. **وكان مضنى ، لا يقوى على أن يؤدى التحية اللائقة بالملوك ، فانتهزت الوصية على العرش هذه الفرصة ـ عندما نهضت من فراشها ـ وأقبلت على الفطور مع « جاك » ـ الذى لقب نفسه : سيد (آزى) الشرعى ـ فعارضت مسلك مرافقها ، وزعمت أنه لم يكسب الرهان ، ومن ثم فليس له أى حق على المقاطعة !**

وهتف الشاب : « يا للسماء ! .. لقد كنت على وشك أن أبلغ نهاية الشوط .. الا أننى ـ يا سيدتى العزيزة ومولاتى النبيلة ـ أعتقد أنه ليس من اللائق لك ولا لى ، أن نحكم فى هذا الأمر . فهذه قضية عامة ، ينبغى طرحها أمام

مجلس مشورتك ، طالما أن اقطاعية (آزى) ، من أملاك التاج ! » .. فأجابت السيدة وهى تطلق ضحكة مغتصبة : « يا الهى ! اننى لأمنحك وظيفة السيد فيفيل فى بيتى ، ولسوف أعفو عن أبيك ، وأهبك (آزى) ، وأجعل لك منصبا فى البلاط الملكى ، لو أنك استطعت ــ دون أن تجرح شرفى ــ أن تعرض المسألة أمام مجلس المشورة كاملا .. اما اذا فهت بكلمة واحدة تمس سمعتى باعتبارى سيدة فاضلة ، فاننى .. »

فقال جاك ، محولا الأمر الى مزاح ، وقد رأى ظلا من الغضب فى وجهها : « أشنقينى ! » .. وعندما انفرجت أساريرها قليلا ، أردف قائلا : « والى أن استحق ذلك ، سأظل يا مولاتى مرافقا لك .. وأمينا ! »

* * *

• **وكان** الضباط ، والوزراء ، وكل الموظفين الآخرين فى حكومة الوصاية ، قد دهشوا لرحيل مدام « دو بوچو » المفاجىء ، وراحوا يستقصون أسباب جزعها .. ثم أقبلوا مسرعين الى قلعة (أمبواز) ليعرفوا أين حدث التمرد .. وهناك مكثوا على استعداد لابداء المشورة ، حين تستيقظ جلالتها .. فلما غادرت مخدعها ، استدعتهم جميعا لكى لا تتهم بأنها خدعتهم ، ثم عرضت عليهم بعض الأمور التى لفقتها تلفيقا ، كى يفكروا فيها ، ويبدو رأيهم بشأنها .. وفعلا فكروا وأصدروا رأيهم فيما عرضته عليهم ، بمنتهى ما لديهم من حكمة .. **حتى اذا انتهى الاجتماع ، أقبل الأمين الجديد كى يلازم مولاته .. واذ رأى المستشارين يقفون متأهبين للخروج ، رجاهم أن يبقوا ليبحثوا اشكالا فى القانون يتعلق به ، وبأملاك التاج .. فقالت الوصية على العرش : « استمعوا اليه ، فانه يقول الحق .. »**

ووقف « جـاك دوبون » وقال ، دون أن تهفو بأعصـابه رهبة المجلس الموقر : « أيها السادة النبـلاء .. لسوف أحدثكم عن قشـور الجوز ، ولكنى أرجو أن توجهوا كل انتباهكم الى هـذا الموضـوع .. وأن تغفـروا لى ركاكة أسلوبى : كان أحد النبلاء يسـير مع آخر فى حديقة ذات ثمار ، فشاهد شجرة جوز بديعة ، مغروسة بمنتهى العناية ، ونامية نموا رائعا .. وكانت تستهوى النظر والشم ، وان كانت على شيء من قلة الثمار .. وشجرة الجوز دائمـة النضرة ، ذكية العبير عادة ، انها شجرة لا يمكنك أن تبارحها اذا رأيتها مرة واحدة .. شجرة حب ، وكأنما هى شـجرة الخير والشر ، التى حرمها الله ، وبسببها طردت أمنا حواء ــ ومعها السيد الفاضل زوجها ــ من الجنة .. وقد كانت هذه الشجرة يا سادتى سـببا لخلاف بسيط بين النبيل وصاحبه ، وموضوعا للرهان بينهما ، شأن تلك الموضوعات العديدة التى تحدث فى أحيان كثيرة بين الأصدقاء .. فقد تباهى أصغرهما سنا بأن فى امكانه أن يضرب هـذه الشجرة اثنتى عشرة مرة بعصا كانت في يده ــ كما يفعل كثيرون ممن ألفوا السير فى الحدائق ــ فيسـقط على الأرض ، فى كل ضربة ، ثمرة ، من ثمار الجوز .. »

وهنا التفت الى السيدة ، وهو يقول : « هذا ــ فيمـا أعتقد ــ الاشكال الذى فى القضية »

فقالت السيدة مندهشـة من دهاء وصيفهـا : « نعم ، يا سادة » .

ثم مضى الخطيب قائلا : « أما الآخـر ، فقد راهن على العكس .. وبدأ الأول فسلط عصاه ، متوخيا احكام التسديد ببراعة وحنكة أدخلت السرور والبهجـة اليهما كليهمـا .. وبعون القديسين ــ الذين كانوا يشـاهدون هذه المبـاراة مبتهجين طروبين ولا شك ــ راحت تسقط ثمرة من الجوز

فى اثر كل ضربة .. حتى اكتملت اثنتا عشرة ثمرة .. **ولكن الثمرة الاخيرة كانت ــ للمصادفة ــ فارغة ، وليس فيها اللب المغذى ، الذى قد يساعد على انتاج شجرة جوز أخرى ، لو أن البستانى غرس الثمرة فى تربة حديقته .. فهل يكون صاحب العصا ــ فى هذه الحال ــ قد كسب الرهان ؟ .. احكموا ! »**

فقال السيد « آدم فيميه » ، وهو تورينى كان ــ فى ذلك الوقت ــ يشغل وظيفة حامل الأختام : « ان المسألة واضحة جدا .. ان الطرف الآخر لا يملك أن يفعل سوى أمر واحد » .. فسألته السيدة : « ما هو ؟ » .. وكان جوابه : « أن يدفع الرهان يا سيدتى ! »

فقالت ، وهى تربت على خد وصيفها : « انه ذكى جدا . ولسوف يشنق فى يوم من الأيام ! »

ولقد قالت ذلك مازحة ، ولكن هذه الكلمات كانت نذيرا بالنهاية الحقيقية للوصيف . فقد قدر له أن يصعد الى المشنقة على سلم العطف الملكى ، بفضل نقمة سيدة أخرى كبيرة السن ، وبسبب خيانة مشينة ارتكبها سكرتيره ، وهو رجل من (بالان) ، كان صنيع نعمته ، وكان أسمه « بريفوست » ، وليس « رينيه جانتيل » ، كما كان البعض يدعونه خطأ .. اذ كان هذا التابع الخائن قد سلم ــ على ما قيل ــ الى مدام « دانجوليم » ، ايصالا بالنقود التى أعطاها له « جاك دو بون » ، الذى كان قد أصبح « بارون دوسا مبلانسى » وكونت دو لا كارت ، وآزى ، ورجلا من رجال الصف الأول فى الدولة .. وأصبح له ولدان ، أحدهما كان أسقف (تور) ، والآخر وزير المالية ، وحاكم (تورين) .. ولكن ليس هذا هو موضوع القصة الحالية .

* * *

• **أما** فيما يتعلق بهذه القصة ، فان مدام « دو بوچو »

- التى جاءتها متعة الحب متأخرة - أفعمها السرور والازدهاء بالحكمة العظيمة ، والمعرفة الفائقة لكل أمور الدولة ، التى كان يتمتع بها حبيبها الذى ساقته المصادفة اليها .. فجعلته أمينا على خزانة العرش ، وهى الوظيفة التى أبدى فيها منتهى حسن التصرف ، فاستطاع - أثناء اضطلاعه بها - أن يضاعف من أموال سيدته ، حتى أن السمعة العظيمة التى اكتسبها ، وصلت به - بعد ذلك - الى منصب الوزارة، حيث أصبح منوطا به تسلم ايرادات الدولة ، فعمل كذلك على زيادتها وضبطها بطريقة تدعو الى منتهى التقدير والاعجاب .

ولقد دفعت السيدة الفاضلة الرهان الى وصيفها ، فسلمته اقطاعية (آزى لوبروليه) ، التى كانت قلعتها قد هدمت منذ زمن طويل ، بفعل قنابل الغزاة الأولين ، الذين وفدوا الى (تورين) - كما يعلم كل انسان - ولابد أن المهندسين الذين اخترعوا تلك الآلات العجيبة ذات البارود ، قد اعتبرتهم الكنيسة من الزنادقة وانصار الشيطان !

وكان المسيو « بوهيير » - وزير المالية - قد عنى ، فى ذلك الوقت ، بتشييد قلعة « شينونسو » .. ولكى يجعلها تحفة ، ويسجل بها طرازا حديثا ، ألقى أسسها ورفع بنيانها فى عرض نهر (شير) . فما كان من « بارون دو سامبلانسى » - اذ أراد أن ينافس « بوهيير » المذكور - الا أن صمم على أن يقيم له قلعة فى عرض نهر (الأيندر) ، فسرعان ما ارتفع هذا البناء السامق الذى أصبح درة ذلك الوادى الأخضر الجميل .. وقد أرسيت قواعده المتينة الصلبة بين صخور النهر ، وكلف « جاك دو بون » ثلاثين ألف « كراون » ، دون حسبان العمل الذى أداه عماله الاقطاعيون .. فلما قاربت هذه القلعة على الانتهاء ، أصبحت أبدع وانفس وأتقن قلاع مدينتنا الجميلة (تورين) ، وهى منتصبة فى نهر (الأيندر)

كمخلوق ملكى ،وقد زينته الزخارف الجميلة ، والنوافذ ذات الاطارات الفاخرة ، والتماثيل المطروقة الرائعة فوق طواحين الهواء المنتصبة على سطوحها ! **غير أن سامبلانسى شنق قبل أن يتم بناء تلك القلعة ! ..**

وكان الأمر الذى ادى الى ذلك ، يتمثل فى ان مولاه ـ الملك فرنسيس الأول ـ نزل مرة فى ضيافته يوما . فلما تأهب الملك عند المساء للذهاب الى فراشه ـ وكان يرافقه الى غرفة نومه مضيفه سامبلانسي ـ تلفت الملك اليه وهو يقول : « ان ساعتك قد دقت أثنتى عشرة دقة ، أيها الرجل الكهل !»

فأجابه قائلا : **« آه يا مولاى . ان اثنتى عشرة دقة من مطرقة أصبحت الآن عتيقة ، ـ الا انها من سنين مضت ، كانت جيدة ـ هى التى أدين لها بالأراضى التى أملكها ، وبالأموال التى أنفقتها لتشييد هذا البناء ، كما أدين لها بالوصول الى شرف خدمتكم ! »**

فتعجب الملك من هذه الكلمات الغريبة ، وأصر على أن يعرف من وزيره معناها .. واذ اندس جلالته فى فراشه ، أخذ « جاك دو بون » يروى له هذه القصة التى ذكرتها لك .. فلما سمعها فرنسيس الأول ـ الذى كان يميل الى مثل هذه القصص الماجنة ـ وجد فيها مادة أثارت اهتمامه . اذ تصادف فى ذلك الوقت أن كان الجميع يعرفون أن أمه ، دوقة « أنجوليم » ـ التى بلغت من العمر أرذله ـ تتعقب أحد رجال الشرطة فى (بوربون) ، كى تحصل منه على واحدة من الاثنى عشرة دقة،التى روى قصتها جاك دو بون .. وكان ذلك حبا أرعن من عجوز حمقاء . اذ نشأ عنه ما تطورت اليه الاحداث من تعريض المملكة للاخطار ، والقبض على الملك ، واعدام « سامبلانسى » المسكين ، كما ذكرت من قبل !



"برتا" التائبة

١ ـ كيف ظلت « برتا » عذراء وهى متزوجة ؟

• **كان** السيد « امبرت دو باستارنى » ، من كبار أصحاب الاراضى فى مدينتنا الجميلة (تورين) . ولما كان القبح يسود خلقته ، فانه كان قليل الثقة بالنساء . ولذلك تقدمت به مرحلة العمر دون ان يتخذ له زوجة ترافقه ، وتترفق به .. وكان لذلك أسوأ الأثر فى كل أحواله ، اذ أدت به حياة الوحدة الى أن يتناسى مظهره كل التناسى . ومع الزمن لم تعد فى رأسه أية فكرة عن العناية بهندامه ومظهره أمام الناس ، بل كان ـ على الدوام ـ ينفق كل وقته فى الحروب ، أو فى مغامرات الأعزاب التى لم يكن ليجد أى رادع يردعه عنها ، أو وازع يدفعه الى تجنبها .. وهكذا ظل مهملا فى ملابسه كل الاهمال ، متصبب العرق دائما تحت أردية القتال ، قذر اليدين ، منتفخ العينين ، يحمل وجها كوجه القرود ! وبايجاز : كان يبدو أقبح رجل فى العالم المسيحى ..

الا أن كثرة أملاكه ووفرة ما عرف عنه من الثراء ، تجعله فى أعين الناس مبجلا محترما مستوجبا للاطراء ، وللثناء ، رغم هذه العيوب التى كانت تشوب وجهه وقلبه ومواضع أخرى من جسده .. وكان على أى واحد من ملائكة السماء ـ وأرجو أن تصدق ذلك ـ أن يسير فى طول الأرض وعرضها حتى يتملكه اليأس ، دون أن يجد بين الرجال محاربا قديما أكثر من ذلك الرجل شجاعة وشهامة فى القتال وفى سائر الأحوال .. ودون أن يجد سيدا أكثر منه طهارة ذيل ، أو عفة قول ، أو صدق عاطفة ، أو نبل خصال !!

وفضلا عن ذلك كله ، فقد روى بعض الناس أنهم سمعوا أنه كان ذا مشورة حكيمة ، ونفس حليمة ، وكان صاحب

فضل وفضيلة ، وما من لاجيء لجأ اليه فى أشد أوقات الضيق والعناء ، الا وجد لديه النجدة والمعونة والوفاء .. فهل ياترى كانت تلك سخرية من الله ـ الذى يرفه عنا أحيانا ببعض المداعبات ـ أن يمنح كل هذه الحسنات لرجل أشاع فى خلقته كل هذا القبح ؟ !

وعلى أية حال ، فان السيد باستارنى ، رأى أخيرا ـ وقد بلغ الستين حسب مظهره ، وان ظل فى الخمسين فى الواقع ـ أن يتكل على الله ويتخذ له زوجة .. كى تنجب له النسل !

* * *

• **وفيما** هو يذرع الأرض باحثا عن مكان يجد فيه سيدة تلائم ذوقه ، سمع ثناء مستطابا على محاسن آنسة من بنات أسرة « روهان » الشهيرة ، التى كان لهـا فى ذلك الحين بعض الأملاك فى النواحى المجاورة .. وكانت هذه الانسـة تدعى « برتا » وهو اسم التدليل الذى كانوا يطلقونه عليها .. فلما رآها السيد « أمبرت » ـ فى قلعة (مونت بازون) ـ وبهره جمالهـا الفاتن ، وما كان يتلألأ فى عينيهـا من براءة وطهر ، استولت على قلبه رغبة جارفة فى أن يحوزها لنفسه ، فقرر بينه وبين نفسه ـ قرارا لا رجعة فيه ـ أن يتخذها زوجـة له . اذ استقر فى اعتقاده ان فتاة لها مثل هذا المحتد الرفيع ، لا يمكن ان يبدر منها أى تقصير فى واجبها ، أو أن تمس سيرتها شائبة ، سواء فى السر او العلن . وسرعان ما احتفل بالزفاف ، اذ كانت لعميد اسرة « روهان » سبع بنـات ، وكان لا يدرى كيف يكفل لهن القوت ، فى الوقت الذى لم يكن الناس فيه قد أفاقوا بعد من صدمة الحرب الأخيرة ، أو تيسرت أمامهم الفرص كى يصلحوا شأن ما تصدع من أحوالهم !

ويا لفرحـة الرجل الفاضل « باستارنى » اذ تبين ـ أول ما تبين ـ أن عروسه انما كانت فى الحقيقة عذراء لم يسبق أن

مسها بشر .. مما أكد له كرم محتدها ، وشرف مولدها ، ونبل أهلها ، وطهارة ذيلها !.. الا أنه - لكى يصل الى اكتشاف هذه الحقيقة - كان فظا غليظا معها ، بل كان مخيفا ، حتى لقد حقق أمنيته الأولى من وراء الزواج منذ أول ليلة .. اذ سرعان ماتحقق - بعدها - من أن فى أحشاء العروس جنينا .. ثم ما هى الا تسعة أشهر حتى وضعت ولدا ! .. ولنذكر هنا - وان كان هذا بعيدا عن سياق القصة - أن ذلك الولد هو الدوق « دو باستارنى » ، الذى تلقى لقبه الرفيع عن مولاه لويس الحادى عشر ، وكان كبيرا لأمنائه ، وسفيرا له فى كثير من دول أوروبا .. وكان جد مقرب الى ذلك الملك الطاغية ، كما كان شديد الولاء له ، اذ ورث غريزة الوفاء عن أبيه الذى كان منذ شبابه الباكر وثيق الاتصال بهذا الملك - عندما كان وليا للعهد - فلازمه فى كل مراحل حياته وفى كل هزائمه وانتصاراته .. حتى فى عصيانه ، وثوراته .. وكان ذلك الوفاء ثمرة صداقة وطيدة الأساس ، من النادر أن توجد فى نطاق الأمراء ، وعظماء الناس !

أما السيدة الحسناء زوجة « باستارنى » ، فقد أظهرت - فى مبدأ الأمر - منتهى الولاء والاخلاص لزوجها ، حتى انها سرعان ما أفلحت فى أن تشتت شمل تلك الأبخرة القائمة والغيوم المتراكمة التى كانت تخيم على عقل الرجل ، وبرهنت على طهارة الجنس النسائى ، فاذا به - على عادة المتشككين - ينتقل دفعة واحدة من الشك المطلق ، الى اليقين الذى ليس بعده يقين .. **حتى لقد أسلم شئونه الخاصة الى « برتا » ، وجعل لها السيطرة على كل أمواله وأفعاله ، وأقامها رقيبا على تصرفه ، وحارسا على شرفه ، وأجلسها ملكة على قلبه ولبه ، وكان خليقا أن يذبح - بلا تردد ولا جدال - أى مخلوق يفوه بكلمة شريرة ضد مرآة الفضيلة هذه ، التى لم تطف بجسدها**

أنفاس رجل آخر ، غير الأنفاس الواهنة المنبعثة من زوجها الشرعى !

ولكى نقرر الحقيقة فيما يتعلق بكل الأمور ، ينبغى لنا أن نذكر أن السيد «باستارنى» ــ بهذا السلوك الفاضل المستقيم الذى سلكه مع زوجته ــ قد أخلى السبيل أمام ابنه الصغير، الذى استحوذ ــ خلال ست سنوات ــ على كل اهتمام أمه ، فكان الشغل الشاغل نهارا وليلا لتلك الأم الجميلة التى راحت تغذيه بلبنها وحنانها ، وجعلت منه ربيبا وحبيبا ، تسلمه ثدييها الحلوين يمتصهما ــ متى شاء ــ فى نهم ، وكان ــ كمثل عاشق وامق ــ لا يفلتهما من يده ابدا .. وما عرفت هذه الأم اللطيفة العفيفة متعة أخرى فى الحياة غير ما كانت تبعثه فيها شفتاه الورديتان .. ولا مداعبة غير مداعبة يديه الصغيرتين الظريفتين اللتين كانتا تجريان على جسدها كأقدام قطيطة لعوب .. ولا كانت تقرأ فى كتاب آخر غير ما كان ينطبع على عينيه البريئتين اللتين كانت تنعكس فيهما زرقة السماء .. ولا كانت تصغى الى موسيقى غير صوت بكائه الذى كان له فى آذانها وقع همسات الملائكة .. وكانت على الدوام تناغيه ، وتناجيه ، وتدغدغها الرغبة الملحة فى أن تقبله فى الفجر مع طلوع الضياء ، وأن تقبله فى الضحى ، وأن تقبله فى المساء ، وأن تصحو من نومها فى هدأة الليل كى تقبله بشفتين نهمتين .. فجعلت من نفسها طفلة كى تجارى طفولته ، ونشأته خير تنشئة ، وكأن تربيته كانت لونا من التعبد .. فكانت أسعد أم عاشت على وجه البسيطة !

* * *

• **وكان** ذلك الانشغال ، وما ألفته « برتا » فى الأمومة من هناءات ساذجة ، مبعثا للسرور والبهجة فى قلب الرجل المسن، الذى كان خليقا بأن يعجز عن أن يستجيب لزوجته المشبوبة

العواطف ، وان يحرص على تطبيق مبادىء الاقتصاد ، كي يدخر من قوته الواهنة مقدارا يمكنه من أن ينجب طفلا ثانيا !

حتى اذا مرت ست سنوات ، اضطرت الأم اضطرارا أن تسلم ابنها للمربين وغيرهم ، ممن عهد اليهم السيد «باستارنى» مهمة صوغ الولد فى قالب يؤهله لأن يغدو خير خلف لأبيه ، وأن يرث كل خصائص سلالته وفضائلها وشجاعتها ، كما يرث أملاكه واسمه

اذ ذاك سفكت « برتا » دموعا غزيرة ، وكأنما انتزعت سعادتها منها . فما كان ثمة من يشغل فى قلبها الكبير ما تركه ذلك الابن الحبيب من فراغ . وهكذا أصبحت تبدو ـ على الدوام ـ حزينة مضطربة النفس .. حتى اذا لاحظ زوجها النبيل حزنها وحسرتها ، قرر ان يهبها طفلا آخر ولكنه عجز .. فازداد هم السيدة المسكينة ، وأعلنت أن انجاب طفل يتعبها جدا ، ويكلفها من المشقة كثيرا .. ومع ذلك فقد ذهب تعبها بغير نتيجة ، وكانت مشقتها فى غير طائل ، فراحت تندب حظها !

والواقع انها كانت على حق ، والا فلن يكون هنالك حق أبدا .. اذ أن الرجل الطيب « باستارنى » لم يكن شابا رقيقا رشيقا خفيف الظل ذا طبيعة محببة ، وعلى دراية بلوازم الأشياء .. لم يكن يرهق نفسه كثيرا فى اختيار الطريقة التى يقتل بها جنديا ، مادام قد قرر على أى حال أن يقتله .. انه ليتجه اليه مباشرة ويقتله بضربة واحدة دون أن يمهد لذلك أى تمهيد ، أو أن يقول لضحيته قبل ذلك كلمة واحدة تفيد الوعيد أو التهديد .. وكان مسلكه هذا ـ فى منح الموت فى ميدان القتال ـ هو ذات مسلكه فى منح الحياة وانجاب أطفال .. فقد كان على تمام الجهل والغفلة بتلك الترتيبات المثيرة ، التمهيدية ، البطيئة ، المتراخية ، وتلك المداعبات اللطيفة الظريفة ، الناعمة الناعسة .. وحزم الحطب الصغيرة التى تلقى

فى الموقد كى تشعل ناره ، وتأجج بالتدريج أواره .. والعساليج الرطيبة المعطرة التى تتجمع شيئا فشيئا فى حدائق الحب .. والغزل ، والتقبيل ، والعناق ، وهمسات الغرام ، ودغدغة ثمار الكرز بالشفاه وبالأسنان .. وغير ذلك من حيل وأساليب يجيدها الجريئون فى العشق ، وتهواها النساء أكثر مما يحببن خلاص نفوسهن ، لأن فيهن من القطة أكثر مما فيهن من حواء .. **وهذه حقيقة تشع بها أساليب الانوثة ، فان كنت فى شك من ذلك فراقبهن وهن يتناولن طعامهن – مثلا – فما من واحدة منهن تضع ملعقتها فى الطبق الذى أمامها ، ثم تبدأ عملية الأكل مباشرة – كما يفعل الذكور – فى خشونة ، وفى غير ظرف ولا رقة .. وانما هن يقلبن الطعام يمينا ويسارا ، وينبشن ما فى الطبق هنا وهناك .. فلا يأخذن مما أمامهن الا القطع التى تروقهن ، ويمتصصن المرق ، ويلعبن بالشوكة والسكين وكأنهن ينتظرن – كارهات – أوامر قاض يتحكم فى حركاتهن وهكذا فى كل شىء لا يقصدن مباشرة الى الهدف ، وانما لا يفتأن يستعملن كل وسائل المكر ، وأساليب الخداع ، وأحابيل الدهاء والالتواء .. فلا يصلن الى الغاية الا بعد عذاب وعناء !**

تلك هى طبيعتهن ، ولذلك فان ابناء آدم يغرمون بهن ، اذ يجدونهن يفعلن كل شىء بطريقة تخالف الطريقة التى يتبعونها هم . ولو انهن حذون حذو الرجال ، لاجتنبوهن ، وملوا عشرتهن !

* * *

• **واذ** كان « باستارنى » محاربا قديما جاهلا بأساليب الحب ، فقد راح يقتحم حديقة « فينوس » ، كما يقتحم احدى قلاع الأعداء ، بلا تمهيد ولا استئذان ولا استرضاء ، غير مكترث اى اكتراث بالدموع التى كانت تذرفها « برتا » ، وهى لا تملك فى محنتها الا أن تصرخ الى الله أن يساعدها على احتمال

الزواج .. وما فيه من ألم ليس له علاج !

ولذلك فقد عاشت المسكينة فى وحدة تامة ، وانطوت على نفسها كراهية ، وأصبحت تكره مجتمع الرجال وتنفر منه ، وان لم يتبادر اليها الشك أبدا فى أن خالق العالم قد أودع سعادة عظمى فى تلك العلاقة الزوجية التى لم يصبها منها الا الألم والتعاسة المنقطعة النظير .. الا أنها كانت تحب صغيرها أكثر من كل شيء ، فهو الذى كبدها — حتى ولدته — أشد أنواع العذاب . فلا تأخذنك الدهشة اذن ، اذ تراها قد آثرت الانزواء والاعتكاف ، والبعد والزهد فى تلك الرحلة التى تكون فيها المرأة هى الفرس ، ولكنها — مع ذلك — تسيطر على فارسها ، وتقوده ، وترهقه ، وتمزقه من الغضب لو أنه ضعف أو تخاذل أو استرخى !

تلك هى القصة الحقيقية لبعض الزيجات التعيسة التى يكون أحد طرفيها ممن فاتهم قطار الشباب ، ودلفوا بأقدامهم أبواب الخريف .. وذلك هو السبب الصحيح لتلك الحماقات التى ترتكبها بعض النسوة اللاتى يدركن بعد فوات الاوان انهن قد خدعن ، وحينئذ يحاولن أن يحشدن فى يوم واحد كل ما فاتهن من مباهج الحب ، ليحصلن دفعة واحدة على كل نصيبهن فى الحياة !

هذا بحث فلسفى ياأصدقائى ، فتأملوه جيدا ، لكى تنفذوا بحكمة وفهم الى طبيعة زوجاتكم ، وحبيباتكم ، وكل الأناث على العموم .. ليحفظكم الله منهن !

كانت « برتا » عذراء فى الواقع ، وان غدت أما .. وكانت قد بلغت فى ذلك الحين الحادية والعشرين من عمرها ، فتفتحت أنوثتها كزهرة يانعة .. والحق انها كانت مفخرة رجلها الفاضل ، وزينة المقاطعة كلها .. أما « باستارنى » فقد كان يستشعر اللذة العظمى فى مشاهدة الطفل وهو يروح ويغدو ، ويمرح ويطفر ، غضا كغصن الصفصاف .. ممتلىء الأعطاف بالحيوية

ككلب البحر .. كثير الصخب ، دائب الصياح كالطائر الصداح !

وكانت «برتا» فى ذلك الوقت تقيم فى قلعة زوجها – بالقرب من مدينة (لوشيه) – لا تبدى أية رغبة فى أى مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية ، اللهم الا أن تهتم بواجباتها المنزلية حسب عادة سيدات البيوت الفاضلات فى تلك الأيام .. وهى تلك العادة الحميدة التى هجرتها الزوجات واقلعن عنها منذ جاء الايطاليون – بناء على رغبة الملكة كاترين – بمراقصهم وملاهيهم .. واليها انصرف فرانسيس الأول وخلفاؤه ، مما ألحق أبلغ الضرر بفرنسا .

وفى ذات يوم من تلك الأيام ، وصلت الى السيد «باستارنى» والسيدة زوجته دعوة من الملك ليأتيا الى (لوشيه) ، حيث كان جلالته مع حاشيته .. فما أن وصلا الى البلاط ، حتى أثار جمال « برتا » ضجة كبرى فى كل الأوساط : وقد بهرت فتنتها عينى الملك ، وأصبحت منذ اللحظة الأولى قبلة أنظار كل النبلاء .. فاما الشباب منهم فقد جعلوا وليمة عيونهم تفاحة الحب هذه ، وما فتئوا يتهامسون بشأنها ، دون كلل . وأما الشيوخ، فقد راحوا يدفئون أجسادهم المقرورة فى حرارة هذه الشمس ! .. الا أنك ينبغى أن تكون واثقا من أنهم جميعا – شيبهم وشبابهم – كانوا على تمام الاستعداد لأن يعانوا ألم الموت ألف مرة ، فى سبيل مرة واحدة ينالون فيها تلك الثمرة الشهية التى تخطف ابصارهم ، وتبلبل افكارهم .. مما أثار حفيظة سيدات كثيرات كن محرومات من ذلك الجمال الباهر الذى وهبه الله بسخاء لهذه الحسناء ، حتى لقد كن مستعدات لأن يضحين بالبقية الباقية من شرفهن ، فى سبيل ارجاع هذه – التى اشعلت فى أبدان الرجال نار الأشواق ، وشغلت عنهن قلوب الاخدان والعشاق – الى بيتها !

وكان من بين هاتيك النسوة غادة علمت أن أحد عشاقها قد وقع فى حب « برتا » ، فامتلأ قلبها بحقد أدى الى كل ما أصاب زوجة « باستارنى » من مصائب ، وان انبثق من نفس المنبع هناؤها ، وتوصلها الى دنيا الحب الذى كانت تجهله .. **فلقد كان لتلك السيدة الشريرة قريب اعترف لها ـ بمجرد أن رأى « برتا » ـ باستعداده لأن يموت فى مقابل شهر من السعادة يقضيه عشيقا لهذه الحسناء !** .. وليكن فى علمك ان ابن العم هذا كان من الملاحة بقدر ما للحسناء من جمال .. كان أملس الخدين ، أمرد الوجه نضيره ، عذب الملامح ، ذا طراوة فى خصره ، ورخاوة فى تعبيره وشعوره وكل أمره .. وكان بالكاد قد بلغ العشرين من عمره !

فقالت له : « يا ابن عمى العزيز ، انطلق من هنا ، واذهب الى بيتك ، ولسوف أبذل كل جهدى فى أن أنيلك هذه المتعة التى تشتهيها .. ولكن حذار أن تدع السيدة تراك ، أو أن يراك وجه القرد هذا ، الذى اتصل بجسد انسان ، بغلطة من غلطات الطبيعة ، والذى تنتمى اليه هذه الحورية الحسناء ! »

وما أن خرج الفتى ، حتى أقبلت السيدة على « برتا » تتقرب اليها ، وتقول لها : « يا صديقتى ، يا كنزى ، يا نجمى الجميل ! » ، محاولة بكل وسيلة أن تستميلها اليها ، حتى تجعل انتقامها منها آخر الأمر بعيد الأثر ، أكيد المفعول .. **وبعد حديث قصير ، أدركت الماكرة أن « برتا » لم تكن الا عذراء فى شئون الحب .. اذ رأت فى عينيها ذلك الماء الشديد الصفاء ، الذى لا يكون الا فى عيون العذارى ، ولم تلمح أثرا للهو والعبث ، ولا غضونا تتخلل الجبين دليلا على السهد والضنى .. وقصارى القول ان وجهها لم يكن يحمل شيئا من امارات المجون ، بل كان فى صفاء وجه الفتاة العذراء . واذ ذاك ، وجهت الغادرة الى « برتا » بعض أسئلة فى شئون النساء ، فاستوثقت تماما ـ من اجاباتها ـ بأنها كانت محرومة**

من لذائذ الحب ، وان حظيت بنعمة الأمومة !

وهنا سرت الخبيثة سرورا عظيمـــا ، من أجل حظ ابن عمها .. فتأمل مدى طيبتها ! .. وتحولت الى « برتا » قائلة لها انها كانت ثمة آنسة جميلة ونبيلة من أسرة « روهان » ، تقيم فى (لوشيه) ، فى أشد الحاجة الى معونة سيدة ذات مركز رفيع،لكى توفق بينها وبين السيد «لويس دو روهان» .. ثم اقبلت تناشدها ــ اذا كان لديها من طيبة القلب بقـــدر ما أعطاها الله من الجمال ــ ان تصطحب هذه الآنســـة الى قلعتها ، كى تتأكد بنفسها من طهارة ذيلها ، وتوفق بينها وبين السيد روهان ، الذى كان يرفض مقابلتها .. وقبلت « برتا » أن تقوم بهذه الخدمة ، دون أى تردد ، اذ كانت قد علمت ، من قبل ، بمحن هذه الفتاة ــ التى كانت تدعى « سيلفيا » ــ وان لم تكن قد رأتها أو تعرفت اليها ، اذ كانت تظنها مقيمة فى بلد أجنبى !

* * *

• **ولعل** من الضرورى أن نذكر هنا السبب الذى من أجله وجه الملك دعوته للسيد « باستارنى » .. اذ كان الشك قد انتاب الملك فى فرار ابنه ــ ولى العهد ــ الى (برجانديا) ، ولذلك فقـــد شاء أن يحرمه من مستشـــاره الحكيم « باســتارنى » ، بأن يعــوقه عن أن يلحق به .. الا أن ذلك الرجل المحنك ــ الذى لم يكن لاخلاصه للامير الصغير حد ــ أدرك غاية الملك وأبى الا أن يفسد عليه غرضه ، فقرر أن يأخذ « برتا » ويعود الى قلعته .. **الا أنها ذكرت له ــ قبـــل رحيلهما ــ أنها اتخذت لها رفيقة،وقدمت تلك الرفيقة اليه .. وما كانت تلك سوى العاشق الشاب ، الذى كان ــ بمساعدة ابنة عمه التى دبرت المكيدة له ــ قد تنكر فى ملابس فتاة ! ..**

وأجفل الزوج قليــلا ، اذ علم ان تلك الفتـــاة هى « ســيلفيا

دو روهان » ، الا أنه سرعان ما تأثر بعطف « برتا » وشفقتها ، فلم يسعه - من ثم - الا أن يبدى لزوجته الشكر والامتنان لسعيها فى أن تعيد شاة ضالة الى حظيرتها

وعاد مع زوجته ورفيقتها الى القلعة . ثم حانت الليلة الأخيرة ، التى أزمع أن ينطلق - بعدها - ليلحق بولى العهد فى (برجانديا) .. وكان مشغول القلب شديد القلق نحو «برتا» العزيزة ، التى قسرته الظروف على أن يغادرها ليخوض غمار مغامرته الخطيرة . واذ تملكه الخوف عليها أثناء غيبته ، خصص فرقة كاملة من الرجال المسلحين لحراستها ، غير انه كان ثمة عدو أشد خطورة من كل أعدائه فى عقر داره اذ كان وجه الفتى غير معروف اليه ، لأنه لم يكن قد تردد على البلاط الا من مدة قصيرة ، اذ جاء به الكاردينال « دينواز » ، الذى أعجب به منذ كان يعمل فارسا تحت امرته ..

ولما كان السيد « باستارنى » قد اعتقد أن الفتى كان فتاة فعلا - كما بدا له وهو فى تنكره - فقد أعجب اعجابا عظيما بما كان يبديه من حشمة وبراءة .. والواقع ان الفتى كان يخشى أن تفضح لغة عينيه عن حقيقته ، فكان يسبل اجفانه على الدوام ، شأن العذارى الطاهرات ، ذوات الخفر والحياء !

ويا لفرحة العاشق الولهان حين أغلقت أبواب القلعة خلف الزوج الكهل ، الذى انطلق بجواده بين المزارع والغدران ! .. فلقد كان ذلك المغامر نهبا للخوف والقلق - طيلة الوقت - خشية أن يفضح الزوج سره فيقتله شر قتلة ، قبل أن ينال بغيته ، حتى لقد نذر بينه وبين نفسه نذرا الى القديسين : أن يبنى عمودا على نفقته فى كاتدرائية (تور) ، اذا هو نجا بجلده من ذلك الموقف الخطير ، كما وعد بأن يدفع خمسين جنيها ذهبيا لله ، شكرا له على ما أنعم به عليه من مسرة لم يحظ بها انسان .. ولكن ، وا أسفاه ! .. فقد كان عليه أن يدفع مثل

هذه النذر للشيطان كذلك .. كما يبدو ذلك من الوقائع التالية التى انتهت اليها الأمور ، لو انك شئت أن تتابع القصة كى تعلم كيف انتهت الأمور !

٢ ـ ماذا فعلت برتا اذ عرفت حقيقة الحب ؟

• **كان** هذا الشاب المغامر هو السيد «جيهان دو ساشيه»، ابن عم السيد مونتمورنسى ، الذى آلت اليه بوفاة جيهان ـ فيما بعد ـ ضياع (ساشيه) وغيرها ، حسب نظام الاقطاع .

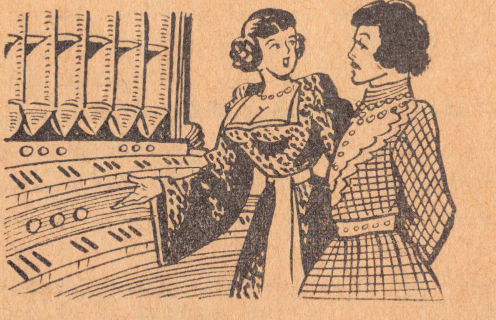
وكان « جيهان » ـ فى ذلك الحين ـ قد بلغ العشرين من عمره ، متوهجا متأججا كالفحم المشتعل ، ومن ثم فلابد أنك أدركت انه كان مقدما على مهمة شاقة !

وبينما انطلق السيد « باسترنى » بجواده بين الفيافى والبقاع ، تعلقت ابنتا العم بقضبان الباب ، كى تتبعاه ببصرهما أطول فترة ممكنة ، وتلوحا له باشارات الوداع .. حتى اذا انقشع الغبار الذى أثارته حوافر الجواد قالت « برتا » الى « سيلفيا » المزعومة :

« يا ابنة عمى العزيزة ، ماذا عسانا أن نفعل الآن ؟ هل تحبين الموسيقى ؟ تعالى اذن نعزف ونغنى بعض مقطوعات الشعر العذب القديم .. تعالى الى ارغنى .. ان كنت حقا تحبيننى فتعالى وغنى ! »

ثم أخذت « جيهان » من يده ، وقادته الى الأرغن ، حيث جلس على المقعد الصغير فى رشاقة النساء ، وراح يداعب بأصابعه مفاتيح الآلة الموسيقية ، حتى اذا انبعث منها أول النغم ، أدار الفتى عينيه نحوها كى يبدآن الغناء معا ، فصاحت برتا قائلة : **« آه يا ابنة عمى ، ان لك نظرة رائعة فى عينيك !.. وانك لتثيرين شيئا لا أدرى ما هو فى قلبى ! »** .

فأجابت سيلفيا : « آه يا ابنة عمى ، لقد كانت هاتان العينان سبب كل ما عانيت ، اذ أن سيدا فاتنا من الأرض ـ الواقعة



عبر البحر – قال لى منذ أيام قليلة أن لى عينين جميلتين ، وانهال عليهما بقبلات عذبة جعلتنى استلين ، اذ أحسست بسعادة لا حد لها ، ولا أحسست فى كل حياتى مثلها ! »

– يا ابنة عمى ، أفيبدأ الحب – اذن – فى العينين ؟

فقال العاشق ، ملقيا اليها بالنار واللهب : « فيهما تصاغ سهام كيوبيد يا عزيزتى برتا ! »

– دعينا نستمر فى أغنيتنا !

ونزولا على اقتراح جيهان ،انطلقتا ترددان أغنية «كريستين دو بيزان » ، التى كانت كل كلمة فيها تتأجج بالحب . حتى اذا توقفنا قليلا قالت برتا : **« آه يا ابنة عمى ، يا لصوتك من عميق ورقيق ! .. انه لينفذ الى أعماقى ! »**

فقالت سيلفيا قليلة الحياء : « الى اين ؟ »

فأجابت برتا : « هنا » .. ثم أشارت باصبعها الى جنبها الأيسر ، حيث تتجاوب أصداء الحب .. واستطردت قائلة : « دعينا يا ابنة عمى من الغناء ، فان له تأثيرا شديدا فى نفسى ، وتعالى هنا قرب النافذة ، حيث نمضى فى التطريز حتى المساء ! »

– آه يا شقيقة روحى ، اننى لأجهل كيف أمسك الابرة

بين أصابعى !

ـ كيف ذلك ؟ .. فماذا تفعلين اذن طيلة ايامك ؟

ـ أواه ، أننى لأستسلم لتيار الحب الذى يجعل الأيام تمضى كلحظات ، والشهور تمضى كأيام ، والسنين تمضى كشهور .. فاذا قدر له أن يدوم ، لتدفق فى الخلود ، كشراب التوت ، حلو المذاق ، بهيج الألوان ، عذب الألحان .. ممتلئا بالحياة وبالحنان !

واسبل الفتى جفنيه الجميلين وبدا حزينا كسيدة تعيسة هجرها حبيبها ، فهى تبكى فراقه وتتمنى أن يعود فتقبله وتصفح عن غدره ، اذا ما سعى الى ما اعتاده من عناق شهى !

فسألت برتا قائلة : « يا ابنة عمى ، هل يزدهر الحب بالزواج ؟ »

فأجابت سيلفيا : « كلا يا ابنة عمى ، لأن كل شىء يتم ـ فى الزواج ـ باعتباره من الواجبات .. فى حين ان كل شىء يتم ـ فى الحب ـ بمحض اختيار القلب .. وهذا الفارق يكون كالبلسم الناعم لتلك العناقات والمداعبات ، التى تعتبر زهورا للحب ! »

ـ يا ابنة عمى ، فلنغير الحديث ، فانه يؤثر فى قلبى أكثر مما أثرت الموسيقى !

ثم طلبت الى الخادمة أن تأتى اليها بولدها ، فلما رأته سيلفيا أقبلت عليه قائلة : « آه ، ها هوذا العزيز الصغير .. انه لجميل مثل الحب ! » .. وانحنت فطبعت قبلة حارة فوق جبينه الوضاء . وتسلل الطفل الى حجر أمه ، فأخذته فى حضنها ، وراحت تهدهده قائلة له : « ياصغيرى ، أنت سعادة أمك .. أنت فرحتها الصافية ، وبهجة كل ساعاتها .. أنت تاجها ، ودرتها ، واللؤلؤة الحقيقية الوحيدة .. أنت روحها البريئة ، ونجمها الساطع بالليل وبالنهار .. أنت شعلتها المتوهجة ، وحبيب قلبها .. هات يديك اللتين أشتهى أن

آكلهمـا .. هات أذنيك لأدغدغهمـا .. هات رأسك لأقبـل خصلاتك .. فلتسعد يا ثمـرة بدنى الحلوة ، حتى أكون أنا سعيدة أيضا ! »

فقالت سيلفيا : « آه يا ابنة عمى .. أنك لتخاطبينه بلغـة الحب . »

ــ هل الحب طفل اذن ؟

فأجابت : « نعم يا ابنة عمى .. ولذا فقد اعتاد الوثنيون أن يصوروه كطفل صغير »

وهكذا ظلت ابنتـا العم تتسليان بترديد أوصـاف الحب الجميلة حتى وقت العشـاء ، وهما تداعبـان الطفل .. وفى لحظة انسجام بينهما ، همس جيهان فى أذن برتا وهو يلثمهـا بشفتيه قائلا لها :

« ألا تشتهين طفلا آخر ؟ »

فطافت موجة من الأسى فى عينى برتا وأجابت قائلة : « آه يا سيليفيا ! اننى لأحتمل مائة سنة فى الجحيم ، لو شاء الله أن يهبنى هذه السعادة .. الا أنه على الرغم من كثرة الاجتهاد والاجهاد الذى يثابر عليه زوجى ــ ويؤلمنى من جرائه أشـد الألم ــ فان أحشـائى ظلت فارغـة .. واحسرتاه ! اننى لم أوت سوى طفل واحـد ، فأصبحت أخاف عليـه من مرور الزمن ، فأصبحت أخاف قلبه من مرور النسيم ، واذا سمعت صرخة فى القلعة ، أوشك قلبى من شدة الوجيب أن ينفجر .. ولقد غدوت أخشى الانسان والحيوان ، خوفا على هذا الصغير الحبيب .. فما عدت أعيش لنفسى ، وانما أنا أعيش به ولأجله ! »

واذ قالت هذه الكلمات احتضنته ، وضمته الى صدرها فى قوة روحية لا تحسها سوى قلوب الصغـار ، ولا تدركها الا الأمهات .. فأن كنت فى شك من ذلك ، فراقب قطة وهى تحمل قطيطاتها فى فمها ، دون أن تموء واحدة منهن !

* * *

• أما الفارس الشاب ـ المختفى تحت ثياب أنثى ـ فان هذا الحديث طمأن خاطره ، بعد أن كانت المخاوف تراوده ، فى سعيه الى أن يروى هذه الحسناء بماء الحب ، وأن يلقى البذور فى ذلك الوادى الخصيب .. ولم يعد يرى سوى أنه لن يكون الا منفذا لارادة الله ، اذا ما قاد هذه القديسة الى جنة الحب ! .. فلما جاء المساء وحان موعد الرقاد ، أقبلت « برتا » على ابنة عمها تسألها ـ على مقتضى التقاليد القديمة ـ أن ترافقها فى فراشها .. فأجابت سيلفيا ـ سادرة فى اتقان دور العذراء الكريمة المحتد ـ أنه ما من شىء يسرها أكثر من هذا !

وهكذا اصطحبتها « برتا » الى غرفة نومها الفاخرة ، المزدانة بالأبسطة الثمينة ، والطنافس الرائعة ، والأغطية الحريرية ذات الألوان الساطعة .. وهنالك بدأت « برتا » تخلع عنها ملابسها ـ فى رشاقة ـ تعاونها فى ذلك وصيفاتها .. أما رفيقتها ، فلعلك قد حذرت أنها رفضت خدمات هاتيك الوصيفات فى احتشام ، وقالت لابنة عمها ـ وقد احمر وجهها قليلا ـ انها قد اعتادت أن تخلع ثيابها بنفسها منذ غاب عنها عشيقها الحبيب الذى كان يؤدى هذه المهمة بأسلوبه الرقيق .. ومن ثم فان هذه الأمور تعيد الى خيالها ذكرى تلك العبارات العذبة التى كان يهمس بها فى أذنيها وتلك المداعبات اللذيذة المرحة التى كان يحيطها بها ـ وهو يمثل دور الوصيفة ـ فتعذبها الذكرى ، وتؤجج شوقها !

فلما سمعت « برتا » هذه الكلمات ، عجبت لها .. وبينما كانت ابنة عمها تصلى ، راحت هى تعد العدة لقضاء الليل ، تحت ستائر السرير الذى لم يلبث الفتى ـ المتأجج الشهوة ـ ان ارتمى عليه وقد أسعده ان يحظى بلمحات خاطفة لمحاسن

الغادة ، التى كانت آمنة مطمئنة ، اذ كانت تخـال نفسها مع فتاة مثلها ، فلم تتخل عن شيء من عاداتها ، وراحت تغسـل قدميها البديعتين حتى أعلاهما ، وتكشف عن نحرها ، وتفعل كل ما تفعله النساء ، حين يأوين الى مضاجعهن . واخيرا ، استلقت على السرير ، واسترخت فى ارتياح ، ومالت على ابنة عمهـا تقبلها ، فاذا بها تحس لشفتيها حرارة قوية. فسالتها جزعة : « أتشعرين بوعكة يا سيليفيا ؟ .. انك دافئة ! »

فأجابتها زميلتها : **« ان النار تدب فى جسدى هكذا حينما أتأهب للنوم عادة .. اذ تعاودنى ذكريات تلك المداعبات اللطيفة ، التى كان حبيبى يبتكرها لارضائى ، والتى لا تزال تذكى اللهيب فى جسدى ! »**

— آه ، يا ابنة عمى ، قصى على كل شيء عنـه .. قولى لى كل شيء عن ملذات الحب الذى لا أعرفه ، والذى تحول بينى وبين حرارته ثلوج رأس أشيب .. حـدثينى فتفضفضى عن نفسك ، كما تكسبينى حذرا وبصيرة ، ويصبح حديثك درسا مفيدا لكلينا ! »

فقال الفتى : « لست أدرى ما اذا كان لى ان أطيعك يا ابنة عمى العزيزة ! »

— ولم لا يا ابنة عمى ؟

وحينئذ ندت عن العذراء المزعومة آهة عميقة تحكى عويل الأرغن ، وقالت : **« آه ، يا ابنة عمى ، ان الأفعال أكثر لذة من الأقوال .. ولكننى أخشى ألا يـكون فى مكنتى أن أذيقك مثل اللذة العظيمة التى أذاقنى اياها ذلك الحبيب ! »**

فقالت برتا : « ولكن هل يكون الأمر خطيئـة ، اذا جرى بينى وبينك ؟ »

— بل انه — على العكس — يكون مسرة فى الأرض والسماء .. لسوف ينفث الملائكة عبيرهم المعطر حواك ، ويسكبون موسيقاهم العذبة فى أذنيك !

فقالت برتا : « اذن أرينى كيف أحبك حبيبك ! »

وحينئذ أخذها جيهان بين ذراعيه وضمها الى قلبه ، وكانت فى ثوب نومها كزنبقة من زنابق الحقل ترقد بين السوسن ، ثم راح يهمس فى أذنها قائلا لها : « حينما كان حبيبى يضمنى كما أضمك الآن ، كان يقول لى بصوت يقطر منه الشهد : «آه يا حبيبتى .. أنت حبى الخالد ، وكنزى الغالى .. انت مسرة بالنهار ، وبهجة بالليل ، بل انك لأنصع من النهار ضياء ، وليس فى الدنيا أجمل منك يا حبيبتى .. أنا أحبك أكثر مما أحب الحياة ، وانى لأتحمل ألف ميتة ، فى سبيل السعادة التى أسألكها ! » .. ثم كان يقبلنى ، لا كما يفعل الأزواج — فى خشونة — وانما بطريقة خاصة »

ولكى يريها مدى عذوبة أسلوب العاشق ، راح يمتص كل الرحيق الذى فى شفتيها ، ثم انتقل بنار قبلاته من فمها الى نحرها ، ومن نحرها الى أبدع تحفتين أسلمتهما أم لطفلها كى يطفىء ظمأه .. وحينئذ صاحت برتا قائلة : « آه يا ابنة عمى ، ان هذا أفضل .. يجب ان أخبر أمبرت بذلك ! »

— هل فقدت رشدك يا ابنة عمى ؟ اياك أن تقولى شيئا من ذلك لزوجك المسن .. فكيف له أن يكسب يديه لطف يدى ؟ .. ان كفيه خشنتان ككفى غسالة ، ولحيته الكثة تؤذى ينبوع الحب هذا الذى تتركز فيه ثروتنا ، وسعادتنا ، وحظنا فى الحياة !

واذ ضمها بقوة الى صدره ، وخاض المعركة ببراعة توجت جهوده بالنصر ، فهتفت « برتا » الساذجة : « أواه يا ابنة عمى ، لقد جاءت الملائكة .. ان موسيقاهم لعذبة ، حتى اننى ما عدت أسمع شيئا سواها .. وان أضواءهم لباهرة ، فلست أقوى على أن أفتح عينى ! »

* * *

• **وفقدت** وعيها — فعلا — تحت وطأة ملذات الحب التى

تفجرت فى كيانها ، ودوت أصداؤها فى سمعها كأنغام الأرغن ، وتألقت بأبهى الضياء ، وراحت تنهمر فى عروقها انهمارا ، وتنصب فى قلبها انهارا .. وانتقلت بها المشاعر من هذه الدنيا ، فحسبت نفسها قد ارتفعت الى الفردوس ! .

واستيقظت من هذا الحلم الهنىء ، فاذا بها بين ذراعى الفتى الفاتن ، فهتفت : « أواه ! .. منذا الذى يأبى الزواج من انجليزى ؟ »

فأجابها جيهان ، الذى كان قد بلغ ذروة نشوته : « ياحبيبتى الجميلة .. لقد زففت الى هنا ، فى فرنسا ، حيث أساليب الحب ألذ وأعذب .. فأنا رجل .. وانني لخليق أن أهبك من ينبوع رجولتى ألف حب ، وألف حياة ! »

وحينئذ صرخت «برتا» صرخة نافذة ، اخترقت الجدران .. وقفزت من الفراش كركب الجواد فى سهول مصر ، حين يقفز عن جواده .. وركعت على ركبتيها امام تمثال السيدة العذراء ، وضمت يديها على صدرها . وتساقط من عينيها من اللآلىء أكثر مما تساقط من عينى المجدلية ، وهى تعترف بخطيئتها .. وصاحت قائلة : « آه ، لقد هلكت ! .. لقد خدعنى شيطان تبدى لى فى وجه ملاك ! .. اننى أم طفل جميل ، وقد كنت عذراء مثلك يا سيدتى العذراء ، فتوسلى الى الله أن يرحمنى ويعفو عنى فى ملكوته ، اذا أبى الناس على ذلك فى الأرض ! .. أو فدعينى أموت حتى لا أقف مضرجة الوجه بالخجل أمام زوجى وسيدى ! »

واذ رأى جيهان أنها لم تمسه بكلمة سيئة ، وقف ذاهلا .. فما ان ابصرته منتصبا أمامها ، حتى وقفت سريعا على قدميها ، ونظرت اليه بوجه دامع ، وعيناها تتألقان بغضب سماوى — أحاط محياها بهالة من الفتنة والسحر — وقالت له : « اذا تقدمت خطوة الى ناحيتى ، فسوف أتقدم أنا خطوة نحو الموت ! » .. وأمسكت خنجرها الصغير فى يدها .. وكان

منظرها موجعا مفجعا ، حتى لقد أجابها جيهان قائلا : « انا الذى يجب ان يموت ، ولست انت يا عزيزتى ، يا حبيبتى الجميلة ، يا من أحببتك أكثر مما أحب رجل امرأة على الأرض!»

فقالت له : **« لو أنك حقا أحببتنى ، لما قتلتنى كما فعلت ، اذ أننى سأموت قبل أن أتلقى كلمات العار من زوجى ! »**

فسألها : « حقا ستموتين ؟ »

فقالت : **« بكل تأكيد ! »**

فصرخ قائلا : « كلا ، فلو اننى طعنت ألف طعنة ، لغفر لك زوجك ، اذ تقولين له انك وان مست طهارتك ، فقد انتقمت لشرفه بقتل الرجل الذى خدعك .. وانها لأعظم سعادة أظفر بها فى حياتى ، أن أموت من أجلك ، فى اللحظة التى ترفضين فيها أن تعيشى من أجلى ! »

واذ سمعت « برتا » هذا القول الحنون وشهدت دموع الفتى ، القت بخنجرها على الأرض ، فاذا جيهان يقفز اليه ويلتقطه ، ثم ينفذه على الفور فى صدره ، قائلا : « ما من ثمن لهذه السعادة سوى الموت ! » ثم سقط على الارض مضرجا بدمائه ..

وصرخت « برتا » ـ وقد تملكها الذعر ـ منادية خادمتها ،



التى أقبلت ، فجزعت اذ رأت رجلا جريحا فى مخدع سيدتها ، ورات السيدة منحنية عليه ، تسند راسه الى صدرها وتقول له : « ماذا فعلت بنفسك يا حبيبى ؟ ! » .. فلقد وهمت « برتا » أنه مات ، وتذكرت اللذاذات التى تلاشت .. وفى غمرة حزنها ، اعترفت لخادمتها بكل شيء ، وهى تنوح وتنتحب ..
واذ فطن العاشق المسكين الى حالها ، انتعش قليلا ، وحاول أن يرنو اليها بعينيه .. فصاحت الخادم : « لا تنتحبى يا مولاتى ، بل يجب ان نحتفظ بحواسنا ، لننقذ هذا الفارس الجميل .. ولسوف انطلق باحثة عن « لافالوت » ، حتى لا نطلع اى طبيب أو جراح على هذا السر .. ان «لافالوت» ساحرة قديرة ، وسوف تسعى لارضاء سيدتى ، فتصنع احدى معجزاتها ، وتبرىء هذا الجرح فلا يبقى له اثر ! »

فأجابت برتا قائلة : « أسرعى اذن ، ولسوف أحبك طيلة عمرى ، وأجزيك أحسن الجزاء على معونتك ! »

★ ★ ★

• **واتفقت** السيدة والخادم ـ قبل ان يقدما على شيء ـ على أن يكتما أمر هذه المغامرة ، وأن يخفيا جيهان عن كل العيون .. ثم انطلقت الخادم الى الخارج ـ تحت جنح الليل ـ كى تبحث عن « لافالوت » ، فرافقتها السيدة الى باب القلعة ، لأن الحارس لم يكن يملك أن يرفع المزلاج الا بأمرها .. حتى اذا عادت « برتا » الى حبيبها ، وجدته قد أغمى عليه وفقد وعيه ، اذ كان الدم ينبثق غزيرا من جرحه . فلما رأته على هذه الحال ، انحنت عليه ، وامتصت بشفتيها قليلا من دمه ، معتقدة انه انما ذرفه من اجلها .. ثم غلبها التأثر بهذا الحب العظيم ، وبالخطر المحدق ، فقبلت الفارس الفاتن ، وراحت تغسل بدموعها جرحه ، مناشدة اياه ألا يموت ، مقسمة أن تحبه بكل قلبها ، ان هو عاش .. **وقد ازداد**

هيامها به ، وهى تتأمل مدى الفارق بين هذا الشاب - الجميل ، الناصع البياض ، المشرق فى بهاء الفجر - وزوجها الكهل ، الكث الشعر ، المتغضن البشرة ، الأصفر اللون . ورد اليها هذا الفارق ، ذكرى ما تذوقته من لذة الحب ، فتحركت شجونها ، واشتدت حرارة قبلاتها ، حتى ردت الوعى الى « جيهان » ، فافاق من اغمائه ، ورأى « برتا » فراح يستغفرها .. الا أنها أسكتته . ولبثا كل الوقت ولا حديث بينهما الا نجوى العيون ، حتى وصلت « لافالوت »

وكانت هذه المرأة حدباء ، ذات شهرة طائرة بمزاولة السحر ، واحتراف الشعوذة . الا انها كانت - الى جانب ذلك - على دراية ببعض الأسرار الطبية ، وذات نفع كبير للسيدات فى بعض الشئون النسوية ، وللنبلاء والأثرياء فى غرامياتهم . مما أتاح لها عيشا رغيدا ، وأصبحت تتقلب على فراش من الريش ، اذ جمعت ثروة بهذا الأسلوب البغيض ، رغم ان الاطباء كانوا يشنون حملة قاسية عليها ، ويشيعون عنها انها كانت تبيع السموم .. وهو ما كان حقيقة ثابتة ، كما سيظهر لنا فيما بعد

وقد جاءت « لافالوت » على ظهر أتان ، مردفة الخادم خلفها ، وظلت تستحثه كى ينهب الارض بأقصى سرعته ، حتى بلغت القلعة قبل انبثاق الفجر .. وهتفت وهى تلج المخدع : « ها أنذا يا أولادى ، فما الذى حدث ؟ » .. وكانت تلك هى طريقتها المعهودة لدى عظماء الناس ، اذ كانوا يتراءون صغارا فى عينيها .. ووضعت منظاريها على انفها ، وانحنت على الجرح تفحصه بعناية ، وهى تقول : « ان هذه دماء حلوة يا عزيزتى ، وأراك تذوقتها ! » .. ثم غسلت الجرح بأسفنجة ناعمة ، امام السيدة وخادمتها ، اللتين كانتا تمسكان أنفاسهما .

وقصارى القول ، ان « لافالوت » طمأنتهما الى ان الشاب لن يموت بجرحه .. ثم تأملت كفه وأردفت : « ومع ذلك ،

فسوف تكون نهايته قاسية ، من جراء ما فعله الليلة ! » .. فما ان سمعت برتا وخادمتها هذه النبوءة ، حتى تولاهما الذعر .. أما « لافالوت » فقد وصفت بعض الأدوية ، ووعدت بأن تعوده مرة أخرى فى الليلة التالية .. وهكذا ظلت أسبوعين كاملين تأتى تحت جنح الليل كى تضمد الجرح ، وتطهره . قالت الخادمة لكل القاطنين حول القلعة ان سيدتها الشابة « سيلفيا دو روهان » ، كانت تموت من جراء انتفاخ المعدة ، ورجتهم ان يبقى ذلك سرا من أجل خاطر السيدة « برتا » ، ابنة عمها .. فاقتنع الجميع بهذه القصة ، وأذاعوها بين كل أصدقائهم ، وجلسائهم ! !

واذا كان القوم الطيبون قد ظنوا ان المريضة هى التى كانت فى خطر ، الا أن الأمر لم يكن كذلك .. فالواقع ان السليمة هى التى حف بها الخطر . **فقد اخذت «برتا» تزداد ضعفا ، كلما ازداد « جيهان » عافية ، حتى لقد تركت نفسها تنساق الى ذلك الفردوس الذى فتح «جيهان» ابوابه لها .. وبايجاز ، اخذت تزداد به هياما ، غير أن سعادتها به كانت تمتزج على الدوام بالرعدة من تلك النبوءة المشئومة — التى سمعتها من « لافالوت » — وبالألم المرير الناشىء عن تدينها وتبكيت ضميرها ، وبالخوف من زوجها « امبرت » الذى اضطرت الى ان تكتب اليه تنبئه بأنها حملت منه بطفل آخر سوف يكون مبعث سروره حين عودته !**

ولقد توارت « برتا » المسكينة عن حبيبها جيهان ، فى ذلك اليوم الذى كتبت فيه خطابها المثقل بالكذب ، الذى بللت منديلها فوقه بالدموع .. واذ رآها جيهان تتجنبه فى ذلك اليوم — وقد اعتادا ان لا يفترقا طيلة الأيام الماضية ، الا كما تفترق النار عن الحطب — اعتقد انها بدأت تكرهه ، فراح يبكى مر البكاء .. حتى اذا جاء المساء ورأته « برتا » ، تأثر قلبها ،

اذ رأت آثار الدموع ، فأخبرته بسبب حزنها ، واعترفت له بهواجسها ازاء المستقبل ، مبينة له انهما ــ معا ــ جديران باللوم ، مذكرة اياه بتعاليم الدين ، مستشهدة بآيات الكتاب المقدس ، مازجة كل ذلك بالدموع والحسرات ، حتى لقد تأثر «جيهان» لفوره باخلاص حبيبته . . وبهذا الحب البرىء الممتزج بالتوبة . . وهذا النبل والسمو فى الخطيئة . . وهذا المزيج من الضعف والقوة ، الذى كان خليقا ــ كتعبير القدماء ــ بأن يغير طبيعة النمر ، فيذيب قلبه عطفا ورحمة ! . . **فلا عجب اذ جثا « جيهان » ــ اذ ذاك عند قدميها ، وعاهدها أمام الله أن يطيعها فى كل ما تأمره به ، وأن ينقذها فى هذا العالم وفى العالم الآخر !** . . وفى اغتباطها بهذا الاخلاص وبهذه الطيبة ، ألقت بنفسها على قدميه ، فقبلتهما قائلة : « اواه ياحبيبى . . يا من أحببته رغم ما فى ذلك من خطيئة مميتة ! . . انك لفى منتهى الطيبة والترفق بحبيبتك المسكينة « برتا » ، التى ستظل تجد غبطة فى التفكير فيك ، والتى يجدر بك أن توقف سيل دموعها المنبعثة من نبع فياض بالسرور » . . وهنا تركته يسترق قبلة من عينيها ، ليتأكد من قولها ، ثم استطردت : «اى جيهان . . ان كنت تحتفظ حقا بمتعنا السماوية وما عزفته الملائكة فى آذاننا ، فان شذى الحب خليق بأن يواسينى فى وحدتى ، لاأن يعذبنى . . فافعل ماأمرتنى العذراء ــ فى المنام ــ أن أطلب اليك فعله . . فقد حلمت بأننى أضرع اليها أن ترشدنى فى موقفى الراهن ، فأقبلت على ، وتجلت لى . **واذ ذاك حدثتها عن العذاب الرهيب الذى لابد من ان أقاسيه ، ورحت أرتجف اشفاقا على ذلك الجنين الذى بدأت فعلا أحس به فى أحشائى ، واشفاقا على أبيه الحقيقى الذى سوف يحيا على الدوام تحت رحمة الغير ، وقد يتيتم طفله من جراء ميتة عنيفة ، اذ من المحتمل أن تتحقق نبوءة الساحرة** . . وما لبثت العذراء الجميلة ان قالت لى باسمة أن السماء تمنحنا الغفران عن

خطايانا ، اذا نحن أطعنا اوامرها .. وانه لابد للانسان ــ كى ينقذ نفسه من عذابات الجحيم ــ ان يتوب عن خطاياه قبل ان يحين حينه ، ويحل غضب الرب عليه .. ثم اشارت باصبعها ، فأبصرتك يا « جيهان » واقفا عن يمينها ، مرتديا ملابس غير التى عليك الآن ، وقد بدوت كما ينبغى أن تكون اذا أحببتنى حبا سرمديا ! »

فقال لها « جيهان » انه على استعداد لان يطيعها طاعة عمياء ، ثم انهضها وقبلها .. واذ ذاك قالت له « برتا » ان الثياب التى رأته يرتديها ــ فى الحلم ــ هى ثياب الرهبان .. وتضرعت اليه ، وهى ترتجف ، أن ينخرط فى سلك الكهنوت ، وان يعتزل فى دير (مارموتييه) الواقع خلف أسوار مدينة (تور) ، واعدة اياه بأن تدعه يزورها يوما فى كل سنة ــ كى يرى طفله ــ جزاء له ! .. ولما كان جيهان قد وعدها بأن يطيع امرها ، فانه لم يجد مندوحة عن ان يرتبط بكلمته .. وقرر لها أنه سيهجر العالم ــ من لحظته ــ وينطلق الى ذلك الدير حارما نفسه من كل متعة فى الحياة ، قانعا بأن يعيش على ذكرى تلك اللحظات السعيدة التى نعم فيها بعناقها !

فما ان سمعت « برتا » منه هذه الكلمات العذبة ، حتى قالت له ان السعادة التى بعثها حديثه ، ستعينها على تحمل خطيئتها ، مهما تكن ضخامتها ، ومهما يكن ما اعده الله لها من عقاب .. فقد آمنت بأنها لم تقع فى براثن رجل ، وانما وقعت على ملاك !

* * *

وفى الغداة ، اتخذ « جيهان » طريقه الى الدير ، كما وعد بذلك « برتا » .. فما ان وصل ــ فى منتصف النهار ــ حتى فتحت له الابواب ثم أغلقت من خلفه . وهنالك بدأت فترة اختبار ذلك الراهب الجديد .

فلما عاد « باسـتارنى » من رحلته الى (برجانديا) ، اخبرته زوجته بأن « سيلفيا دو روهان » قد عادت الى سيدها .. وما كانت فى ذلك مجانبة للواقع ، فانهـا كانت تعنى أنها عادت الى السيد المسيح ! !

أما السيد « باستارنى » ، فقد امتلأ فرحا وانشراحا حين رأى « برتا » لا تحيط خصرها بحزام ، اذ كان وسطها قد تضخم ، بسبب الجنين الذى بدأ ينمو فى أحشائها .. وهنـا بدأت مأساة هذه السيدة المسكينة التى لا تعرف الخداع ، وانما كانت - كلما فاهت بكذب - تهرع الى محرابها ، وتصلى باكية بدل الدمع دما ، رافعة أكف الضراعة ، متوسلة الى القديسين

وحدث مرة أن ارتفع نشـيجها ، عسى أن يسـمع الله دعاءها ، ولقد سمعه .. فهو يسمع كل شيء . يسمع الاحجار وهي تتقلقل تحت المياه ، والبائس وهو يئن ، والطيور وهى تشق طريقها فى الفضـاء . كذلك يحسن أن تعلم ما يلى ، والا عز عليك أن تصدق ما جرى : فقد أمر الله رئيس ملائكته أن يجعل لهذه التائبة جحيما على الارض ، حتى تدخل الجنة دون حساب أو عقاب .. فنزل رئيس الملائكة من النعيم الى أبواب الجحيم ، وأسلم النفوس الثـلاث - برتا وجيهان والطفل - الى الشيطان ، قائلا له انه موكل بتعذيبها فى بقية حياتها !

وحينئذ أجاب الشيطان - الذى هو بارادة الله سيد كل شر - بأنه سوف يطيع الامر !

وبينما كانت هذه المحـادثة تجرى فى السماء ، كانت الحياة تسير كعادتها هنا على الارض . فوضعت السـيدة الحسناء - زوجة « باستارنى » - أجمل طفل فى العـالم ، حتى لقد فاق جماله جمال الزهور والزنابق .. وراح حسنه يزداد يوما بعد يوم ، بينما كان الطفل الاول يتغير ويتطور حتي انقلب الي قرد كمثل أبيه ، الذي لم يكن له نظير - في

الدمامة – بين القوم ، مما جعل باستارنى يجاهر بأنه كان يرجو ان يكون الاصغر هو الاكبر .'. وأما «برتا» فلم تدر ماذا تفعل ، اذ أنها كانت تعبد ابن جيهان ، ولم تعد تشعر نحو ابنها الاخر الا بعاطفة فاترة ، وان راحت تبذل كل جهدها لتحميه من النوايا الشريرة التى كانت تراود أباه الكهل « باستارنى » !

واذ كانت برتا قد ارتاحت الى سير الامور على هذا الوجه ، فقد راحت تهون من مخاوفها ، وتهدىء ضميرها .. حتى انقضى اثنا عشر عاما . **وفى كل سنة من تلك السنوات كان راهب دير (مارموتييه) يأتى الى القصر ، حيث يقضى فيه يوما كاملا كى يرى طفله ، وفقا لوعدها الصادق .. وان ناشدته – فى كثير من المرات – أن ينزل عن حقه ، فكان يشير الى الطفل قائلا لها : ((انك ترينه كل يوم من أيام العام ، وأنا أراه مرة واحدة !)) ... فلم تكن الام المسكينة تجد لهذا القول ردا !**

وفى خلال الاشهر القليلة – التى سبقت آخر ثورة قام بها ولى العهد ضد أبيه ملك فرنسا – كان الولد الصغير يدرج نحو السنة الثانية عشرة من عمره ، وقد بدأ يلوح اليه أنه أهل لأن يصبح عالما متبحرا فى كل العلوم . فما ازدهى « باستارنى » الكهل بأبوته يوما ، قدر ما ازدهى اذ ذاك . فاعتزم أن يأخذه معه الى بلاط (برجانديا) ، حيث رآه هنالك الدوق شارل ، فوعد بأن يمنح هذا الابن المحبوب ، منصبا يحسده عليه الامراء ، لأنه كان شديد الشغف بأمثاله من الشبان الاذكياء ...

واذ رأى الشيطان أن الامور تجرى على هذه الصورة السعيدة ، قرر أن الوقت قد حان ليضرب ضربته الشديدة ، فرفع ذيله وألقى به وسط هذه السعادة ، ليقلبها وفقا لما ارتآه !

٣ : العقاب الرهيب ، والتفكير .. ثم الغفران

• **كانت** خادم السيدة «برتا» قد بلغت فى ذلك الحين الخامسة والثلاثين من عمرها ، فوقعت فى غرام أحد الجنود القائمين على حراسة القلعة ، وبلغ من حماقتها أن تركته « يسرق بعض أرغفة من الفرن » ـ على حد تعبير أهل ذلك العصر ـ مما أدى الى اصابة الخادمة الشقية بذلك الانتفاخ الذى كان بعض الخبثاء يسمونه «استسقاء التسعة أشهر»!! .. فلما بدأت رائحة الفضيحة تفوح ، هرعت الفتاة الى سيدتها متوسلة اليها أن تتوسط لها عند السيد ، كى يجبر الرجل الشرير على أن ينهى الامر أمام المذبح ويتزوجها .. وفعلا لم تجد « برتا » عناء فى اقناع زوجها !

ان المحارب الكهل ، الذى كان على الدوام فظا غليظا ، أسرع الى حارسه وأهوى بيده على عنقه ، وأمره بأن يتزوج الفتاة فى الحال ، والا شنقه على باب القلعة . ثم أرسل بعد ذلك فى طلب الأنثى ، اذ رأى أن شرف الأسرة كان يتطلب أن يكون قاسيا فى كلامه معها ، كى يؤدبها ، ويردعها .

وما ان رآها بين يديه ، حتى انفجر فى ثورة عاتية ، فخيل للفتاة أن سيدتها كانت تسعى الى التخلص منها ، لتطمئن على سر مولد ابن جيهان .. فلما قال لها السيد الكهل ـ فيما قاله ـ أنه يكون مغفلا اذا أبقى عاهرة فى بيته ، أجابته قائلة انه كان بالفعل مغفلا مغرقا فى الغفلة ، لأن زوجته تقوم بدور العاهرة ، منذ وقت طويل .. فهى ـ منذ اثنى عشر عاما ـ تعشق ، من خلف ظهره ، أحد الرهبان ! !

وتصور العاصفة العظمى ، والهياج الهائل الذى استولى على ذلك المحارب القديم ، حينما هوجم هكذا فى صميم قلبه .. فما ان رنت فى أذنه الكلمات الرهيبة ، حتى تقلصت أصابعه وقبض على عنق الفتاة ، وأوشك أن يقضى عليها ، لولا أنها

روت بالتفصيل كيف ولماذا ومتى حدث ما حدث ، لتثبت صدق قولها .. ثم ختمت بيانها قائلة له ان له ــ اذا كان فى شك من كلامها ــ أن يعتمد على أذنيه ، فيختفى خلف احدى الستائر فى يوم وصول الاب « جيهان دوساشيه » ، راهب دير مارموتييه .. فاذ ذاك يستطيع أن يسمع كلمات الوالد الذى يفد يوما واحدا فى العام ، كى يتزود من ولده بقبلات تكفيه زادا لعام كامل !

وفى ثورة جارفة ، أصدر « أمبرت » أمره الى المرأة بأن تغادر القلعة على الفور ، بعد أن أعطاها هى ورجلها مائة جنيه .. وقال لهما فى لهجة تطفح بالتهديد وبالوعيد الا يبيتا هذه الليلة فى مدينة (تورين) .. وزيادة فى الطمأنينة ، أرسلهما الى (برجانديا) فى حراسة جنوده .. حتى اذا أيقن أنهما قد أصبحا خارج المدينة أخطر زوجته برحيلهما ، قائلا لها أنه قد تبين أن خادمتها كانت أداة فساد ، فرأى أن من الأفضل التخلص منها .. بعد أن أعطاها مائة جنيه ، وأوجد عملا للرجل فى بلاط برجانديا ..

* * *

• ودهشت برتا دهشة بالغة ، اذ علمت أن خادمتها قد غادرت القلعة ، دون أن تكون هى الآمرة بطردها ، وهى سيدتها .. الا أنها لم تقل شيئا ، وانما أصبحت ــ من ذلك اليوم ــ نهبا للمخاوف الغامضة . فقد لاحظت ان زوجها قد تغير فى سلوكه معها كل التغيير ، وبدأ يتبين التشابه بينه وبين ابنه الاكبر ، ويتأكد من أنه ما كان ليجد أى شبه بينه وبين الابن الاصغر ، الذى كان قد أحبه حبا عظيما ..

وقد قالت « برتا » يوما ، وهو يبدى مثل هذه الملاحظات :

« انه ليشبهنى أنا شبها تاما .. ألا تعلم أنه فى الاسرة الواحدة المنتظمة النسل ، يأخذ الأبناء أشكالهم من الاب والام ــ على

التوالى ، كل منهما بدوره ـ أو منهما معا ، اذ تمزج الام صفاتها بالقوة الحيوية للاب ؟ .. ويقرر بعض الاطبـاء أنهم عرفوا أطفالا كثيرين ولدوا بغير شبه على الاطلاق بينهم وبين آبائهم أو أمهاتهم ، وهم ينسبون هذه العجائب الى قدرة الله»

فأجابها « باستارنى » فى تهكم : « لقد أصبحت متعلمـة جدا يا عزيزتى ، الا أننى ـ أنا الجاهل ـ أرى أنه اذا كان ثمة طفل يشبه راهبا ... »

فقاطعته برتا وهى تبـدو غير مكترثة ، رغم أن الدم استحال فى عروقها الى جليد : « هل يكون الراهب أبا ..؟! »

وحينئذ اهتز يقين الرجـل الكهل ، وظن أنه أخطأ فى شكوكه ، ولعن الخادمة فى سره .. على أنه لم يتخل عن عزمه أن يتأكد من حقيقة الامر ..

فلما اقترب موعد زيارة الراهب لرؤية ابنـه ، بادرت « برتا » ـ وقد امتلأ صدرها بالهواجس بعد ذلك الحديث الغريب المريب مع زوجها ـ فكتبت الى « جيهان » ضارعة اليه الا يأتى فى هذا العام . ولكنها لم تشأ أن تخبره بسبب رغبتها ، أو تبدى له سر رهبتها .. ثم انطلقت الى ساحرتها « لافالوت » ـ فى مدينة (لوشيه) ـ لتحمل عنها الخطاب الى الراهب فى (مارموتييه) .. واذ أودعته بين يديها ، حسبت أن كل شىء قد انتهى الى السلامة .. ولو الى حين !

وازدادت سرورا بما كتبته الى صديقها ، حين تبينت أن « أمبرت » ـ الذى اعتاد أن يقوم برحلة الى مقاطعة (مين) ، حيث بعض أملاكه ، قبل موعد زيارة الراهب ـ عدل فى هذا العام عن رحلته ، متعللا بأنه يعد العدة لحركة ثورية اعتـزم ولى العهد أن يشعل نارها ضد والده الملك .. وكان هذا سببا وجيها ، اقتنعت به برتا المسكينة ، فلم يتسرب اليها أى شك أو تشعر بأى قلق !

الا أن الراهب وصل فى اليوم المحدد كعادته .. فما ان

رأته ((برتا)) ، حتى هرب الدم من أطرافها ، فصبغت الصفرة وجهها . وسألته عما اذا كان قد تسلم خطابها ، فقال جيهان : ((أى خطاب ؟ !))

اذ ذاك ندت عن ((برتا)) صرخة مكبوتة ، وقالت : ((آه ! لقد ضعنا اذن : أنت ، والطفل ، وأنا !))

فسألها الراهب : ((ولماذا ؟))

فأجابت : ((لست أدرى ، ولكن يومنا الأخير قد جاء)) .. وتحولت الى ابنها فسألته عن ((باستارنى)) .. فأجابها أن رسولا خاصا استدعاه الى (لوشيه) ، وانه لن يعود حتى المساء .. واذ سمع ((جيهان)) ذلك ، أبدى لعشيقته رغبته فى أن يبقى معها ومع ابنه العزيز بقية النهار — رغم معارضتها — مؤكدا لها أنه ما من ضرر سوف يحدث من ذلك ، بعد أن انقضى اثنا عشر عاما على مولد ابنها .. فلم يسع ((برتا)) الا أن بقيت فى غرفتها مع الراهب حتى موعد العشاء .
واذ ذاك ألحت ((برتا)) عليه أن يعجل بتناول الطعام — مدفوعة بمخاوفها — والراهب يحاول أن يهدىء من روعها ، مؤكدا لها ان ((باستارنى)) كان مقلقل المكانة فى بلاط الملك ، ومن ثم فلن يجرؤ على النيل من راهب ذى مركز محترم ، فى دير (مارموتييه)

* * *

• **وكان** طفلهما يلعب فى الفناء — رغم توسلات أمه المتكررة — عند ما جلسا الى المائدة ، فلم يكف عن لعبه ، بل ظل يقفز هنا وهناك على ظهر فرس أسبانى جميل ، كان قد أهداه الدوق شارل — أمير برجانديا — الى باستارنى .. وقد كان الولد يجد مسرة فى أن يتباهى أمام الراهب ببراعته ، ويريه أى فارس سوف يكون فى المستقبل ، حين يستكمل أسباب رجولته ..

فقال الراهب لبرتا : « دعيه وشأنه ، يا حبيبتى ، فان الأطفال غير المطيعين ، غالبا ما يصيرون من العظماء ، فى المستقبل . »

ولم تصب « برتا » من الطعام شيئا يذكر ، اذ كان قلبها مثقلا بالهواجس . أما الراهب ، فما ان استقرت أول لقمة فى جوفه ، حتى أحس بألم فى أمعائه ، وبمرارة فى سقف حلقه ، أدرك على الفور أنها مرارة السم .. فألقى بنظره سريعا الى « برتا » .. واذ رآها تواصل الأكل ، بادر فى انتفاضة عظيمة ، فجذب غطاء المائدة ، والقى بكل ما عليه من الطعام فى لهب الموقد ، مفضيا الى « برتا » بشكه فى أن يكون زوجها قد دس السم لهما ولابنهما .. فصرخت برتا تشكر العذراء على أن ابنها ظل بعيدا منصرفا الى لعبه !

وفى التو ، انطلق « جيهان » ـ الذى ظل مع رهبة الموقف محتفظا بحضور بديهته ـ حتى اذا بلغ فناء القلعة ، انتزع ابنه من فوق الجواد ، وقفز فى مكانه . وفى لمح البصر امتطاه واندفع به كالسهم خلال الحقول ، حتى لتحسبه ـ من فرط سرعته ، وهو يضرب جنبى الجواد بمهمازيه ـ نجما يشق السماء .. حتى وصل الى مدينة (لوشيه) ، حيث اتجه لفوره الى منزل الساحرة « لافالوت » ، وأنهى اليها الأمر فى



كلمتين اثنتين ، اذ كان السم قد بدأ يسرى فى كيانه فعلا .. وتوسل اليها أن تسرع فى اعطائه ترياقا لذلك الموت الأسود الذى راح ينشب فيه مخالبه !

واذ سمعت الساحرة قوله صاحت قائلة : « وا أسفاه ، فلو اننى كنت أعلم أن هذا السم كان مطلوبا منى لأجلكم أنتم ، لتركت حد الخنجر الذى هددنى به زوج السيدة ينفذ فى صدرى ، ولضحيت بحياتى البائسة لأنقذ حياة رجل من أتباع الرب ، وامرأة هى أجمل زهرة تفتحت أكمامها فى ربوع هذه الأرض .. فواحسرتاه يا صديقى .. اذ لم تعد عندى من ذلك الترياق الا قطرتين اثنتين ، تراهما فى هذه القارورة ! »

فسألها فى لهفة : « أهما كافيتان من أجلها ؟ » ..

فقالت الشمطاء : « نعم .. على أن تسرع كل الاسراع بهما اليها »

★★★

• **وما ان** سمع منها ذلك ، حتى انطلق عائدا بأسرع مما ذهب ، الى درجة ان الجواد سقط ميتا - لفرط الارهاق - بمجرد وصوله الى فناء القلعة . وأسرع الراهب الى الغرفة التى ترك فيها « برتا » . وكانت هذه قد اعتقدت أن ساعتها الأخيرة أتت ، فرآها تقبل ابنها فى لوعة ، وتتلوى كقطاة تتقلب فى لهيب النار ، وهى تصرخ .. لا من أجل نفسها ، وانما من أجل ولدها الذى ستتركه تحت رحمة زوجها .. ناسية عذابها وهى تعانى سكرات الموت ، لتفكر فى المستقبل القاسى لابنها .

فصاح الراهب ، قائلا لها : « خذى هذا .. أما أنا فقد أنقذت حياتى ! »

وكان فى قلب ((جيهان)) من الشجاعة ما مكنه من ان يقول هذه الكلمات بوجه لا يختلج ، رغم انه كان يشعر بأنياب الموت ، فى تلك اللحظة ، تنهش أحشاءه .. فما أن ألقت ((برتا)) بالترياق فى فمها ، حتى سقط ذلك الرجل الباسل ميتا ، وهو يضم

ولده ، ويرنو الى حبيبته بعينين والهتين مدلهتين ، حتى رانت عليهما ظلمة الموت !

وحينئـذ سرت فى أوصال السيدة برودة الثلج ، وغدت بشرتها فى مثل لون الرخام الأبيض ، وتجمد جسـدها كله من فرط الرعب أمام مشهد ذلك الحبيب المسجى تحت قدميها ، وهو ممسك بيد الصبى الذى راح يبكى ، بالرغم من ان عينيها هى كانتا أشد جفافا من البحر الأحمر حين عبره اليهود تحت قيادة السيد موسى !

حتى اذا أفاقت قليلا من هولها وذهولها ، أخـذت الراهب الشهيد بين ذراعيها ورفعته ـ يعاونها ابنها ـ فوضعته فوق الفراش ، ووقفت بجانبه تصلى ، مع ولدها الذى صارحته ـ فى تلك اللحظة ـ بأن هذا الراهب هو أبوه الحقيقى .. وعلى هذه الحال انتظرت ساعتها الرهيبة ، وما طال بها الانتظار .. اذ سرعان ما وصل باستارنى الى القلعة ، وهنالك أخبره الخدم بأن الراهب هو الذى مات ، وليس السيدة أو الطفل .. وفى الفناء رأى جواده الأسبانى الجميل ملقى على الأرض قتيـلا . فاندفـع كالوحش ـ تلهب دمه الرغبـة المستعرة فى أن يذبح الزوجة ، وابن السفاح ـ واجتاز درجات السلم كلهـا بقفزة واحدة .. حتى اذا غدا امام الغرفة التى جرت فيها الاحداث، وقف مبهوتا مبهور الأنفاس أمام منظر الجثة المسجاة ،وبجانبها السيدة وابنهـا يرددان صلوات لا تنقطع .. فلا آذان لهمـا تسـمع شتائمه واتهاماته ، ولا عيون لهمـا تبصر تلويحـاته وتهديداته .. وانهارت عزيمته .. وبانكسار حدة ثورته الأولى ، لم يعد فى مكنته أن يستمر طويلا فى وقفتـه ، فغادر الغرفـة منسحبا كحيوان جبان ، وقد لدغه مشهد تلك الصلاة المرفوعة الى الله من أجل الراهب .

* * *

• **وهكذا** انقضى الليل كله فى دموع ، وتأوهات ، وصلوات

وابتهالات . حتى اذا أصبح الصباح ، أصدرت السيدة أمرها السريع الى خادمها كى ينطلق الى المدينة فيشترى لها ثيابا تليق بامرأة ذات مركز رفيع ، ولابنها جوادا وأسلحة تصلح لفارس كريم .. ودهش السيد باستارنى اذ رأى زوجته تفعل ذلك ، وأرسل فى طلبها هى وابنها .. الا أنهما لم يجيباه الى طلبه ولم يحفلا به ، وانما قاما فى هدوء ، وارتديا الملابس التى اشتراها الخادم لهما .. ثم أصدرت السيدة أمرها بعد ذلك بحصر كل منقولاتها وأرديتها ومجوهراتها – شأن الأرملة حين تعد العدة للتخلى عن كل ما يخصها من تركة زوجها – بل لقد أمرت بأن يفرغ كيس نقودها ، كى لا يعود فى حوزتها مما يتعلق بذلك الزوج أى شىء .. وسرى خبر هذه الاجراءات فى انحاء القلعة كلها ، فعرف كل من فيها أن السيدة انما تعد عدتها للرحيل .. وامتلأت قلوبهم جميعا بالأسف والأسى !

أما « باستارنى » فقد تملكه الذعر ، وانتابته الحيرة والقلق من تلك الاستعدادات التى عمدت اليها زوجته ، فأقبل الى حجرتها . وهناك وجدها تبكى فوق جثة « جيهان » ، وقد انطلقت دموعها أخيرا .. وما ان لمحت زوجها يدلف الى الغرفة ، حتى بادرت بتجفيف عينيها .. فتقدم نحوها وراح يوجه اليها سيلا من الأسئلة ، ولكنها أجابته عن كل ما سألها بكلمات قليلة ، معترفة بخطيئتها ، معتذرة بالخديعة التى وقعت ضحيتها ، ذاكرة ما انتاب عاشقها من ألم وندم .. ثم كشفت عن صدر جيهان ، لتريه أثر الخنجر الذى أغمده فى جنبه ، تكفيرا عن ذنبه ، ووصفت له كيف طال أمد اعيائه ، حتى وصل الى اكتمال شفائه .. وكيف أنه – استجابة لطلبها – دخل الدير تائبا الى الله عما فعل بها ، وانخرط فى سلك الرهبنة ، هاجرا كل اعماله ، هادما كل آماله ، متخليا عن منصبه ، وعن اسمه ولقبه . ذلك الأمر الذى هو أسوأ من الموت .. وكيف أنها – اذ كانت بهذه الوسيلة قد اعتقدت أنها انتقمت لشرفها –

أيقنت أن الله ذاته ما كان ليأبى على الراهب أن ينعم مرة واحدة في العام برؤية ابنه الذي من أجله ضحى بكل شيء !

وبعد أن أدلت الى الزوج باعترافها ، رفعت رأسها فى كبرياء وقالت له أنها لترفض أن تعيش مع قاتل ، ولذلك فانها على أهبة الرحيل ، تاركة كل أملاكها ، مطمئنة النفس الى أنها ما ارتكبت اثما ، وانما فعلت كل ما يمكنها أن تفعله فى سبيل اصلاح الخطأ الذى وقع بغير ارادتها .. ثم قالت له آخر الأمر انها سوف تنطلق مع ابنها الى أعلى الجبل ، حتى يكفر كل مذنب عن ذنبه .. وأردفت أنها تعرف كيف تكفر عن ذنوب الجميع !!

فاهت برتا بهذه الكلمات فى نبرات نبيلة ، وهيئة جليلة ، وقد غاض لونها فأصبح ــ من فرط التأثر ــ فى مثل بياض الثلج .. ثم أخذت بيد طفلها ، وخرجت فى حزن عظيم ، وقد غدت أروع جمالا من « هاجر » حينما غادرت بيت النبى « ابراهيم » .. وبدت فى هيبة الملكات ، حتى لقد ركع كل خدم القصر حين مرت بهم ، خاشعين ، ضارعين اليها بأيد متشابكة على صدورهم ــ ألا تذهب عنهم !

أما « باستارنى » فقد تبعها ذليلا ، خجلا ، باكيا ، ينحى على نفسه باللوم ، ويعرب عن حسرته ويأسه ، كرجل يساق الى المقصلة كى ينال قصاصه عن جريمته ، ويدفع ثمن جريرته .. الا أن المرأة المطعونة القلب أوسعت الخطى ، صامة أذنيها عن كل لما يدور حولها . وأسرعت بمغادرة القلعة ، حتى اذا بلغت حافة الخندق الذى يحيط بأسوار الفناء ، جلست هناك ، فوقف خلفها كل من كان فى القلعة ، يرجونها باكين أن تبقى .. أما زوجها البائس فقد استند بيده على حافة الباب ، وظل ساكنا كتماثيل القديسين الحجرية المنحوتة فى تجاويف جدران الكنائس ! .. **وما لبث أن طرق أذنيه صوت برتا وهى**

تأمر ابنها أن ينفض التراب عن حذائيه ، حتى لا يأخذ معه شيئا يخص ذلك الشيخ الأثيم .. كما راحت ـ بدورها ـ تنفض التراب عن حذائيها ، وهى تشير الى باستارنى قائلة لولدها : ((هذا هو يا بنى قاتل أبيك الذى علمت انه كان ذلك الراهب المسكين .. الشهيد .. على انك حملت اسم هذا الرجل السفاك ، فرد اليه اسمه هنا ، كما تنفض تراب قلعته عن حذاءيك ، أما الغذاء الذى نلته فى القلعة ، فليعاوننا الله على أن نوفيه اليه !))

واذ سمع «باستارنى» هذا القول منها ، عض شفته حسرة وندما ، وأحس ـ فى تلك اللحظة ـ بأنه على استعداد لأن يدع زوجته تستقبل فى مخدعها رهبان دير كامل ، على ألا تهجره ، ويهجره معها فتى لامع ، كان خليقا بأن يغدو فخر بيته وأسرته. وظل المسكين واقفا مستندا رأسه الى الباب !

* * *

• **وفجأة** ، امتلأ قلب « برتا » بعزاء قدسى ، اذ أبصرت بيرق الدير الأعظم يقترب عبر الوادى ، تصحبه تراتيل الكنيسة التى انبعثت وكأنها انغام سماوية . فقد سمع الرهبان بمقتل أخيهم الحبيب ، فأقبلوا فى ذلك الموكب الرهيب ، كى يتسلموا جثمانه .. وما ان وقعت عينا « باستارنى » عليهم ، حتى هرول مسرعا وغادر القلعة الى (برجانديا) ، تاركا كل شىء !

اما « برتا » فقد اتجهت الى (مونتبازون) كى تودع أباها ، وهنالك قالت له أن هذه الكارثة التى أصابتها لن تلبث أن تؤدى الى موتها .. فحاول أقاربها ـ مااستطاعوا ـ أن يسروا عنها ، ولكنهم عجزوا وأحسوا باليأس ازاء حزنها العظيم !

وأهدى السيد ((روهان)) الكهل الى حفيده حلة حرب رائعة ، وكانما شاء ان يحفزه بذلك على ان ينطلق ساعيا الى

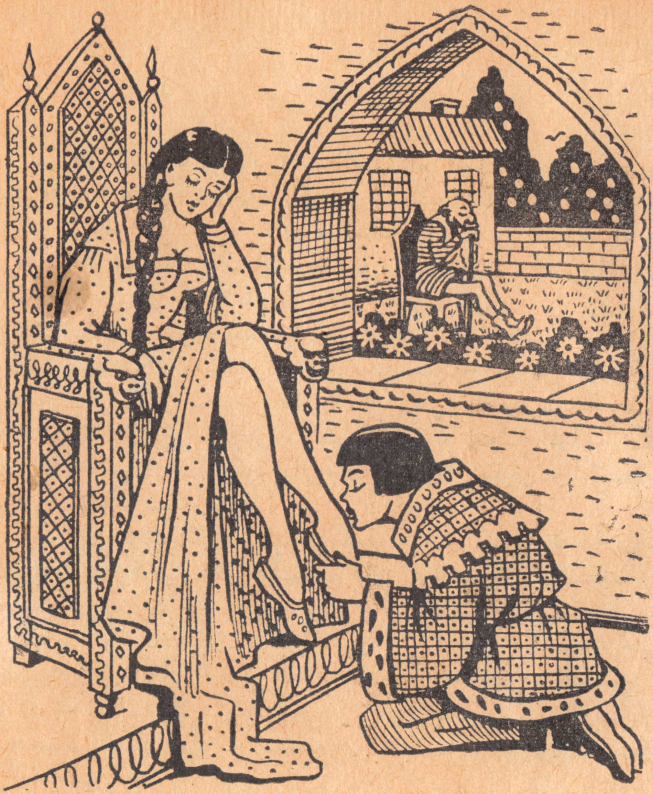
المجد والشرف ، حتى يحيل خطايا أمه الى سمعة مجيدة خالدة .. الا أن « برتا » لم تكن تسعى الى ان تبث فى ذهن ابنها سوى فكرة واحدة ليس من فكرة عداها ، هى التكفير عن الذنب الذى اقترف حتى يتسنى انقاذها وانقاذ جيهان من اللعنة الأبدية !

ومن ثم فقد خرجا كلاهما ، واتجها نحو المناطق التى كانت فى ذلك الحين قد أعلنت العصيان والثورة بزعامة ولى عهد المملكة .. وكانت تلك المناطق ــ كما يعلم الجميع ــ هى المتاخمة لولايتى (أنجوليم) و (بوردو) ، حيث كانت المعارك الكبرى ، والملاحم العنيفة بين المتمردين وقوات الملك على وشك النشوب .. وكانت الموقعة الرئيسية ــ التى حسمت الموقف وانتهت بها الحرب ــ هى التى وقعت بين (روفيك) و (أنجوليم) ، وكان قائد جيش الثوار فيها ، هو «باستارنى» زوج «برتا» .. حتى اذا أحاطت الهزيمة بهذا الجيش ، أدرك الرجل الكهل أن رأسه لا بد أن يكون أول الرؤوس التى يطيح بها الملك ، لأنه كان دائما اليد اليمنى للأمير الثائر

واذ بدأ رجاله يتساقطون ويتقهقرون ، ألفى نفسه محوطا بستة رجال ــ من الأعداء ــ يحاصرونه ويحاولون القبض عليه ، فأدرك أنهم يريدون أن يأخذوه حيا ، حتى يتمكنوا بعد ذلك من أن ينالوا من شرفه وسمعته ، وأن يهدموا دعامة أسرته ، ويصادروا كل أملاكه وثروته .. فما أن أيقن من ذلك حتى فضل أن يموت فى المعركة على أن يعرض للهلاك اسرته واملاكه ــ التى كان يبغى أن يهبها لأبنه ــ ومن ثم فقد دافع عن نفسه كأسد باسل .. واذ سقط ثلاثة منهم قتلى تحت ضربات سيفه البتار ــ رغم تكاثرهم عليه ــ اضطر الباقون الى أن يشنوا هجوما عنيفا ، وقد اعتزموا ــ فى هذه المرة ــ قتله .. فما هى الا وهلة حتى كانوا قد أسقطوا اثنين من أتباعه ، وواحدا من خدمه

وفيما كان الرجل فى هذا الخطر العظيم ، اذا بفارس يحمل شعار أسرة «روهان» يشق الصفوف فجأة ، وينقض كالصاعقة على المهاجمين ، فيقتل اثنين منهم — فى الحال — وهو يصرخ قائلا : « لينقذ الله باستارنى » .. أما الرجل الثالث — الذى بقى من الأعداء — فما أن رأى هذا الفارس قد ضيق عليه الخناق ، وكاد أن يلحقه بزملائه ، حتى كف عن مهاجمة القائد الشيخ ، واستدار الى الشاب الباسل وطعنه بالخنجر خلال شق فى درعه .. فلما رأى « باستارنى » ذلك ، انقض على المعتدى بسيفه فقضى عليه فى الحال ، ثم أمسك بالفارس ورفعه على جواده ، وانطلق به الى قلعة (روشف كولد) ، فبلغها تحت جنح الليل !

وفى القاعة الكبرى بالقلعة ، وجد « برتا دو روهان » ، التى كانت قد دبرت كل ذلك من أجله . فلما أزاح الخوذة عن وجه منقذه ، وجد انه ابن جيهان ، الذى لم يلبث ان قضى نحبه ، بعد أن قبل أمه قائلا لها بصوت يمتزج فيه الاعياء بالكبرياء : « يا امى ، لقد دفعنا الدين الذى ندين له به ! » .. فلما سمعت « برتا » هذه الكلمات ، عانقت جثمان ابنها الحبيب ، وضمته الى قلبها ، فلم تنفصل عنه بعد ذلك أبدا .. اذ ماتت فى عنفوان الحزن عليه ، دون أن تستمع أو تكترث لضراعة « باستارنى » وندمه .. فلم يلبث ذلك الشيخ البائس أن مات — هو الآخر — لفرط الحزن والأسى .. رحمهم الله جميعا ! !



الخطيئة المغتفرة!

• كان السيد «بروين» – الذى أتم قلعة (روش كوربون ليفوفرى) ، على شاطىء (اللوار) – متمردا فى صباه ، كما كان نزاعا الى غواية النساء – فى شبابه – لا يأتى البيوت الا من نوافذها ، سالكا سلوك الشيطان فى كل شىء .. حتى اذا أنعم الملك عليه – فى تلك الأيام – بلقب «بارون دى روش كوربون»، ازداد ايغالا فى حياته هذه معربدا مجنونا ، حتى صرف كل ما فى جعبته ، واستنزف كل قوى شبابه . ومن ثم وجد نفسه آخر الأمر – وهو ما زال فى زهرة العمر – مفلسا ، وضيع الشأن بين الرجال ، منبوذا من مجتمعه المهذب ، فلم يعد له من الأصدقاء والرفاق سوى النهابين والسلابين والقراصنة واللمباردبين !

ولما رأى ذلك أسقف دير (مارموتييه) المجاور لقلعة روش كوربون – وكان رجلا حكيما – قال له ناصحا ، ان الساعة قد حانت كى يثوب الى وعيه ، ويتوب الى الله عن شروره وغروره وغيه .. ونصحه بان ينطلق لفوره الى أرض (الشام) حيث يساهم فى انقاذ الاماكن المقدسة من يد الغزاة المسلمين . وأكد له انه – ولا شك – سيعود من رحلته – الى (تورين) – محملا بالمال .. او يذهب الى الجنة ، مثوى الشهداء والقديسين !!

وأعجب السيد «بروين» بهذه الفكرة الرائعة ، التى جادت بها قريحة الأسقف العظيم .. فما اسرع ما غادر البلاد مزودا بالمعدات من الدير ، وبالبركات من الأسقف .. **وانطلق ينهب كثيرا من مدن آسيا وافريقيا منقضا على المارقين دون ما انذار، مسلطا الحمم على العرب واليونانيين والانجليز وسواهم ، غير حافل بما اذا كانوا أصدقاء أو أعداء ، اذ لم يكن الفضول والتحرى من شيمه ، وما سأل يوما عن قوم الا بعد أن يكون**

قد قضى عليهم . وهكذا طارت شهرته فى هذا الميدان ـ الذى كان مما يرضى عنه الرب والملك و ((بروين)) نفســه ـ وذاع صيته كبطل متدين ، وفارس مغوار .. وأطلق لنفسه العنان، فى تلك البلاد الواقعة وراء البحار ، حيث كان يؤثر أن يغدق المال على الفتيات دون الفقراء رغم انه كان يقابل من الفقراء اضعاف ما كان يلاقى من الحسان ! .. ولكنه لم يكن يحفل بالحسن ، اذا ما أراد النساء !

وبعد ان ارتوى من دماء أهل الشام ، وأثقل بالغنائم وغيرها من بركات الأرض المقدسة ، عاد ـ لدهشة الناس ـ مثقلا بالذهب والاحجار الكريمة ، على النقيض من الكثيرين الذين ذهبوا اغنياء ، وعادوا مثقلين بالجذام ، وقد خلا وفاضهم من الذهب !

* * *

. **وما ان** وصل « بروين » ـ عن طريق تونس ـ حتى أنعم عليه مولانا الملك « فيليب » بلقب « كونت » ، وجعله نائبا له فى مدينتنا وفى مدينة (بواتو) .. وبهذا أصبح حسن السمعة ، محبوبا ، لا سيما حين أضاف الى كريم خصاله ، تشييد كنيسة (كارم ديسكول) ، فى ابروشية (أجرينيول) . وبهذا كفر عن حماقات شبابه ، ونال رضى الكنيسة ، وتاب الى الله .. وتحول من شاب شرير ، طائش ، الى رجل طيب القلب حكيم ، يحسن تكتم فساده وملاذه .. نادرا ما يغضب، اللهم الا اذا جدف امرؤ فى حق الله أمامه ، فهذا ما لم يكن يحتمله ، لأنه ـ فى شبابه ـ كان قد جدف بما يغنى كل امرىء سواه عن التجديف !

وقصارى القول انه لم يعد يتشاجر قط ، لأن الناس كانوا يسلمون له ، وينزلون عند رأيه فورا ! .. فرأى ـ بحق ـ كل رغباته تتحقق ، وهى رغبات كانت كفيلة بأن تحيل أى شيطان

الى ملاك وادع .. واصبحت له - الى جانب ذلك - قلعة شاهقة سامقة ، محلاة بالتماثيل ، مزدانة باللوحات والرسوم ، شيدت على الطراز الاسبانى ، وانتصبت على احدى الضفاف ، بينما استلقت صورتها على صفحة نهر (اللوار) .. وقد فرشت قاعاتها بالابسطة الملكية ، والاثاث ، والتحف والزينات الشرقية ، والمبتدعات التى كانت موضع الدهشة والاعجاب من أهل (تور) ، بل والاساقفة ورجال كنيسة « سان مارتان » التى منحها راية موشاة بالذهب !

وكانت القلعة محوطة بالاراضى الزراعية الغنية ، وطواحين الهواء ، والغابات التى كانت تدر كل أنواع المحصولات . ومن ثم فانها كانت مركز أقوى أمراء المقاطعة ، وكان من السهل أن تحشد ألف جندى ، ليحاربوا فى سبيل مولانا الملك . ومع ذلك فقد اشتهر « بروين » بالحلم والرحمة .. **فلو أن قواسه - الذى كان معروفا بشغفه بشنق الرجال - جاءه قابضا على فلاح مسكين لارتكابه احدى المخالفات ، لقال له السيد باسما: « دع الرجل يذهب يابريديف .. فقد عفونا عنه كفارة عن أولئك الذين ذبحناهم - فى رعونة - عبر البحار ! .. الا أنه فى أحيان كثيرة كان يأمره بأن يشنق أحد المذنبين كى تأخذ العدالة مجراها ، ومن ثم كان أهل أراضيه وادعين ، يحترمون النظام ، مطمئنين الى أنه يحميهم من اللصوص ، والمتشردين والمعتدين .. اذ انه لم يكن يفلت واحدا من هؤلاء ، لأن تجاربه علمته مدى الأذى الذى يصيب الناس من هؤلاء الملاعين ! ..**

وفيما عدا ذلك كان السيد « بروين » تقيا ونقيا ، ينجز كل أعماله فى سرعة ونشاط واغتباط ، ويقبل على صلواته وابتهالاته ، كما يقبل على احتساء النبيذ الجيد الذى كان يحلو له أن يعب منه فى كل امسياته .. وكان يعطف على المساكين والمعوزين ، ويتناول غذاءه فى كثير من الاحيان معهم ، ليسرى عنهم ويدخل السلام والسكينة فى قلوبهم .. وكان يعتبر أولئك الذين ذبحهم

فى الأرض المقدسة أبرارا اذ نالوا عقابهم الكافى بازهاق أرواحهم الا أنه كان يضطهد اليهود ويضمر لهم الكراهية والبغضاء ، وخاصة أولئك الذين كانوا يزاولون منهم الربا . فكانت خطته معهم ان يدعهم يجمعون الغنائم من ضحاياهم ، كما يمتص النحل الشهد ، قائلا انهم أفضل جباة للضرائب .. ثم لا يلبث بعد ذلك أن يسلبهم ما جمعوا .. على أنه لم يكن يفعل ذلك الا لمصلحة الكنيسة ، والملك ، ونفسه !!

ولقد أكسبته روحه المرحة هذه ، محبة كل الناس – كبيرهم وصغيرهم – واسبغت عليه كامل اجلالهم وتقديرهم .. فاذا عاد باسم الوجه من دار المحكمة – حيث كان يقضى بين الناس – هش فى وجهه أسقف (مارموتييه) ، الذى كان كهلا مثله ، قائلا : « ها ! ها ! ايها السيد لا بد ان ثمة ضحايا للمشنقة ، مادمت تضحك هكذا ! » .. وكان اذا اقبل من (روش كوربون) الى (تور) مارا على صهوة جواده بضاحية (سان سيمفوريان) أشارت الفتيات اليه قائلات : « هذا يوم العدالة ، وها هوذا السيد الطيب بروين ! .. » .. ثم ينظرن اليه فى جرأة ، وهو يمتطى جواده الضخم الابيض ، الذى كان قد أتى به معه من الشرق الادنى .. حتى اذا بلغ القنطرة الممتدة عبر النهر، توقف الاولاد الصغار عن لعب الكرة ، ثم يلوحون له قائلين فى مرح : « طاب يومك ايها السيد نائب الملك » ، فيجيبهم مداعبا : « متعوا أنفسكم يا أولادى ، لأننى بعد قليل سأصدر امرى بضربكم بالسياط ! »

***

• **وهكذا** جعل المدينة ترفل فى طمأنينة وسلام ، وقد طهرها من اللصوص ، حتى لم يعد منهم – خلال عام الفيضان العظيم لنهر اللوار – سوى الاثنين وعشرين أثيما شنقوا فى فصل الشتاء ، وغير يهودى واحد احرق فى ميدان (شاتونيف)،

لانه سرق اناء مقدسا من آنية الكنيسة !!

وفى ذات يوم من ايام الحصاد ـ فى السنة التالية ـ جاء بعض المراكشيين ، والبوهيميين والفجر الهائمين على وجوههم فى وديان الارض ، وسرقوا بعض أوان أخرى من كنيسة (سان مارتان) .. **وفى المكان الذى كان يقوم فيه تمثال السيدة العذراء، تركوا ثمة فتاة أثيمة ، عريانة ، من بهلواناتهم ، يريدون بها التهكم على عقيدتنا .. ومن أجل هذه الجريمة ـ التى لاسبيل الى وصفها ـ صدر القرار من الملك والشعب ورجال الكنيسة مجتمعين ، بأن تحرق الفتاة الغجرية فى الساحة القريبة من النافورة التى كانت تتوسط أحياء المدينة .. الا أن الرجل الطيب «بروين» أوضح للجميع ـ فى لباقة وقوة اقناع ـ أنه من الادعى لرضاء الله وسروره ، أن تجتذب هذه النفس للديانة المسيحية .. واذا كان الشيطان مقيما فى هذا الجسد الانثوى، فلن تجدى أكوام الحطب الملتهب فى احراقه !**

وفكر كبير الاساقفة مليا ، فوجد أن هذا الرأى اقرب الى الروح الكنسية ، وأكثر مطابقة لسماحة العقيدة المسيحية ، وتعاليم الانجيل .. الا أن سيدات المدينة ، وأصحاب الجاه فيها ، جاهروا علانية بأن هذا التصرف يحرمهم من متعة احتفال بديع كانوا يأملون اقامته لاحراق الفتاة .. فأجابهم السيد «بروين» بأن ثمة احتفالا رائعا ـ من نوع آخر ـ سيقام اذا وهبت الغجرية نفسها للديانة المسيحية ، وانه سيأخذ على عاتقه أن يكون هذا الاحتفال محوطا بفخامة ملكية ، وانه ـ كسفير للبلاط فى المدينة ـ سوف يكون عراب (اشبين) الفتاة فى هيكل المعمودية ، وسيجعل من احدى العذارى زميلة له فى هذا الامر، ارضاء للعناية الالهية !

ولم تتردد الغجرية طويلا ، فى الاختيار بين أكوام الحطب الملتهب ، وماء المعمودية ، ففضلت ـ عن طيب خاطر ـ ان تكون مسيحية وتبقى على قيد الحياة ، على أن تكون غجرية

وتحرق ! .. ورغبة فى التأكد من اخلاصها فى اعتناق العقيدة الكاثوليكية ، وضعت فى ديرالراهبات ، بالقرب من (شادونيريه) حيث تلقت سر العماد !

* * *

• وأقيم الاحتفال فى جناح كبير الاساقفة .. حيث اقبل سادة (تورين) وسيداتها يرقصون ، ويمرحون ، ويفرحون ، اكراما لمنقذ البشرية . فانأهل هذه المدينةاكثر مرحا وأفراحا، واقبالا على الاكل والغزل ، وافتنانا فىالاحتفالبالاعيادوالمواسم، من أهل أى مكان آخر فى الارض ..

أما «نائب الملك» الكهل الطيب ، فقد اختار عذراء طاهرة ، لتكون زميلته فى حفل العماد ، هى ابنة الكونت « دى آزى لوريديل » ، التى أصبحت تدعى ـ فيما بعد ـ «آزيلو بريزليه» .. وكان والد هذه العذراء من فرسان الحملة الصليبية ، وقد اضطرت قوات الحملة الى ان تتركه ـ عند مشارف مدينة (عكا) ـ فى يد قائد عربى اسره اثناء القتال ، وأبى تسليمه الا فى نظير فدية باهظة جدا ، لأنه كان من كبار القادة ! .. **فاضطرت زوجته الى ان تقدم كل املاكه ضمانا لدفع الفدية المطلوبة عنه .. ومن ثم فقد بقيت فى انتظار عودة زوجها ،بلا درهم واحد، تقيمفىمنزل متواضعمن منازلالمدينة، بغير مقعد تجلس عليه أو غطاء تلتحف به .. الا أنها ظلت مع ذلك محتفظة بكبريائها كملكة سبأ ، وبشجاعتها كحارسشديد المراس يدافع عن سيده !**

واذ رأى « نائب الملك » الطيب القلب محنة السيدة ، ذهب فى لطف اليها ملتمسا ان تكون ابنتها عرابة للفتاة الغجرية فى حفل عمادها ، حتى يتخذ من ذلك وسيلة الى مساعدةالسيدة الباسلة ومد يد المعونة اليها بوسيلة لا تحرجها او تجرح كبرياءها .. والواقع أنه كان يحتفظ بسلسلة ثقيلة من الذهب

ـ كان قد استولى عليها أثناء اشتراكه فى الغارة على (قبرص) اثناء الحرب الصليبية ـ فقرر ان يطوق بها جيد العـذراء الصغيرة التى ستكون زميلته فى حفل عماد الغجرية .. وفعلا ، أحاط بهذه السلسلة جيـدها .. الا انه علق معها ـ فى ذات الوقت ـ كل املاكه ، وامواله ، وخيوله ، وجواهره ، واعوامه الثمانين .. وبالجملة لقد ترك هنالك كل شىء يملكه ، بمجرد أن رأى «بلانش آزى» ترقص بين سيدات (تور) !!

ومع ان ألفتاة الغجرية شاءت ان تبهر القوم ـ فى آخر أيام حريتها ـ فأبدعت فى الرقص ، وادهشت الجميع برقصاتها ورشاقة خطواتها وخفة وثباتها وروعة لفتاتها .. مع ذلك كله، فان «بلانش» فاقتها ـ باجماع آراء القوم ـ برقصاتها الرقيقة المحتشمة !

وهكذا خلبت هذه الصبية لب الشيخ الصالح ((بروين)) ، وهى تنقل أصابع قدميها الدقيقتين فى استحيـــاء وتردد ، ينسجمان مع أعوامها السبعة عشر .. وألهبت رغبة عاتية .. رغبة بعثت النار فى كيانه ، من اخمص قدميه الى آخر فقرة من فقرات عنقه .. أما رأسه فكان ـ لكثرة ما تراكم عليه من الثلج الابيض ـ لاتنفذ اليه نار الحب .

وأحس الرجل ـ فى تلك اللحظة ـ بحاجته الى زوجة تعمر بيته ، فقد بدا له البيت موحشا ، كما لم يبد من قبل . وقفز الى ذهنه ـ لاول مرة ـ ذلك السؤال الخطير : « ماذا يكون قصر بدون سمير ؟ » .. وجملة القول انه ادرك فى ذلك اليوم المبارك ، أن الزوجة هى الشىء الوحيد الذى تبقى فى الحياة ليشتهيه ، ويقتنيه .. وعلى ذلك فقد اتجهت رغبتـــه لان يتخذ هذه الزوجة فى الحال ! !

ولم يفكر ـ خلال حفلة العماد ـ فى الثمانين عاما التى كانت تجلل هامته ، فقد راحت زميلته الصغيرة ـ منتصحة فى ذلك بتوجيهات امها ـ تتحفه بالنظرات المرحة ، والايماءات اللطيفة،

معتقدة انه ما من خطر يمكن ان يهددها من كهل طاعن كهذا ، حتى لقد سمحت له فى براءة وبهجة اول الامر ان يقبل يدها ، ثم ان يلثم ، بعد ذلك ، عنقها او ــ ان شئت الدقة ــ تحت العنق بقليل .. على ماقرر الاسقف الذى قام بعقد زواجهما فى الاسبوع التالى !

* * *

• **وكان** حفل الزفاف ضخما فخما ، لم تشهد مدينتنا الجميلة ــ فى كل تاريخها المجيد ــ ابدع منه ولا أروع ! .. فقد تجلت العروس ، فى ثوب عرسها ، حسناء هيفاء ،لاتدانيها ــ فى سحرها وفتنتها ــ فتاة اخرى فى (تورين) .. **وكانت تفوق كل عذراء فى براءة الفكر ، وطهر الانوثة ، حتى انها كانت تجهل كل الجهل ما هو الحب .. وماذا يفعل المحبون ..ولماذا يفعلون مايفعلون ؟ ! .. وكانت تعتقد ان الآباء يعثرون على الاطفال فى حقول الحنطة !**

كانت زهرة جميلة .. وغادة مرحة ، بريئة ، لم يمسسها سوء .. بل كانت ملاكا ليس ينقصه الا جناحان كى يطير الى الفردوس !!

وعندما غادرت المنزل المتواضع ــ الذى كانت تقطنه امها الدامعة العينين ــ كى يعقد قرانها فى كاتدرائية القديسين جاتيين وموريس ، احتشد أهل المدينة كلها كى يمتعوا أعينهم برؤية العروس الجميلة وهى تخطر فوق الابسطة التى فرشت على طول شارع (لاسيليرى) .. فما ان وقعت أبصارهم عليها حتى هتفوا فى عجب واعجاب ، فما حدث قط ان وطأت قدمان ــ اكثر من قدميها رقة ــ ارض (تورين) ، ولا ان رنت عينان ــ اكثر من عينيها فتنة ــ نحو سمائها .. ولا رأت هذه المدينة ، فى يوم من الأيام ، أبهى جمالا من هذا الاحتفال الذى فرشت له الشوارع بالأبسطة والزهور .

اما البنات الصغيرات فى (سان مارتان) ، و (شاتونوف) ،

فقد رحن يحسدنها على ضفائر شعرها الطويل الجميل، وثوبها الموشى بالذهب ، والأحجار الكريمة النادرة ، والماسات البيضاء، والسلاسل الذهبية التى كانت الحبيبة الصغيرة المحبوبة تعبث بها ، والتى ربطتها – الى الأبد – بالرجل الطيب «بروين» ! ..

وكان هذا المحارب الكهل ، يترنح طربا ، وهو الى جانب عروسه، وكأنما اسكرته دنان من الخمر .. وقد طفرت السعادة من عينيه ، وخلال تجاعيد وجهه ، وفى حركاته ! .. ورغم انه كان بالكاد يقوى على أن ينصب قامته ، فأنه بدا فى تلك الساعة – وهو الى جوار بلانش – مرفوع الهامة ، حتى لتحسبه جنديا يقف فى استعراض ، تحت بصر ضابطه .. وقد وضع يده على صدره ، وكأنما كانت السعادة تخنق أنفاسه !

وبعد الاحتفال ، تلقت أم العروس مبلغا كبيرا من المال ، مكنها من أن ترحل فى الحال الى حيث كان زوجها الاسير فى (عكا) ، تصحبها فرقة كاملة من الجنود التابعين للكونت دى روش كوربون .. فانطلقت فى ذات يوم الزواج ، بعد ان أسلمت ابنتها الى « نائب الملك » الطيب القلب ، راجية اياه أن يحسن معاملتها .. ولم يمض وقت طويل حتى عادت ومعها زوجها ، الذى كان الجذام قد أصابه ، فما فتئت تعالجه وترعاه بنفسها – فى أناة وصبر – غير مكترثة بخطر العدوى ، مما أكسبها كل تقدير ..

* * *

• **وما ان** انتهت افراح الزفاف – التى استمرت ثلاثة ايام – حتى اصطحب السيد « بروين » عروسه الصغيرة الفاتنة ، فى موكب رائع الى قلعته .. وجريا على عادة الازواج فى ليلة الزفاف ، رفعها بين ذراعيه وأرقدها فى دعة فى سريره ، الذى كان أسقف (مارموتييه) قد باركه .. ثم جاء واستلقى الى جانبها فوق الفراش الفخم الوثير !

وهكذا وجد نفسه أخيرا ـ بعد أن تعطر من قمة رأسه الى أخمص قدميه ـ مع العروس الجميلة ، جنبا الى جنب . فقبل جبينها ، ثم صدرها البض . وكان هذا أقصى ما أقدم عليه !.. فبالرغم من أنه كان قد انعش نفسه بمقدار واف من نبيذ الزواج ـ الذى كان قد وضع بالقرب منهما ، فى كأس ذهبية ، بعد أن باركه الاسقف ، حسب العادة ـ الا أن الخمر، وان كانت قد أدفأت أمعاءه ، عجزت عن ان تبعث أية حرارة أو حياة فى روحه الخامدة ، او حيويته الخابية .. فما لبث أن أراح رأسه وتهيأ لينام ، فى هدوء وسلام !

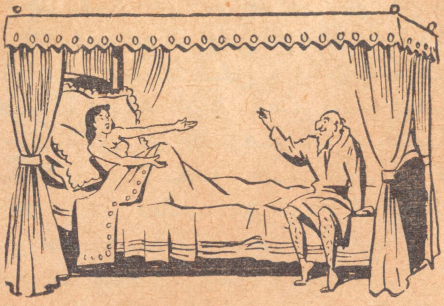
اما بلانش ، فلم تطف بها أية دهشة من مسلك زوجها ، اذ كانت عذراء فى تفكيرها ، كما كانت عذراء فى طبيعتها وتكوينها .. فلم تكن تفهم للزواج معنى آخر ، الا انه الملابس والولائم والخيول والرحلات .. وأن تكون سيدة بيتها ، فتصدر الاوامر الى الخدم والاتباع ، وتستمتع بكل ما يتاح لها من نعيم !

لذلك فانها راحت تعبث ـ كالطفلة ـ بأشرطة السرير الذهبية ، وتعجب ببذخ المخدع الذى كان عليها ان تودع فيه براءتها . واذ أستشعر الزوج عجزه راح يرجو الخير فى المستقبل وأخذ يعوضها بمختلف الطرق ، ويمنيها بالوعود والآمال .. وفى غمرة الاعجاب البرىء برجلها ، رفعت رأسها عن الوسادة ، وراحت تبتسم .. **ورأى الرجل الماكر ـ الذى لم يألف العذارى ، ولكنه عرف بالخبرة ، الالاعيب التى يحذقنها ـ انها بدأت تعابثه ، فخشى تلك اللمسات الرقيقة ، والقبلات الخفيفة .. فتباعد الى حافة السرير ، وقال لعروسه: «حسنا ياحبيبتى، ها قد أصبحت زوجة لنائب الملك ! »**

فقالت : « أوه ، كلا ! » .. وهتف فى جزع عظيم : « كيف كلا ؟ . ألست الآن زوجة ؟ »

فقالت : **« لا .. لن أكون زوجة ، الا اذا كان لى ولد ! »**

وهتف الكهل وقد ازداد جزعه : « الم ترى وأنت قادمة



الى هنا الحقول المترامية ؟ » .. فأجابته : «أجل ، رأيتها» .. فقال : « انها الآن ملك لك ! » .. وهنا قالت ضاحكة : « أوه ! أوه ! لسوف أتسلى بصيد الفراشات فيها ! » . فقال : «انت اذن فتاة طيبة .. وهل رايت الغابات ؟ » .. واجابت الفتاة : « آه ! لست أحب أن أكون هناك وحدى ، وسيكون عليك أن ترافقنى اليها ، ولكن .. أعطنى قليلا من هذا الشراب الذى فى الكأس ! »

واذ ذاك اشتداضطراب الشيخ وقال لها : «ولماذا ياحبيبتى؟ أنه لسوف يشعل النار فى جسدك ! » فأجابتـه وهى تعض على شفتيها : « أوه ! انهذا ما ابتغيه ، لاننىأشتهى أن أعطيك طفلا فى أقرب وقت . واعتقد أن هذا الشراب مفيد لهـــذا الغرض ! »

وضحك نائب الملك ، وقد أيقن ان زوجته عذراء من رأسها الى قدمها ، وقال لها :«آه ،ياصغيرتى .. ان ارادةالله ضرورية لذلك .. ولابد للنساء من أن يتهيأن بشكل خاص لتلقى النتـــاج » .. فسألته باسمـــة : « ومتى سأكون فى حالة استعداد ؟ » .. فأجاب وهو يغالب الضحك : « حينما تريد

الطبيعة ذلك » .. وعادت تسأله : « وما الذى ينبغى ان نفعل من أجل هذا ؟ »

وقال الكهل مجيبا : « أوه ! انها لعملية عضوية كيماوية فى منتهى الخطورة ! » .. فقالت ، بنظرة حالمة : «آه ! ذلك اذن هو السبب فى أن امى بكت حينما فكرت فى هذا الامر .. ولكن برتا دو بروليه – التى تعيش مسرورة جدا بزواجها – قالت لى ان هذا اسهل شىء فى العالم » . فأجابها السيد العجوز قائلا : « ان هذا ياعزيزتى يتوقف على السن .. ولكن قولى لى ، هل رأيت – فى حظيرة الخيل – تلك الفرس الجميلة البيضاء ، الزائعة الصيت فى تورين ؟ » .

– نعم ، انها حقا غاية فى اللطف والبهاء !

– حسن اذن ، سأهبك اياها ، ولك ان تذهبى بها أين شئت ..

فضحكت قائلة : « أوه ، انك لرقيق جدا .. ولم يكونوا كاذبين حين قالوا لى ذلك عنك !» .. فقال لها مغتبطا : «وفوق ذلك يا حبيبتى ، فان خادم المائدة ، وراعى الكنيسة ، وحارس الخزانة ، وطبيب الماشية ، وحاجب المحكمة ، وحتى قائد الحامية – ذلك السيد مونتسورو – وضباطه ، وجنوده ، وخيله .. كل أولئك رهن اشارتك ، وسيبادرون على الفور الى تنفيذ امرك ، والا فاننى أشنقهم على فروع الاشجار ! »

ولكنها عادت تسأله : « وتلك العملية الخطيرة التى ذكرتها ، هل يمكن اجراؤها حالا ؟» . وهنا أجابها قائلا : «أوه ، كلا!.. على أنه لابد – قبل كل شىء – من ان يكون كل منا فى حالة طهر امام الرب ، والا رزقنا طفلا شريرا مفعما بالخطايا ، وهو أمر ممنوع بمقتضى قوانين الكنيسة .. **وهذا هو السبب فى أن ثمة مجرمين كثيرين فى العالم ، اذ ان آباءهم حين أرادوا انجابهم لم ينتظروا – عندما أرادوا انجابهم – تلك اللحظة التى تكون فيها أرواحهم صافية نقية ، ومن ثم فقد وضع الله**

أرواحا شريرة فى أبنائهم .. اما الاطفال الممتلئون جمالا ونعمة فانهم أولئك الذين يأتون من آباء طاهرين .. ولهذا السبب جرت العادة على أن يبارك الكهنة فراش العروسين فى ليلة زفافهما ، كما فعل أسقف مارموتييه بهذا الفراش .. فهل سبق لك من قبل ان خالفت قوانين الكنيسة ؟ »

فأجابته فى سرعة : « أوه . كلا . لقد تلقيت قبل القداس غفرانا عن كل خطاياى .. وقد ظللت منذ ذلك الحين دون أن أرتكب أتفه خطيئة . » فقال الشيخ الماكر : « انك لمثال الكمال .. وكم أنا مغتبط اذ اتخذتك زوجة لى .. ولكننى ارتكبت خطيئة ، اذ انطلقت فى السباب كما يفعل الكفرة !» .. فسألته قائلة : « ولماذا شتمت ؟ » .. وكان جوابه : «لان فترة الرقص فى الحفلة طالت ، فى حين اننى كنت مشتاقا لأن آخذك الى هنا كى أقبلك ! »

ثم أخذ يديها فى لطف وغمرها بالقبلات ، هامسا فى اذنيها بكلمات الحب العذبة ، التى أفعمت قلبها البرىء بالسرور والرضى . ولما كانت مراسيم الاحتفال قد ارهقتها ، فان النعاس بدأ يغالبها ، فقالت لزوجها : « سأحرص منذ الغد على الا أجعلك ترتكب خطيئة أخرى ! »

* * *

• **وألقت** رأسها البديع على الوسائد مستسلمة للنوم ، تاركة الرجل الفانى مأخوذا بجمالها ، حائر القلب واللب ، يسائل نفسه : كيف يمكنه أن يبقيها على براءتها وطهر فكرها ؟ .. ومع أنه لم يشعر بكثير من التفاؤل ، فان ما انكشف لعينيه فى تلك اللحظة من مفاتن زوجته الصغيرة ، دفعه الى ان يقرر بينه وبين نفسه ان يدافع الى الرمق الاخير عن هذه الدرة المتلألئة ، وان يذود عن ينبوع طهرها ، بذات الحماس الذى زاد به عن أرض فلسطين .. وراح — والدموع فى عينيه — يلثم

جدائل شعرها البديع ، ومقلتيها الناعستين ، وشفتيها الناضجتين .. وكانت لثماته كمرور النسيم الواهن من فرط نعومتها ، خوف أن تصحو فاتنته من نومها .. وكان هذا هو كل محصوله فى ذلك المساء .. وهو ما يفتأ يبكى من كثرة ما تراكم على رأسه الابيض على مر السنين من ثلوج الشتاء !!

٢ - كيف حارب نائب الملك نزوات زوجته الساذجة ؟

• **وفى الايام الاولى** من زواج نائب الملك المسن ، **راح** يختلق الاعذار ، ويخترع الاكاذيب ، ليهرب من الحاح زوجته والحافها فى السؤال والاستفهام عن حقائق الحال فيما يتعلق بالحب ، ورغبتها فى انجاب طفل .. واخذ يتعلل - فى بادىء الامر - بانشغاله بأعماله القضائية ، تاركا اياها وحيدة فريدة فى القصر الكبير .. ثم مالبث بعد ذلك أن أبدى لها انهماكه فى جمع الفلاحين من الاراضى المجاورة ، ليقطفوا الكروم فى حدائقه .. وهكذا راح يلتمس الف سبب تافه ، وفرية ملفقة ، ليعلل غيابه عنها ، وعدم اقترابه منها لتحقيق رغبتها ! .. **فتارة كان يقول لها أن كبار الاشراف لا ينبغى لهم أن يفعلوا كعامة الناس، بل هم ينجبون أطفالهم بتعاويذ خاصة ، يتلوها عرافون خبيرون! .. وتارة أخرى ، كان يقول لها ان الانسان ينبغى أن يمتنع عن انجاب الاولاد فى ايام الأعياد ، لأن فى ذلك خطيئة عظيمة !! ..** وفى بعض المرات ، كان يزعم لها انه مالم يكن الابوان كاملى الطهر ، فان الاولاد الذين يتم صنعهم فى عيد « سان كلير » يولدون فاقدى البصر .. وفى عيد « سان جاتيين » يولدون مصابين بالنقرس .. وفى عيد « سان أجنس » يولدون برؤوس ممسوخة .. وفى عيد « سان روش » يصابون بالطاعون !

وكان يحذرها - أحيانا - قائلا ان أولئك الذين تحمل بهم أمهاتهم فى شهر فبراير ، يولدون مجانين .. وفى مارس يغدون من الفاسقين .. وفى أبريل يعيشون تعساء .. واما سعدا.

الطالع فهم أولئك الذين يأتون فى شهر مايو .. شهر الزهور ، وتفريخ الطيور !

وقصارى القول انه كان يريد ابنه كاملا ، سليما ، جميل الشكل ، رشيق القوام ، رقيق الشمائل والشعور .. ولذلك فلابد ان تتهيأ كل الظروف الملائمة لانجابه .. مهما طالت الايام والشهور !!

وكان — فى أحيان اخرى — ينظر الى بلانش ، مصطنعا أمارات الجد قائلا أن الرجل هو صاحب الحق المطلق فى أن يمنح زوجته طفلا ، فان كانت تزعم انها امرأة فاضلة ، فعليها أن ترضخ لمشيئته وانه فى الواقع يرى ان من الضرورى انتظار عودة أمها الكونتيسة ، حتى تعاونها فى عملية الوضع والنفاس .. لا سيما أنها صغيرة السن ! »

وادركت بلانش — آخر الامر — أن الحاحها يزعجه ويثقل عليه ، وخطر لها انه ربما كان على حق فى ذلك ، لانه طاعن السن ، جم الخبرة والتجارب ، فلم يسعها الا أن تستسلم وتسكت ، والا تفكر مرة اخرى — الا فيما بينها وبين نفسها — فى الطفل الذى كانت تشتهيه ولا تعلم كيف تأتى به .. ومن ثم فانها لم تفتأ تسأل نفسها : **كيف ؟ ! ومتى ؟ ! وأين ؟ !**

وفى ذات مساء حدث بالمصادفة ان تكلم « بروين » عن الاطفال ، بعد ان كان يتجنب الحديث عنهم كما تتجنب القطط الماء .. فقد كان فى تلك الساعة يشكو من فتى كان قد أصدر حكمه عليه فى الصباح ، من أجل جرائم فادحة ارتكبها ، قائلا انه بالتأكيد من نسل اناس محملين بالخطايا المميتة ! .. فقالت بلانش : « **واحسرتاه ! لو انك أعطيتنى ولدا — رغم انك لم تكن فى حالة الطهر الذى تقول ان لا بد منه لانجاب الاولاد — فلن أتوانى عن أن أصلح أى نقص قد يكون فيه ، بحيث تجد فيه بهجتك ومسرتك ! »**

واذ سمع نائب الملك ذلك من زوجته ، تأكد انها واقعة

تحت سلطان رغبة طاغية ، وان الوقت قد حان لكى يبدداوهام براءتها ، ويسيطر على زمامها .. فصاح قائلا : «ماذاياحبيبتى، أتريدين أن تكونى اما ؟ .. وا أسفاه ، فأنك لا تعرفين بعد وظيفة الزوجة ، ولم تألفى ان تكونى سيدة بيت ! »

فقالت : « أوه ، أوه ! هل لابد لى — لكى أكون كونتيسة كاملة ، وفى احضانى طفل صغير — من ان أقوم بدور السيدة العظيمة ؟ .. لسوف افعل ذلك اذن ، وسأفعله على الوجه الأكمل ! »

* * *

• **وهكذا** بدأت زوجة نائب الملك تنطلق الى الغابات لتصيد الايائل والظباء وتعدو على ظهر جوادها عبر الوادى والجبل ، وخلال الاحراش والحقول ، مغتبطة بتأمل النسور وهى تحلق فى السماء .. واثناء تلك الرحلات ، بدأت تكتسب معرفة جديدة بأحوال الطيور — وهى فى فصل التفريخ — وترقبها وهى فى غزلها وعناقها .. كما كانت ترى الحيوانات البرية وهى تطفىء — فى اوقات الحب — لهيب اشواقها .. **فما لبثت ان اكتشفت مع طول التفكير والتامل سر الحب واعجوبته الكيمياوية التى كانت من قبل موضع تساؤلها وحيرتها فيما بينها وبين نفسها .. ومن ثم انعكست على نائب الملك خطته حين أراد أن يخمد الرغبة الدفينة التى كانت تدمدم فى مشاعر زوجته ، فاذا محاولته تهيىء الفرصة لاكتشاف المنفذ لهذه الرغبة ، فما لبثت ان انفجرت فى عنف !**

اذ ذاك وجد السيد الطبيب « بروين » أنه اخطأ خطأ عظيما، اذ سمح لزوجته بالخروج وحدها الى الغابات .. ولكى يرجىء اندحاره الى مابعد موته ، قرر ان يصحبها فى كل رحلاتها .. الا ان المسكين لم يكد يشرع فى تنفيذ عزمه ، حتى الفى نفسه يلاقى مشقة عظيمة فى ملاحقة عروسه الصبية ، وهى منطلقة

على ظهر جوادها .. لا سيما ان الخبيثة كانت تجد متعة فى أن تسبقه فى عدوها ، وهو يجرى خلفها مبهور الانفاس ككلب صيد عجوز !

وفى امسيات كثيرة كانت تتجه رغبتها الى الرقص ، فـلا يجد الرجل الطيب مندوحة من ان يرافقها الى حلباته ، وقد التف من رأسه الى اخمص قدميه فى رداء ثقيل .. وهناك يجد نفسه مضطرا لان يشاركها تلك الحركات العنيفة التى ينهمك فيها الراقصون ، اذ يروحون يلفون ويدورون ، ويقفـزون وينثنون ، ويطوحـــون ايديهم وارجلهم ذات اليمين وذات الشمال .. وبينذاك يجاهد الرجل المسكين اعظم الجهاد فى ان يلتقط انفاسه .. وكان ــ برغم أوجاع المفاصـل ، وتصلب الشرايين ، وتراكم الدهنيات فى بطنه البدين ــ يضطر الى ان يبتسم فى وجه صغيرته الحبيبة . فقد كان يحبها حبا جنونيا، حتى انه ما كان ليتوانى عن ان يأتيها بالمستحيل اذا هى طلبته!

الا أن الرجل الطيب ما لبث أن تبين ــ فى نهاية الامر ــ أنه من العبث مواصلة ذلك الصراع مع رغبة زوجته العنيفـة العارمة ، فلم يسعه الا ان يستسلم ويدع الامور تأخذ مجراها، مطمئنا ــ بعض الشىء ــ الى عفة «بلانش» وتدينها واحتشامها .. وان آلى على نفسه أن لا ينام الا بعين واحدة، فقد كان يحدس ان الله خلق العذارى ، لكى يختطفهن البواشق الطامعون !

* * *

• وفى ذات صباح مطير ، كانت بلانش مســـتلقية على مقعدها ، وقد غرقت فى تفكير عميق ، اذ ثقـل عليها طهرها ورزحت تحت ثقل رغبتها التى لم تـكن تدرى حقيقة كنهها ، فبدت حزينة حائرة ، خائرة القوى خاملة الحيوية على غير عادتها او عهدها .. واذ رآها رجلها الطيب على هذه الحال ، امتلأ قلبه رفقا بها واشفاقا عليها ، فود ان يصرف عنها افكارها

وهمومها ، واقترب منها فى حنان ، قائلا : **« من اين يأتى حزنك يا حبيبتى ؟ »**

فأجابته قائلة : « من الخجل ! »

ـ وماذا اذن يخجلك ؟

فأجابته والدموع فى عينيها : « اننى لست سيدة كباقى السيدات ، لأننى بدون ولد .. فهل ثمة سيدة بلا أولاد ؟!.. انظر الى جاراتى كلهن ، تجد لهن جميعا بنين وبنات .. وانا كذلك قد تزوجت ليكون لى مثلهن ، وتزوجت أنت لتمنحنى أولادا .. ان جميع نبلاء (تورين) قد منحوا زوجاتهم اولادا كثيرين ، وانت وحدك لم تفعل ، ومن ثم فانهم يسخرون منك ! .. ما الذى يحدث ـ بعدك ـ لاسمك ولقبك ومنصبك واملاكك؟ ايذهب كل ذلك هباء؟ .. ثم هانحن نعيش وحيدين، فمن هو الرفيق الطبيعى لنا ؟ .. انه طفل نفرح به ونجعله على الدوام بهجتنا والعوبتنا ، فندلله ، ونهدهده ، ونخلع عنه ثيابه لنلبسه غيرها ، وندغدغه ليضحك .. ونغنى له لينام ، فنسلمه الى سريره ، ثم نرفعه منه لنغذيه .. لكم اشعر باننى كفيلة ـ اذا أوتيت نصف طفل ـ بأن أجعل البيت جنة، وأجعله هو زينتها ! »

فقال لها وقد غاص قلبه بين جنبيه من فرط القنوط : « الا يحدث أن تموت سيدات أثناء انجاب الاطفال ؟ .. والا ترين انك ـ لذلك ـ مازلت غضة الاهاب ، ضعيفة الاحتمال؟.. اما اذا اشتريت طفلا جاهزا ، فانه لن يكبدك الما ولا وجعا ! »

.. بيد انها قالت : **« ولكننى أريد الألم والوجع ، اللذين لن يكون الولد ولدى الا بهما .. فاننى لأعلم جيدا انه ينبغى أن يكون خارجا من جسدى ، اذ طالما سمعتهم فى الكنيسة يقولون أن يسوع هو ثمرة بطن العذراء ! »**

فصاح نائب الملك : « حسنا جدا .. صلى للرب ـ اذن ـ

كى يعطيك ولدا .. وتشفعى لذلك بعذراء اجرينيول ، شفيعة اللائى يطلبن اطفالا »

* * *

• وفى ذات اليوم ، انطلقت العروس الجميلة الى كنيسة العذراء ، وقد تزينت كملكة ، وارتدت ثوبا من المخمل الأخضر ، مطرزا باشرطة ذهبية ، وقد انحسر عن صدرها . ووضعت على رأسها قبعة رائعة مرصعة بالجواهر الكريمة ، ولبست فى قدميها البديعين حذاءين دقيقين رشيقين مزخرفين باللآلىء واليواقيت ، وركبت جوادا أبيض ذا سرج من الحرير الموشى باسلاك الفضة . وتقدم ركبها قائد الحامية السيد « مونت سورو » ، وعيناه تتألقان كعينى الصقر ، وفرسانه من خلفه يتولون حماية الموكب وحراسة الطريق .. حتى اذا بلغوا حدائق (مارموتييه) ، كان نائب الملك قد اغفى لفرط الحر - اذ كان من بواكير أغسطس - فراح الكهل المسكين يترنح فوق سرجه

وتصادف ان كانت ثمة فتاة فلاحة تجلس القرفصاء تحت شجرة وارفة ، وقد راحت تشرب الماء من جرتها . فمالت على عجوز كانت تلتقط الحب المتساقط من الحصادين ، وسألتها عما اذا كانت اميرة الموكب فى طريقها الى دفن ميت من أهلها . فأجابتها الحيزبون قائلة : « كلا .. فهذه سيدتنا الكونتيسة روش كوربون ، زوجة نائب الملك فى يواتو وتورين ، ذاهبة لتضرع الى الرب كى يهبها طفلا » . فضحكت الفتاة واشارت الى الفارس الجميل الذى كان على رأس الموكب ، قائلة : **« بوسع ذلك الذى يسير فى المقدمة ، أن ينيلها بغيتها ، ولتوفر على نفسها النذر والعهد ! »**

وقال أحد المارة فى الطريق : **« بالله انظروا الى السيد مونت سورو .. ان له من الحيوية والرشاقة ما يمكنه من غزو قلب السيدة ، فكأنما خلق لذلك ! »** .

وانفجر من كانوا حوله ضاحكين ، فود السيد مونت سورو أن يذهب اليهم ويشنقهم على فروع الاشجار جزاء سفاهتهم . ولكن « بلانش » ادركته مبادرة صائحة : « كلا ايها السيد لا تشنقهم ، فهم لايعنون ما قالوا . ولسوف تنظر فى امرهم عند عودتنا ! » .

واحمر وجهها خجلا ، فنظر اليها السيد « مونت سورو » فى نهم ، وكأنما كان يغرس فيها وساوس الحب ، ولكن أقوال الفلاحين كانت قد ذهبت بذكائها فعلا ، وجعلت براءتها كالخشب السريع الاشتعال .. فى انتظار كلمة تضرم النار فيه !

.. وهكذا لاحظت الفوارق الشاسعة بين صفات زوجها الفانى ، ومحاسن ذلك الفارس الذى لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، والذى استوى معتدلا على جواده ، متيقظا ـ رغم شدة القيظ ـ بادى الشجاعة والرشاقة !

* * *

• **وهكذا** استرسلت زوجة نائب الملك فى هذه الافكار ، فلم تصل الى جسر (تور) ، حتى كانت قد أحبت ، فى سريرتها ، « جوتييه » ـ وهو اسم هذا الفارس ـ كما تحب العذراء ، اذ تستشعر اضطرابا فى عواطفها ، لا تدرى كنهه .. وتحولت بذلك الى امرأة كاملة ، ترجو الخير للاخرين ، وتشتهى خير ما لدى الرجال .. وتولتها نوبة من داء الحب ، **فاذا النار تدب فى أعماقها ، واذا بها تدرك ـ وان لم تدر كيف ـ ان العينين تستطيعان أن ترسلا تيارا يثير الاختلاج فى عروقها ، والانتفاض فى قلبها ، والرعشة فى أطرافها وجذور شعرها .. ويبعث العرق دافقا ، ويشل يقظة المخ ، ويشيع الاضطراب فى انابيب الحس وقنوات العصارات .. فاذا كل هذه الاجهزة ـ فى كيانها ـ تضطرب ، وتنقبض وتنبسط ، وتدب فيها حرارة ووخز غريب !**

تلك كانت شهوة العذراء .. شهوة قوية السلطان ، فرضت على بصرها غشاوة ، حتى أنها لم تعد تبصر زوجها الكهل ، وان رأت بجلاء ذلك الشاب ((جوتبيه)) ، الذى كان يتألق فى بهاء !

وما ان دخل الموكب مدينة (تور) حتى استيقظ الزوج الطيب على آهات الاستحسان من القوم ، فتقدم فى خيلاء — محوطا بالحاشية — الى كنيسة ((نوتردام دى‌ليجرينول)) . ودلفت ((بلانش)) وحدها الى الهيكل الذى تطلب فيه النساء من الرب والسيدة العذراء ان يرزقاهن أطفالا . فلما أقبل الكاهن الذى يؤدى صلاة طلب الذرية ، ويتلقى العهود والنذور لذلك ، سألته عما اذا كان ثمةعاقرات كثيرات ، فأجابها الكاهن الطيب بأن الاطفال كانوا مصدر دخل عظيم للكنيسة !



فسألته : ((**وهل ترى كثيرا من السيدات الصغيرات السن ، أوتين أزواجا مسنين مثل زوجى ؟ »**

فقال لها : ((نادرا))

— ولكن هل أنجبت هاتيك الصغيرات نسلا ؟

فابتسم الكاهن وقال لها : ((دائما)) ...

— وهل تنجب أولئك اللائى لم يؤتين أزواجا كهولا كزوجى ؟

فأجابها قائلا : « أحيانا » ..

ـ عجبا ! هل يكون انجاب الاطفال مؤكدا من زوج طاعن السن ـ مثل نائب الملك ـ اكثر منه مع زوج شاب ؟

فقال الكاهن : « بالتأكيد ! » .. وعند ذاك سألته : « لماذا ؟ » . فأجاب الكاهن بوقار : « ان الله وحده هو الذى يتدخل فى انجاب الاطفال قبل الشيخوخة .. أما بعدها ، فان الرجال هم الذين يتدخلون ! »

وما ان سمعت بلانش هذه الكلمات من الكاهن الطيب ، حتى نذرت للعذراء كل ما كانت تتزين به ـ فى تلك الساعة ـ من ملابس ومجوهرات .. وكان فى الواقع نذرا عظيما ، لأن زينتها كانت تساوى ألفين من الجنيهات ! !

وفى طريق العودة قال لها نائب الملك ، وقد رآها تقفز بجوادها وتطفر فى مرح : « انى لأراك سعيدة جدا ! »

فقالت مبتسمة : **« نعم . نعم ! فلم يعد بعد أى شك فى أننى سأرزق طفلا ، لأن أى رجل من هؤلاء سيساعدنى فى هذا الامر ، كما أكد الكاهن لى ذلك .. ولسوف أستعين فى ذلك بجوتييه ! »**

واذ ذاك احتقن وجه نائب الملك وود لو يعود الى الكاهن فيذبحه . غير أنه ما لبث أن فكر فى أن هذه جريمة سوف تكلفه كثيرا ، فأضمر فى مكر ودهاء أن يستعين برئيس الاساقفة فى تدبير انتقامه . وقبل أن تبدو أبراج (روش كوربون) فى الأفق ، أصدر أمره الى « جوتييه » ـ قائد حاميته ـ بأن ينطلق الى بلده ، وأن يقيم هناك حتى يأمر بعودته .. فأسرع هذا الى تنفيذ رغبة سيده ، اذ كان على علم بطباعه . وأقام نائب الملك فى مكانه ابن الكونت دى جالانج ، وكان فتى صغيرا ـ اسمه « رينيه » ـ لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره .. فجعله وصيفا له ، ريثما يبلغ السن التى

تؤهله لأن يتولى القيادة ، مسندا الحامية ـ بينداك ـ الى رجل كهل محطم كان يرافقه فى صدر شبابه فى حرب فلسطين .. وبهذا ، اعتقد الرجل الطيب انه تخلص من الفخاخ ذات القرون المنصوبة له .. واطمأن الى قدرته على كبح جماح الرغبة العنيفة المغررة ، التى كانت تهيمن على زوجته الساذجة !

٣ ـ تلك التى ليست سوى خطيئة مغتفرة !

• **وفى** يوم السبت التالى لوصول « رينيه » الى قلعة (روش كوربون) ، خرجت بلانش الى الصيد ، دون أن يرافقها زوجها الطيب ، فلما بلغت الغابة القريبة من (ليكارنو) ، رأت فارسا ينقض على فتاة خلف أيكة وارفة ، فوخزت فرسها بمهمازيها قائلة لأتباعها : « أسرعوا اليه ، ولا تدعوه يقتلها ! » .. بيد أنها لم تكد تقترب منهما ، حتى لوت عنان جوادها بسرعة ، وانطلقت عائدةالى قلعتها ، وقد صدها المشهد ـ الذى رأته ـ عن الصيد . **واستغرقت فى التفكير ، فاذا نوافذ عقلها تنفتح ، لينفذ منها ضوء ساطع ، أظهر ألف شىء بجلاء . وفجأة اكتشفت السر اللذيذ .. سر الحب المكتوب فى كل اللغات ، حتى لغة الزهور والطيور والحيات وكل الحيوانات ! !.. وما ان بلغت مخدعها حتى نادت زوجها وقالت له : « بروين ! لقد خدعتنى ! ان عليك ان تفعل كما فعل فارس ليكارنو مع الفتاة ! ؟ »** .

واذ ذاك أدرك « بروين » أن ساعته الخطيرة قد جاءت ، ونظر الى زوجته والشرر يتطاير من عينيه ، الا أنه كظم شعوره ، وأجابها فى نعومة : « وا أسفاه يا حبيبتى .. عندما اتخذتك زوجة لى ، كان فى قلبى من الحب ، أكثر مما فى جسدى من القوة ، وقد ارتكنت الى سذاجتك وبراءتك .. ان أعظم أحزان حياتى هو أن أجدنى أشعر بكل قواى وطاقتى

محصورة فى قلبى وحده . وهذا الحزن يعمل يوما بعد يوم على التعجيل بموتى ، ولن تلبثى أن تصبحى حرة .. فاصبرى – بالله – حتى أرحل عن هذا العالم ! !.. ان هذا هو الالتماس الأوحد الذى يتقدم به اليك ذلك الذى هو سيدك وله أن يأمرك ، ولكنه لا يرجو – مع ذلك – الا ان يكون خادمك وعبدك ! !.. أستحلفك بالله ألا تخونى شرف شيبتى ، فكم من سادة ذبحوا زوجاتهم فى مثل هذه الظروف ! »

فقالت مذعورة : « واحسرتاه !.. أفتراك ستقتلنى ؟ »

فأجابها الكهل : « كلا . فاننى يا صغيرتى أحبك حبا عظيما .. انك لزهرة عمرى ، وفرحة روحى .. ان محياك الفاتن بهجة ناظرى .. واننى لأحتمل منك كل شىء ، سواء أكان حزنا أو فرحا .. ولسوف أعطيك الحرية الكاملة فى أن تفعلى كل ما تشائين ، على أن لا تحقدى على « بروين » المسكين ، الذى جعل منك سيدة عظيمة ، غنية ، ذات شرف رفيع .. أفلاترين أنك لن تلبثى أن تصبحى أرملة جميلة ؟ !.. ان سعادتك ستخفف من لوعات موتى ! »

وألفى فى عينيه الجافتين دمعة ذرفها ، فسالت على وجهه المغضن ، ثم سقطت على يد « بلانش » التى أحزنها أن تشهد هذا الحب العظيم من زوجها الكهل ، الذى أبدى استعداده لأن يضع نفسه فى جوف الأرض كي يسرها .. فقالت ضاحكة : « رويدك ، رويدك ، لا تبكى ! .. لسوف أصبر ! »

وهنا أشرق وجهه بنور بهجة مفاجئة ، وانحنى على يديها يغمرهما بالقبلات ، وهو يهمهم فى صوت مرتجف من فرط التأثر ، ويتحسسها كالقرد ، بيدين لم يبق منهما سوى عظام : « آه لو علمت يا بلانش ، يا حبيبتى ، كم أوسعك قبلات أثناء نومك ، دون أن أجسر على ايقاظ قطتى ، حتى لا أختق سعادتى بعجزى عن مجاراتها فى الحب ، فأقنع

بأن أعانقها بقلبى ! » . فأجابته فى رفق قائلة له : « آه ، أن لك أن تداعبنى وتعانقنى ، حتى ولو كانت عيناى مفتوحتين ، فان هذا لن يضايقنى فى شىء ! » ..

وعند هذه الكلمات ، نهض الرجل المسكين فتناول الخنجر الصغير – الذى كان موضوعا على المنضدة بجانب الفراش – وأعطاه لها ، قائلا بحرارة : « يا حبيبتى .. بالله اقتلينى .. أو فارحمينى ودعينى أعتقد أنك تحبيننى .. ولو قليلا جدا ! » .. فقالت : « نعم ، نعم .. بل سأحاول أن أحبك كثيرا »

* * *

• **وهكذا** استطاعت هذه الصبية العذراء ، أن تجعل نفسها سيدة ذلك الرجل الكهل ، وأن تسيطر عليه .. لانها باسم الهة الحب والجمال ، وبما وهبت من دهاء المرأة الطبيعى ، جعلت « بروين » الكهل يجىء ويذهب كثور الطاحونة .. فهى لا تفتأ تقول له : « بروين ، اننى أريد هذا !.. بروين ، اننى أريد ذاك !.. بروين !.. بروين ! » .. حتى أصبح رضاؤها أكثر ارهاقا له من قسوتها منه .. وأدارت عقله ، فجعلته يقلب الدنيا رأسا على عقب ، بأقل حركة من حاجبها .. فاذا بدت مهمومة ، شرد ذهن نائب الملك ، وصاح فى كل مذنب ، وهو على كرسى القضاء : « اشنقوه ! » . ولو أن رجلا آخر فى مكانه ، لمات مثل ذبابة من جراء ذلك الصراع الذى كان مستعرا باستمرار بينه وبين طبيعة الصبية الساذجة .. الا أن نائب الملك ، كان حديدى البنية ، فكان هلاكه عسيرا !

وفى ذات مساء ، قلبت بلانش البيت سافله عاليه ، وربكت كل من فيه وما فيه ، قالت لزوجها وهى تستلقى على الفراش : « يا زوجى الطيب ، اننى لأستشعر نزوات

خسيسة تعذبنى .. فهى تثــور فى قلبى ، وتلهب عقلى ، وتحفزنى على ارتكاب أعمال شيطانية .. وفى الليـــل أرانى أحلم بفارس لوكارنو ! »

فأجابهـا نائب الملك : « يا حبيبتى ، ان ثمــة أفكارا شيطانية ، ومغويات يعرف الرهبان والراهبات كيف يذودونها عن أنفسهم ! .. فاذا كنت ترومين الخــلاص ، فاذهبى واعترفى الى جارنا الفاضــل أسقف (مارموتييه) ، فلسوف يمحضك النصح ، ويوجهك الوجهة القدسية ! » فقالت : « غدا سأذهب اليه ! »

وما ان أصبح الصباح ، حتى أسرعت الى دير الرهبان الصالحين ، الذين تولتهم الدهشة اذ رأوا بينهم هــذه الحسناء الفاتنة ، فقادوها بترحاب عظيم الى اسقفهم الموقر .. ووجدته فى حديقتــه الخاصة ، جالســا تحت أريكة وارفة ، خلف الصخرة العظيمة . فغشيها احترام بالغ ، لما كان يبدو عليه من جلال ومهابة ، رغم أنها كانت قد اعتــادت ألا تقيم اعتبــارا كبيرا للشعر الأبيض .. أما هو فقــد قال لها : « فليحفظك الرب يا سيدتى ، ما الذى جئت تنشــدينه لدى رجل قارب الموت ، وأنت فى عنفوان الشباب ؟ »

فأجابته وهى تحييــه فى لطف قائلة : « جئت ألتمس نصيحتك الغالية .. فان راق لك أن تهدى شاة ضــالة ، فسوف يسعدنى أن يتلقى اعترافى حكيم مثلك ! »

فأجابها الكاهن ـ الذى كان « بروين » العجوز قد دبر معه هذه الخطة ، وأفهمه الدور الذى عليه أن يؤديه ـ قائلا لها : « يا ابنتى ، لولم تكن ثلوج مائة عام قد تراكمت فوق رأسى ، لما جرؤت على أن أســتمع الى خطاياك ، فتكلمى .. واذا قدر لك أن تدخلى الى الفردوس ، فيسعدنى أن يكون ذلك على يدى ! »

واذ ذاك أفضت زوجة نائب الملك الى الأسقف بكل ما كان

يمضها ، حتى اذا انتهت من سرد ذنوبها الصغيرة ، دلفت الى بيت القصيد فى اعترافها ، قائلة له : « آه يا أبى ، يجب أن أعترف لك بأننى فى كل يوم ، أقع فريسة الرغبة الجامحة فى أن يكون لى طفل .. فهل فى ذلك خطيئة ؟ »

واذ قال الاسقف : « كلا » ، أردفت قائلة : « ولكن زوجى لا يريد .. » . فأجابها الكاهن : « اذن ، فعليك أن تعيشى فى طهارة تامة ، وأن تقلعى عن كل الأفكار التى من هذا النوع .. »

فقالت له : « **ولكنى سمعت من الكونتيسة دى جالانج ، أنها لا تكون خطيئة ، اذا كان الانسان لا يجنى من ورائها متعة أو لذة ..** »

فقال الاسقف : « ان اللذة موجودة دائما ، فضعى فى ذهنك أنها لخطيئة مميتة أمام الله ، وجريمة خطيرة أمام الناس ، أن تنجب سيدة طفلا من رجل لم تتزوجه زواجا كنسيا .. أما أولئك النسوة اللاتى يرتكبن هذا الجرم – ضد شرائع الزواج المقدسة – فسوف ينلن عقابا عظيما فى العالم الاخر ، ويقعن فريسة وحوش رهيبة تمزقهن بمخالب حادة ، وتلقى بهن فى الجحيم ، عقابا لهن على أنهن أدفأن قلوبهن – فى الحياة الدنيا – أكثر مما كان ينبغى ! »

فقالت الزوجة وقد بدا عليها الأسى :

« **ولكن أليس من الظلم يا أبى ، ألا يكون لى ولد مثل غيرى ؟** »

فأجابها الكاهن قائلا : « تلك ارادة الله .. »

فقالت له : « وهل من ارادة الله أن أموت أو يذهب عقلى ، من جراء ما يحدث لى ؟ .. اننى لأحس بشىء يتحرك فى اعماقى وفى نفسى ، فلا أعود اسيطر على حواسى ، وأشعر بأننى لا أعبأ بشىء ، وانى لعلى استعداد لأن أتخطى الأسوار ، وأهيم دون حياء فى الحقول ، وأنبش الأرض ، كى أجد فارسا

كفارس (لوكارنو) .. وفى خلال هذه النـــوبات وآلامها ، لا أعود أفكر فى رب ، ولا فى شيطان ، ولا فى زوج ، بل أروح أجرى ، وأقتحم الأبواب ، وأحطم الأكواب والأوانى ، وكل شىء ، فى هياج لا سبيل لى الى وصفه .. **ولست أجرؤ على أن أعترف لك بكل أفعالى ، لأن لعابى يسيل لذكرها ، وان يقينى من نقمة الله ليملأ نفسى رعبا . فاذا كان هـذا النزق ينهشنى ويحزننى ، ويذبح تقـــواى ، فهل يقضى الله على بالهلاك ، وهو الذى أودع فى جسدى هذا الحب الجبار ؟ »**

واذ ذاك وجم الأسقف ، وقد ألجم لسانه ذلك التفكير الحكيم ، والمنطق السليم ، والذكاء العارم ، الذى كانت يكمن وراء براءة هذه العذراء .. وما لبث أن قال لها : « يا ابنتى ، لقد ميزنا الله عن البهائم وجعل لنا فردوسا نسعى اليـــه . ولهذا فانه منحنا عقلا ، هو الدفة التى توجهنا ضد العواصف وضد شهواتنا الجامحة .. وهناك وسائل لاخماد الأهواء فى العقول ، وذلك بالصوم ، والانهماك فى العمل ، وغير ذلك من الفضائل .. وبدلا من أن تعبثى وتتصرفى كطفلة أطلقت من قيود المدرسة ، يجب أن تصلى للعذراء ، وأن تنامى على سرير من الخشب الصلب ، وأن تقومى بواجباتك المنزلية ، ولا تدعى نفسك قط بلا عمل ! »

فلما سمعت بلانش هذه الكلمات ، التى قالها الأسقف بحرارة عظيمـــــة ، انهمرت الدموع من عينيها وقالت له : **« آه يا أبى ، اننى حين أكون فى الكنيســـــة ، لا أرى الكاهن أو المذبح ، وانما يتركز بصرى كله فى صورة يسوع الطفل ، فيبعث فى ذهنى فكرة الطفل الذى أشتهيه .. واذا بالرغبة فى الحب ، تراودنى بالرغم منى ! »**

فأجابها الأسقف قائلا : « انك بهذا ــ يا ابنتى ــ فى مثل الوضع الذى كانت عليه القديسة « ليدوار » ، اذ كانت نائمة يوما ، وقد باعدت بين ساقيها لفرط الحر ، فدهمها شاب

شرير وأودع أحشاءها طفلا .. ولما كان الجانى الأثيم قد اعترف — وهو على منصة المشنقة — بأن القديسة لم تشعر قط بما فعل ، بل ظلت جاهلة به ، وحسبت انتفاخ بطنها مرضا خطيرا ، فقد رؤى أن خطيئتها مغتفرة ، لأنها — باعتراف الآثم — لم تستشعر لهذا العمل لذة ! »

فهتفت بلانش قائلة : **« أواه ، يا أبى !.. ثق من أننى لن أتحرك ، اذا قدر لى ما قدر لها ! »**

ثم أسرعت مهرولة الى الخارج فى مرح وفرح عظيم بهذه الفكرة البديعة المبتكرة .. وراحت على الفور تفكر فى الطريقة التى ترتكب بها خطيئة مغتفرة !

* * *

• وفى عودتها من الدير العظيم ، رأت — فى فناء قلعتها — « رينيه » ، الفتى الذى أتى به زوجها ليكون وصيفا له بعد أن أبعد رئيس حرسه « جوتييه » .. وكان الصبى يتدرب على ركوب الخيل ، وقد امتطى جوادا بديعا ، وهو ينحنى فوقه ، ويرتفع وينخفض مع حركاته ، وهو يدفعه الى القفز فى جسارة رائعة ، ومهارة . فهتفت « بلانش » لنفسها : **« آه !.. ليت هذا الوصيف فى الخامسة عشرة .. اذن لذهبت واستغرقت فى النوم قريبا منه ! »**

الا أنها على الرغم من حداثة سن هذا الصبى الفاتن ، فقد راحت — أثناء العشاء — ترنو طويلا الى شعره الفاحم ، وبشرته البيضاء ، وبهاء طلعته ، وعينيه اللتين كانتا تشعان بفيض من الحرارة الجارفة ، وبلهيب الحياة الذى كان — لصغر سنه — لا يجسر على أن يسلطه عليها ؟!

فلما تقدم المساء ، جلست زوجة نائب الملك فى مقعدها الوثير ، مغرقة فى التفكير ، واذ سألها زوجها عما كان يشغلها ، قالت : **« انما أفكر فى أنك ولابد ، قد خضت معارك الحب فى**

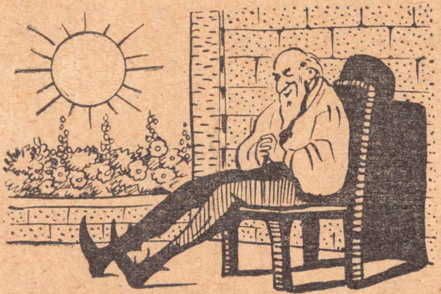
سن جد مبكرة ، مما أدى الى انهيارك بهذه الدرجة ! » ..
فأجاب الشيخ باسما ـ ككل الكهول اذا ما سئلوا عن ذكرياتهم الغرامية ـ قائلا لها : « أوه .. لقد تغلبت على مخاوف وصيفة أمى وأنا فى الثالثة عشرة والنصف من عمرى ! »

ولم تشأ بلانش أن تسمع أكثر من هذا .. فشرد ذهنها ، وقفز فى الحال الى تفكيرها أن بوسع « رينيه » الصغير ـ ما دام الأمر كذلك ـ أن يحذو حذوه . فكادت تطير فرحا ، وراحت ـ فى صمت ـ تستدفىء بنيران رغبتها !

٤ ـ كيف يتسنى الحصول على الطفل المنشود ؟ !

• **لم** يطل بزوجة نائب الملك التفكير فى أسرع وأنجع وسيلة لايقاظ الحب فى قلب الوصيف ، اذ أنها سرعان ما اكتشفت الكمين الطبيعى الذى يقع فيه أكثر الرجال حذرا . فقد اعتاد زوجها الطيب ، أن يهجع فى أشد ساعات النهار قيظا ، جريا على عادة القيلولة ، التى أخذها عن الشرقيين ، ولم يتخل عنها منذ عودته من أرض فلسطين .. وكانت الزوجة الماكرة تخلو ـ فى هذه الاثناء ـ الى نفسها وحيدة ، اذ تعكف الوصيفات والخادمات ـ فى جناحهن ـ على أعمال الحياكة والتطريز ، والغسل ، وما اليها . ومن ثم فقد اختارت « بلانش » هذه الساعة بالذات ، كى تتولى تلقين الوصيف الصبى مبادىء القراءة والصلاة !

وما ان نام نائب الملك ، فى ظهيرة اليوم التالى ـ تحت وطأة الشمس التى راحت تلهب سفوح (روش كوربون) بأشعة من نار ـ حتى استلقت زوجته فى رخاوة ، فى مقعده الضخم الكبير ، اذ أنها لم تجد مقعدا أكثر منه ارتفاعا لتحقيق غايتها . وحرصت الماكرة على أن تتكور كالعصفور فى عشه ، مسندة رأسها الى ذراعها ـ فى خبث ـ كطفل مستغرق فى النعاس . الا أنها مافتئت ـ بين الفينة والأخرى ،



وهى تتظاهر بالنعاس - تفتح عينين زاخرتين بالشوق ، تبتسمان وتختلجان اذ تتصوران - مقدما - اضطراب الفتى الذى لن يلبث أن يجثم عند قدميها ، على قيد قفزة برغوث منها !

ودبرت أمرها ، بحيث أن القابع عند قدميها لا يتمالك - ولو كان قديسا مصوغا من الصخر - الا ان يرسل بصره مع أطراف ثوبها ، كي يملى بصره بابداع الخالق الذى أودع ساقيها أبهى المفاتن .. حتى اذا اطمأنت الى احكام شباكها ، نادت فى لطف : « رينيه ! » . فبادر « رينيه » - الذى كان الى جوار القاعة دائما - ودس رأسه بين ستائر الباب ، وهتف وهو يرفع قبعته التى كانت أقل حمرة من خديه : « ما الذى يروق لسيدتى أن تبغيه ؟ » . فقالت مبهورة الأنفاس ، اذ فتنها الفتى : « تعال هنا ! » .. والحق انه ما من جواهر كانت تحكي عيني « رينيه » بريقا ، ولا شيء يفوق بشرته بياضا ، ولا امرأة تباريه فى تناسق القوام ، حتى لقد أيقنت « بلانش » بأن مباهج الحب خليقة بأن تكون أكثر اشراقا وتألقا ، اذا شعت من هذا الشباب !

ودفعت اليه كتابا ، وهى تقول : « اقرأ لى أدعيات

السيدة العذراء ، لأتبين ماذا كان أستاذك يحسن تعليمك !» ..
وما أن أمسك كتاب الصلوات ، الذى صيغ غلافه من الذهب والفضة ، حتى سألته : « أتظن أن العذراء كانت جميلة ؟ » .. وابتسمت ، فارتبك الفتى ، ورمق بهاء مولاته ، وقال على استحياء : « انها لوحة مرسومة ! »

وشرع يقرأ الأدعيات العذبة المليئة بروح التصوف ، بينما كانت « بلانش » تتظاهر بالانصياع للنعاس ، حتى اذا بلغ الفتى عبارة : « آه يا وردة الغموض أ » ، لم يستطع أن يكذب أذنيه اذ سمعتا السيدة تتنهد . واذ ذاك شرع يغمرها بنظراته ، ويتلذذ بمفاتنها على مهل ، ولم يعد ميالا الى أن ينشد أى نشيد ، اللهم الا نشيد الحب . واشتد وجيب قلبه لفرط سعادته .. وراح « رينيه » يمتع عينيه ، وهو يتصور ألف ثمرة من ثمرات الحب ، حتى لقد سهى من فرط الذهول عن كتابه ، فسقط من بين يديه .. وانتفض الفتى على صوت سقوطه مرتاعا خجولا . الا أنه ، حين التفت سريعا الى سيدته ، ووجد الماكرة لم تبد أى حركة ، اطمأن الى أنها فى نوم عميق .. ووقع بصره على قدمها الرشيقة ، واذا به ـ بدافع غير ارادى ـ يجد نفسه قد مال وطبع قبلة عليها . ورأى أنه قد اغترف ـ بذلك ـ قدرا من السعادة يكفيه ليومه ، فهرع مغادرا الحجرة !

وما ان خلت السيدة الى نفسها ، حتى خشيت أن يطول الوقت ، قبل أن تنال حظها من الفتى ، اذا هى تركته يرتل أمامها الأناشيد . ومن ثم فقد اعتزمت أن ترفع قدمها قليلا ـ فى اليوم التالى ـ عسى أن تهفو المفاتن برشده . وبوسعك أن تتصور مدى اللهفة التى راح الفتى يرتقب بها موعد قراءة التراتيل لمولاته .. **وفى هذه المرة ، تجرأ فترك يده تتحسس البشرة الحريرية ، حتى الركبة . وراح يغمرها بقبلات ناعمة خفيفة ، وهو على استحياء ، ففغمت السيدة ، وهى تحرص**

على أن لا تتحرك . ((آه يا رينيه ، لقد غلبنى النعاس !))

وتوقع الفتى أن يلقى لوما قاسيا ، فغادر الغرفة وجلا ، واذ ذاك غمغمت السيدة : ((يا للعذراء الطاهرة !.. ما أصعب ترويض الصغار !))

وأخذ يتصبب عرقا ، عند ما حان موعد العشاء ، ووقف فى انتظار مولاه ومولاته . وكم كانت دهشته عند ما تلقى من « بلانش » أفسق النظرات وأبعدها عن الحياء ، فاذا بمفعولها يحوله من صبى الى رجل جرىء . وتصادف أن اضطر « بروين » الى أن يبقى فى مكتبه — فى تلك الليلة — زمنا أطول مما اعتاد ، فانطلق الوصيف يسعى الى « بلانش » ، فاذا هى نائمة .. واذ ذاك ، أذاقها أعذب الاحلام ، وأزاح عن صدرها العبء الذى كان يثقلها ، وأتاح لها من لذائذ الهوى ، ما كان يكفى لعذراوين . وما لبثت الماكرة ان شدته الى صدرها وهى تقول : « آه يا رينيه ، لقد أيقظتنى ! »

ومنذ ذلك الحين ، ظل نائب الملك سادرا فى قيلولته الشرقية ، بينما اعتادت زوجته ان تحظى بقيلولة فرنسية !.. ومع كثرة القيلولات ، لم تلبث الزوجة أن شعرت بالكنز الذى منحها اياه « رينيه » ، يكبر فى أحشائها .. فساورها القلق فيما يتعلق بخلاص روحها ، وبالأخطار التى تتهدد صديقها الوصيف الصغير !.

* * *

• وفى ذات يوم مطير كانا يلعبان معا كطفلين صغيرين بريئين ، فقالت بلانش للفتى : «اتدرى يارينيه اننى لا ارتكب — فى مداعباتنا — الا خطايا مغتفرة ، لأننى أكون مستغرقة فى النوم .. أما أنت فانك ترتكب خطايا مميتة ؟ ! » . فهتف : « آه يا سيدتى ، اذن فلن يتسع الجحيم لكل الخاطئين ، اذا كانت هذه خطيئة ؟ ! » ..

فانفجرت ضاحكة ، وقبلت جبينه قائلة له : **« خذ المسألة مأخذ الجد أيها الولد الشرير ، لأنها متعلقة بدخولك الفردوس ، وباجتماعنا معا فيه .. انك لاتدرك ماأريده لك من خير ، وما أريد أن أمنعه عنك من شر ! ! .. ألا تدرى اننى محملة بطفل فى أحشائى ولن يمضى وقت قصير حتى ينكشف أمرى .. فماذا يقول الأسقف ، اذ ذاك ؟ وماذا يقول زوجى ؟.. لسوف يقتلك اذا ثارت ثائرته .. لذلك أنصحك يا صغيرى ، بأن تذهب الى أسقف (مارموتيبيه) ، فتعترف اليه بخطاياك ، وتساله عما يحسن عمله ازاء زوجى ! »**

فقال الوصيف الساذج : « وا أسفاه !.. لو أننى أفضيت اليه بسر مداعباتنا ، لحرم علينا حبنا ! »

فأجابته قائلة : « ليكن !.. فان السعادة فى العالم الاخر هى الأهم والأبقى ! » .. فنظر اليها فى دعة وامتثال ، ثم قال : « حسنا ، سأذهب .. »

وفى صباح اليوم التالى ، انطلق « رينيه » الى الدير الأعظم ، لا لينال خلاص نفسه ، وانما لينقذ سيدته !

٥ ـ كيف انتهى التفكير الى فاجعة أليمة ؟ !

• **ما ان** سمع الأسقف اعتراف الوصيف ، حتى صاح قائلا : « رباه ! لقد ارتكبت غدرا عظيما ، وخنت سيدك . فهل تعرف يا وصيف السوء ، أنك ستلقى فى النار ـ الى الأبد ـ من أجل هذا ؟ وهل علمت أنه من أجل لحظة لذة زائلة ـ على هذه الأرض ـ قد فقدت فردوس السماء ؟ !.. فيالك من تعس ؟ اننى لأراك الان غارقا أبدا فى حفر الجحيم ، ما لم تدفع فى دنياك ، ما تدين به لله من جراء هذا الاثم ! »

وهكذا راح الأسقف الصالح ـ الذى جبل من عجينة القديسين ، والذى كان عظيم السلطان فى اقليم (تورين) ـ يبث الرعب فى نفس الفتى بما كان يصوره له من عذاب ،

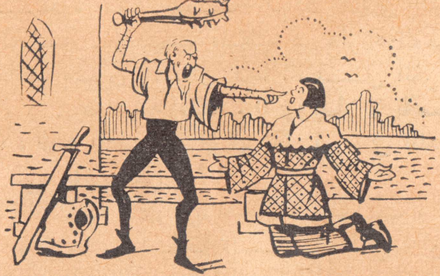
ومن تعاليم الدين ، ومن نذر الكنيسة ووصاياها .. فساق له من بليغ القول قدر ما يحتاج ابليس الى أن يقوله فى ستة أيام لاغراء عذراء .. حتى أذعن « رينيه » الساذج للأسقف الطيب ، الذى أمره بأن يذهب – أولا – فيرتمى على قدمى سيده ، ويعترف اليه بخطيئته ، فاذا نجا من غضبه ، فليرحل فى حملة صليبية ، وليقصد الأرض المقدسة لفوره ، فيبقى فيها خمسة عشر عاما ، منصرفا الى الجهاد !

وعاد « رينيه » المسكين – مثقل النفس بالندم ، فكان أول من لاقاه هو نائب الملك ، وقد راح يصقل أسلحته ، وخوذاته ، وقفازاته ، وكل مهمات الحرب . فلما جثا « رينيه » أمامه ، دهش السيد الطيب ، وسأله عما به ، فأجابه رينيه : «يامولاى ، مر الموجودين هنا بأن ينسحبوا »

فلما أصبحا على انفراد ، راح الوصيف يعترف لسيده بالخطيئة التى اقترفها ، راويا له كيف دهم سيدته وهى نائمة ، واودع احشاءها طفلا .. وكيف امرته سيدته بأن يفضى بهذا السر الى الأسقف ، الذى أمره بأن يضع نفسه تحت رحمة سيده وأن يذعن للحكم الذى يصدره عليه !!

وعند ما انتهى رينيه من اعترافه ، ظل راكعا عند قدمى سيده ، مطأطئا رأسه ، وقد تملكه الخزى ، وشل حراكه الخوف . أما السيد فقد أصبح لونه فى بياض الكتان ، وانعقد لسانه من فرط الانفعال . الا أن الدم سرعان ما انطلق فى عروقه يغلى ويدمدم ، وتملكته قوة عارمة وقوة صارمة ، فوق طاقة الانسان . فأمسك هراوته الثقيلة بيده الكثة الشعر ، ورفعها وسواها لكى يهوى بها على جبين « رينيه » ، الذى كان يدرك جسامة ذنبه نحو مولاه ، فظل بلا حراك ، وقد ظن أنه على وشك أن يكفر عن خطيئته نحو حبيبته فى هذا العالم ، وفى العالم الاخر .

الا ان رواء شبابه الغض ، وما للذنب اللذيذ من مغريات



فتانة ، وجدت اعتبارا حرك الرحمـــة فى قلب ذلك الرجل الطيب ، فألقى بهراوته بعيدا ، وصـــاح فى هدير : « ليمزق ألف مخلب أحشـاء ذلك الذى غرس البلوط الذى منه صنع المقعد الذى عليه نطحتنى بقرنك .. وألف ألف مثلها لمن أنجبوك ، يا وصيف النحس الملعون !.. اذهب الى الجحيم الذى أتيت منه .. اغرب من أمامى ، وغادر القلعة ، والبلاد كلها ، والادبرت لك ميتة بطيئة ، على نارتجعلك تلعن ألف مرة شريكتك الفاجرة ! »

وما ان سمع الوصيف هدير القذائف الأولى ، حتى انطلق هاربا . وحسنا فعل !.. فقـد انطلق « بروين » فى الحدائق مهتاجا ، يدمر كل ما يصادفه ، مهددا متوعدا .. وما لبث ان لمح عذراءه التى فقدت براءتها .. وكانت تتطلع الى طريق الدير ، فى انتظار الوصيف ، دون أن تدرى ما جرى !

وصاح فيها : « بحق الشيطان ، ومذراته ذات الأسنان ، أأنا ممن يمتصون الحـلوى .. أأنا طفـل حتى اصدق ان وصيفا يعبث بك ، على هذا النحو ، دون ان تفطنى ؟ ! »

فأجابته ، وقد رأت الشرر يتفجر من عينيه : **« كفاك ، كفاك ! اننى لأعلم ذلك جيـدا .. ولـكنك لم تبصرنى بهـذه الأمور ، فحسبتنى فى حلم ! »**

وابتسمت ، فاذا الغضب يذوب كتلال الثلج تحت الشمس الحامية . وصمت قليلا ، ثم عاوده الغضب فصاح : « ليحمل ألف مليون شيطان هذا الطفل الغريب عنى .. أقسم ..! » . فبادرته قائلة : **« رويدك لا تقسم .. اذا لم يكن طفلك ، فانه طفلى .. أو لم تقل لى ، فى تلك الليلة ، أنك تحب كل شىء يأتى منى ؟ ! »**

وهكذا انطلقت تمطره بالحجج ، والغضب ، والخصام ، والدموع ، وغيرها من أسلحة النساء .. ذكرته أولا بأن املاكه لابد وأن تعود الى الملك ، اذا لم يكن له وريث .. وثانيا بأنه لم يأت الى الدنيا طفل بأكثر مما أتى هذا طهرا وسذاجة .. وألف حجة وحجة ، حتى لان الشيخ ، وانتهزت « بلانش » فرصة توقف فيها عن الكلام ، فتساءلت : « وأين الوصيف ؟ »

فأجاب قائلا : « ذهب الى الشيطان ! »

واذ ذاك ترنحت وقد اصفر وجهها وهتفت : « ماذا ؟ هل قتلته ؟ »

* * *

• **ولم** يدر « بروين » ما سوف يؤول اليه أمره ، وهو يرى سعادة شيخوخته تنهار ، ولا سبيل الى انقاذها الا بأن ترى زوجته الوصيف !.. وأمر بالبحث عنه . ولكن «رينيه» كان قد أطلق ساقيه للريح ، خوفا من الموت ، ورحل الى ما وراء البحار ، ليكفر عن خطيئته .

فلما علمت بلانش من الأسقف ما فرضه على فتاها الحبيب من تكفير ، أصابها خبل ، وراحت تهذى : « أين التعس المسكين ، الذى رمى بنفسه فى الاخطار من اجل حبى ؟ ! »

وهكذا ما فتئت تسأل عنه ، كطفل لا يهدأ حتى ينال بغيته .. ونائب الملك يبكى اذ شعر بأنه الملوم ، وحاول بألف

وسيلة أن يعيد الى « بلانش » هناءها ، ولكن شيئا مما فعل ، لم يكن يعدل قبلات الوصيف !

على أنها ما لبثت أن ظفرت يوما بالطفل الذى طالما اشتهته . وثق أن ذاك اليوم كان عيدا ، فان شبه الوصيف كان منقوشا على محيا ثمرة حبه !.. افتعزت به « بلانش » واستردت بعض انشراحها القديم ، فما اسعد ساعات نائب الملك . ولكثرة ما أصبح يرى الصغير ينمو مع الأيام ، حتى غدا يجرى حوله .. ولفرط ما سمع ضحكاته تجاوب ضحكات أمه ، انتهى به الامر الى أن أحبه ، واصبح يغضب أشد الغضب اذا انكر احد ابوته له !

واذ لم تكن مغامرة « بلانش » والوصيف قد جاوزت أسوار القلعة ، فقد تردد فى (تورين) أن السيد « بروين » كان يدخر من القوى ما يكفى لانجاب طفل . وظلت فضيلة «بلانش» بمنأى من اى مساس .. وادركت السيدة ـ بوحى من أنوثتها ـ مدى ضرورة الصمت ازاء الخطيئة المغتفرة التى أنالتها الطفل . ومن ثم فقد أصبحت متواضعة ، طيبة ، واشتهرت بأنها امرأة تقية فاضلة !.. ولكى تسيطر على زوجها ، راحت تستغل طيبته ، دون أن تسمح له بأن يتجاوز الحد ، اذ اعتبرت نفسها حليلة « رينيه » .. على انها راحت تداعب «بروين» ، وتلاطفه ، وتبتسم له ، لقاء ما كان يغمرها به .. وأخذت تعابثه وتحايله ، شأن الزوجات الفاضلات اللائى يخدعن أزواجهن !.. وسعد الرجل بذلك ، حتى لقد أصبح يتشبث بالحياة ويتعلق بها ، كلما امتد به العمر .

ولكنه ـ بايجاز ـ لم يلبث أن مات ، ذات ليلة .. ولم يك يدرى أن الموت واتاه ، بل هتف ببلانش « أواه ياعزيزتي .. انني لم أعد أراك .. لقد أقبل الليل ! » . وكانت ميتة مريحة ، استحقها بجدارة ، جزاء ما أبلى فى الأراضى المقدسة !

وحزنت « بلانش » لموته حزنا صادقا ، وراحت تبكيه بكاء الابنة اباها . ومكثت حزينة ، لا تعير أذنا لأى حديث يمنيها بزواج ثان ، مما أطلق ألسنة القوم بامتداحها ، اذ أنهم لم يكونوا يدرون أنها اتخذت لها زوجا أسكنته قلبها ، وراحت تعيش على امل رؤياه !

بيد أنه كان مكتوبا لها أن تقضى الشطر الأكبر من عمرها أرملة الجسد وأرملة القلب ، اذ أن أنبـــاء حبيبها انقطعت عنها ، فوقع فى روعها أنه مات ..

* * *

• وفيما هى جالسة ذات يوم ، اذا بابنها — الذى كان قد غدا فى الثالثة عشرة والنصف من عمره — يندفع مقبلا من الحديقة ، لاهث الأنفاس ، متصبب العرق ، صائحا : « أواه ، يا أماه .. لقد رأيت فى فناء القاعة رجلا من العائدين من الأرض المقدسة ، احتضننى بقوة وهو يبكى بكاءا حارا ! »

وصاحت بلانش : « أكان يبـكى ! .. آه ، انه الأب ! » . وأسندت رأسها الى المقعد الذى كانت تجلس فيه ، والذى كان — فى الواقع — عين المقعد الذى أثمت فيه !

وما انتبه احد — فى بادىء الامر — الى انها .. قد فارقت الحياة !

وما كان لأحد أن يعرف ما اذا كان موتها قد ترتب على حزنها لبعاد حبيبها وفاء لعهده ، أو على فرحتها الكبـــرى لعودته ، وأملها فى ان يرفع أسقف (مارتيبه) ما فرضه عليهما من حرمان من الحب !

وما أعظم الحزن الذى رافق موتها . اذ أن حبيبها لم يكد يراها مسجاة بلا حياة ، حتى غدا راهبا من رهبان دير (مارموتيبه) ، الذى كان أبدع أديرة فرنسا بأسرها !



الأسيرة

مقدمة

• **اهتم** نفر من أبناء (تورين) النبيلة ، بالبحث الجاد الذى يقوم به المؤلف ، فيما يتعلق بآثار ، وأحداث هذه الأرض المباركة ، وما يشيع فيها من نوادر طريفة وقصص بديعة .. واذ اعتقدوا – عن يقين – بأنه ولا بد على معرفة بكل شىء ، سألوه – بعد أن دعوه الى الشراب ، طبعا ! – عما اذا كان قد كشف عن السر فى تسمية احد شوارع المدينة بالشارع الساخن ، أو بالفرنسية « لارو شود » .. فأجابهم بأنه يدهش أعظم الدهشة اذ يرى القدامى منهم قد نسوا العدد الكبير من الأديرة التى كانت قائمة على الجانبين فى ذلك الشارع .. **ومن المحتمل أن الطهر العنيف الذى كان يلتزمه الرهبان والراهبات فى تلك الأديرة ، قد تسبب فى التهاب جدرانها بحرارة العفاف التى تنبعث على الدوام منها ، ولهذا السبب أطلقوا على الشارع ذلك الأسم !**

الا أن واحدا من الحاضرين شاء أن يظهر بمظهر المتعلم ، فعارض هذا الرأى ، زاعما أن عشاق الفضائح كانوا يتواعدون على اللقاء فى ذلك الشارع ! .. واقحم شخص آخر نفسه فى أحبولة الأبحاث العلمية الدقيقة ، فراح يسكب كلمات من ذهب دون ان يفقه أحد ألفاظه الرنانة ، وعبارته الطنانة ، ومصطلحاته الضخمة الفخمة ، التى تدوى فى الآذان .. خالطا بين كل اللغات التى جرت منذ عهد الطوفان ، على الالسنة التى تكلم بها العبرانيون والكلدانيون والمصريون واليونانيون واللاتينيون ، وعلى لسان « تورنوس » الذى انشأ تورين .. وانتهى الرجل الفاضل الى ان كلمة « شود » التى اطلقت على الشارع ، جاءت من كلمة « كودا » بعد أن حذف هذا الذيل .. وقلبت

« الكاف » الى « شين » ! .. على أن أحد الكهول ذكر انه كان ثمة نبع ماء دافىء ـ فى موقع الشارع ـ وقد شرب منه جد جده .. !!

وهكذا تدفقت الاراء من كل حدب وصوب ، حتى لقد ضاعت الحقيقة بينها .. الا أن رجلا طاعن السن ، متعلما ، واسع الاطلاع ، ابتسم ابتسامة ساخرة ـ وان لم ينبس ببنت شفة ـ وهو قابع فى احد الاركان ، يشرب كاسه فى وحدة وهدوء . فلم يسع المؤلف الا ان اقترب منه ، فقال له الرجل العجوز : **« بحق تحفتك التى أسميتها « الخطيئة المغتفرة » .. انك قد استحققت ـ الى الابد ـ تقديرى ، لأن كل ما فيها حق من الرأس الى القدم ! .. ولكننى لا اشك فى انك لا تعلم ما الذى جرى للفجرية التى لبست مسوح الرهبنة بتدبير ذلك الفارس « بروين دو لاروش كوربون » .. أما أنا فأعلم ذاك جيدا . واذا كان هذا النقاش فى اصل اسم الشارع قد ضايقك ، فسأعيرك مخطوطا أثريا ثمينا وجدته فى مكتبة القصر الأسقفى .. فهل يكفى هذا لتبديد ضيقك ؟ »**

وفعلا ، أعطى الرجل الفاضل للمؤلف بعض الرقائق النادرة ، التى عكف على دراستها ، واستطاع ـ بعد مجهود شاق متواصل ـ ان يترجمها الى اللغة الفرنسية .. فأعرنى سمعك ، وهاك الترجمة الصادقة لهذه المخطوطات العتيقة :

١ ـ من هى الشيطانة ؟

• فى عام ألف ومائتين وواحد وسبعين ، أمامى أنا « هيروم كورنى » ، كبير المحققين وقاضى الكنيسة ، المبعوث الى هنا من قبل مجمع سان موريس المنعقد فى كاتدرائية (تور) ، والذى قرر بحضور سيدنا « جيهان دو مونسورو » كبير الاساقفة ايفادى لتحقيق الشكاوى والتظلمات التى تقدم بها أهل المدينة المذكورة ، وهى مرفقة بهذا .. قد حضر بعض نبلاء الأبروشية

ومواطنيها وسكانها ، وقرروا الحقائق الاتى ذكرها بخصوص أنثى من الجن ، متهمـــة بأنهـا اتخـــذت سيماء امرأة آدمية ، فبلبلت الأفكار فى الأبروشية كلها ، وهى الآن محبوسة فى سجن المجمع .. وفى سبيل الوصــول الى حقيقة ماورد فى الشكاوى المذكورة ، افتتحنا هـذا المحضر فى يوم الاثنين الحادى عشر من شهر ديسمبر - بعد أداء القداس - لنسمع أقوال الشهود بصدد أنثى الجن المـذكورة ، ولنستجوبها عن الجرائم المنسوبة اليها ، ونحكم عليها طبقا للقوانين المعمول بها فى كنيستنا المقدسة .. وقد ساعدنى فى كتابة أقوال الشهود السيد «جيوم توربنوش» ، كاتب المجمع ، وهو رجل متعلم ..

وكان اول الشهود هو المدعو «جيهان»، ولقبه «تورتبراس» .. وهو من أهالى (تور) ، ويدير - بموجب ترخيص - نزل « لاسيجويين » ، بميدان (دى بونت) . وقـد حضر أمامنا ، وأقسم بخلاص روحه - ويده على الكتاب المقدس - أن يقول الحق ولا شيء غير الحق ، وقد أدلى بالاتى :

« أقرر انه حدث منذ سنتين، قبل عيد القديس «جيهان» - الذى أضيئت فيه الأنوار العظيمة - أن رجلا لم أكن أعرفه من قبل ، ولـكنه كان من رعايا مولانا الملك ولا شـك ، وكان حديث عهد بالعودة الى بلدنا من الأرض المقدسة .. جاء عندى الرجل المذكور ، وعرض على ان أؤجره منزلا فى المدينة ، كنت قد قمت ببنائه ، فوافقت على ان أؤجره اياه لمدة تسع سنوات، فى مقابل ثلاثة أكياس من الجنيهات الذهبية .. **وقد أنزل الفارس فى المنزل المـذكور صبية حسناء ، لهـا مظهر امرأة ، وترتدى الملابس العربية الغريبة . ولم يكن الفارس المذكور يسمح لأحد بأن يراها أو يقترب منها . ولكننى رأيتها بعينى وعلى رأسها ريش غريب الشـكل ، وعيناها متوهجتان بشدة - أعجز عن وصفها - وقد انبثقت منهما نار الجحيم . ولما كان الفارس المذكور قد هدد بالموت كل من يتجسس على المنزل ، فاننى**

نأيت عن ذلك المنزل المذكور ، بدافع من الخوف ، وان استبقيت فى ذاكرتى بعض التخمينات ، التى اوحاها سوء مظهر تلك الأجنبية التى كانت أغرب النساء ، ولم تقع عينى على مثيل لها طول عمرى .

« ولقد اعتقد اشخاص عديدون ان الفارس المذكور كان ميتا ـ اذ ذاك ـ وان بقى قائما على قدميه بفعل بعض الطلاسم والتعاويذ والأعمال السحرية الشيطانية ، التى كانت تقوم بها تلك المرأة مذ عزمت على أن تستقر فى بلدنا .. وأقرر اننى كنت أرى الفارس المذكور شديد الشحوب ـ على الدوام ـ حتى اننى لا أجد ما اشبه به لون وجهه سوى الشمع الذى يضىء شمعدانات باسكال .. وكما يعلم كل سكان نزل « لاسيجويين » ، فان هذا الفارس قد دفن بعد مجيئه بتسعة أيام ، وطبقا لما رواه سايسه ، أغلقت الغجرية المذكورة على جثته ابواب المنزل ، ومكثت معه سبعة ايام كاملة . وقد أدلى الينا السايس بهذا السر الخطير وهو على فراش موته !

« ويقول بعض الأشخاص ـ فى وقتنا الراهن ـ ان الشيطانة كانت تتسلط على الفارس المذكور بشعرها الطويل ، الذى أوتى ميزات متأججة ، تبث فى قلوب المسيحيين لهيب جهنم ، فى صورة الحب الذى ما يفتأ يعمل عمله فيهم ، حتى تنسلخ أرواحهم من أجسادهم ، ويستولى عليها الشيطان . ولكننى أعلن اننى لم ار ـ من كل هذا ـ سوى الفارس الميت المذكور ، الذى كان مهزولا ، هضيم البطن ، والذى ظل ـ برغم نصيحة كاهن اعترافه ـ سادرا فى التردد على هذه المرأة .. ثم عرف ـ فيما بعد ـ أنه كان يدعى « الكونت دو بوايى » ، وكان من المجاهدين الصليبيين ، كما كان ـ حسب قول بعض الأشخاص فى المدينة ـ يحيا بالقوة السحرية لشيطانة قابلها فى بلد أسيوى كدمشق أو غيرها !

« ولقد تركت منزلى ـ بعد ذلك ـ السيدة المجهولة ، طبقا لشروط عقد الايجار . حتى اذا توفى الكونت دى بويى المذكور، ذهبت الى المنزل لأسأل تلك المرأة الاجنبية ما اذا كانت تريد البقاء فى المنزل . وبعد جهد عظيم ، قادنى اليها رجل أسود عارى الظهر أبيض العينين .. ورأيتها فى غرفة صغيرة تتألق بالذهب وبالمجوهرات ، وتشع منها بأضواء عجيبة . **وكانت تجلس على بساط أسيوى ـ وقد ارتدت ملابس رائعة ـ ومعها رجل آخر ، يعرض عندها للخطر والهلاك روحه . ولم تواتنى الشجاعة الكافية لأن أنظر اليها ، اذ خشيت أن تغوينى عيناها على الخضوع لسطوة سحرها . فان صوتها كان قد نفذ ـ فعلا ـ الى أعماقى ، وأدار عقلى ، وافعم بالأفكار الشريرة خيالى !** . واذ وجدت ذلك ، بادرت مهرعا الى الانصراف ـ خوفا من الله ومن جهنم ـ تاركا منزلى لها ، مهما طال فيه بقاؤها . فقد كان من الخطر جدا ، ان يرى المرء ما كان لهذه الفجرية التى كانت تشع منها حرارة جهنمية،وكانت قدمها تصغر كثيرا عن قدم أية امرأة حقيقية. ومنذ ذلك اليوم ، أعوزتنى الشجاعة على أن أدخل الى منزلى لفرط خوفى من السقوط فى الجحيم .. وهذه أقوالى ! » .

وقد عرضنا على تورتبراس المذكور رجلا حبشيا أو نوبيا ، أسود الجلد ، من الرأس الى القدم ، وقد جرد من علامات الرجولة .. وكان هذا الرجل مصرا على الصمت رغم كل ما عرضناه له من أساليب التعذيب والايلام ، متظاهرا بأنه لا يعرف لغة بلادنا .. وقد تعرف «تورنبراس» المذكور على هذا الحبشى الكافر ، وقرر انه رآه مصاحبا للشيطانة الساكنة فى منزله ، وأنه كان يساعدها فى أعمالها السحرية .

* * *

• **واستدعينا** ـ بعد ذلك ـ «ماتيو» الملقب «كوجنيفستو»،

والذى يعمل خادما فى كنيسة سان اتيان . وبعد ان أقسم بالأناجيل المقدسة على أن يقول الحق ، اعترف لنا بأنه كان يرى على الدوام ضوءا ساطعا فى مسكن المرأة الأجنبية المذكورة . وكان يسمع ضحكات عالية وشيطانية فى أيام الأعياد والصيام ولياليها ـ وخاصة خلال الاسابيع المقدسة واحتفالات رأس السنة ـ كما لو كان هناك عدد عظيم من النـــاس يزخر بهم المنزل . وقد أقســـم أنه رأى فى نوافذ المنزل المذكور براعم خضراء من جميع أنواع زرع الشـــتاء ، وكأنها نمت بفعل السحر .. لا سيما الورد الذى رآه متفتحا فى وقت الصقيع ، وغيره من الأشـــياء التى تحتاج الى حرارة عظيمة كى تنبت وتنمو ! .. **ولكنه لم يبد دهشة من ذلك ، يقينـــا منه بأن الأجنبية المذكورة كانت تشع حرارة عظيمة ، حتى لقد كانت خضر حديقتـه تنمو ، اذا قـدر للمرأة ان تمر بجوار سياج داره فى المساء السابق .. وكانت البراعم والأوراق الجديدة تدب فى الأشـــجار ، اذا مستها تلك المرأة بثيـــابها ! ..**
وفيما عدا ذلك ، قرر كوجنفستو المذكور أنه لا يعلم شيئا ، لأنه ينهمك فى عمله من الصباح المبكر ويذهب الى فراشه مع هجوع الطير !

ولقد استدعينا ـ بعد ذلك ـ زوجة كوجنفستو السالف الذكر ، لكى تقرر بدورها ـ بعد أداء اليمين ـ ما تعلمه عن الأمور الواردة فى هذا المحضر . الا أنها لم تقرر شـــيئا غير عبارات الاطراء والمديح للاجنبية المذكورة ، زاعمة ان معـاملة زوجها لها قد تحسنت ، منذ قدوم تلك السيدة الفاضـــلة ، نتيجة لجوارها ، اذ ملأت الهواء بالحب ، كما تمـلآ الشمس الفضاء بالنور .. والى غير ذلك من هراء لا معنى له ، ولم نجد داعيا لكتابته هنا .

ولقد عرضنا الأفريقى المذكور على « كوجنفستو » السالف

الذكر وزوجته ، فتعرفا عليـه ، وقررا انه كان يعمل طرف الشيطانة المذكورة .

★ ★ ★

• ثم بدأ « هاردوين » الخامس ـ كونت دى مايبه ـ شهادته ، بعد أن أعطى كلمته كفارس شهم ، بأن لا يقـرر شيئا غير ما رآه بعينيه . فشهد بأنه عرف الشيطانة ـ التى يجرى بشأنها التحقيق ـ مذ كانت ترافق جيوش الصليبيين. **وبأنه رأى ـ فى دمشق ـ فارسا يدعى « بويى » يقاتل بعض الفرسان ، ويموت خلال هذا القتال ، فى سبيل أن ينفـرد بها وحده ويغدو عاشقها الأوحد . وقد كانت الشـيطانة المذكورة ـ فى ذاك الوقت ـ فى حوزة الفارس جيوفرى الرابع، كونت دى روش يوزيه ، الذى قيل أنه جاء بها من تورين ، رغم أنها مراكشية .. وهو الأمر الذى أثار دهشـة فرسان فرنسا ، كما أحدث جمالها العجيب ضجة عظيمة ، وتسبب فى ألف مشاجرة ومنافسة فاضحة فى معسكرات الجيش ! ..** وقد كانت هذه الغانية ـ أثناء الحملة ـ سببا فى مصرع كثيرين من رجال الحملة ، الذين هزمهم « روش يوزيه » حين أرادوا انتزاعها منه ، لأنها ـ كمـا قال ذلك بعض الفرسان الذين أحبوها سرا ـ كانت تؤجج من نيران الشهوات ما لا قبل لأمرأة غيرها بتأجيجه .. وأخيرا ، تمكن الفارس « بويى » من قتل « جيوفروى دو لا روش يوزيه » ، فأصبح سيدا ومالكا لهذه السفاحة الصغيرة ، ووضعها فى صومعة، أو حريم حسب عادة العرب . وقد اعتاد النـاس ـ فى ذلك الوقت ـ أن يروها ويسمعوها تتحدث مع ندمائها بعدة لغات أجنبية ، كاليونانية ، واللاتينية ، والمراكشية .. بل انها كانت تجيد الفرنسية أكثر من الفرنسيين أنفسهم ، مما جعل الاعتقاد يسود بأنها ذات طبيعة شيطانية !

واعترف الفارس « هاردوين » ــ السالف الذكر ــ بأنه لم يقع فى غرام المرأة المذكورة أثناء وجوده ، فى الأرض المقدسة، لانه كان يعتقد أن الوقت قد حان لكى يحمل معه الى بلاده جزءا من الصليب الحقيقى ، ولأنه كان يصطحب ــ اذ ذاك ــ سيدة نبيلة من اليونان ، كان لها فضل أنقاذه من ذلك الخطر الجائم فى حب المراكشية !

ولقد أكد لنا الفارس المذكور ، أن المرأة التى تعيش فى منزل « تورتبراس » ، هى ذاتهــا المراكشية التى رآها فى الأرض المقدسة ، وقد جاءت الى هنا من ســوريا . اذ أنه دعى الى حفلة فى منزلها ــ بعد منتصف الليل ــ بمعــرفة الكونت « كرواكسمار » الشاب ، الذى لقى حتفه فى اليوم السابع بعد تلك الليلة .. اذ حطمت تلك الساحرة حياته تحطيمــا ــ وفقا لما قالته والدته الكونتة « كرواكسمار » ــ فان اتصاله بها اطفأ جذوة روحه ، كما بددت نزواتها كل ثروته !

وبعد ذلك طلبنا الى الشاهد ــ بوصفه رجلا جم الذكاء والحكمة والجاه فى هذا البلد ــ أن يحدثنا عن المرأة المذكورة التى دعى الى منزلها ، وأهبنا به أن يفضى بكل ما فى صدره ، لأننا ازاء قضية تتعلق بالعقيدة المسيحية والعدالة الألهية .. فأجاب الفارس المذكور ، بأن واحدا من الصليبيين أنبأه بأن هذه المرأة كانت عشيقة كل من يعانقها ، وان الشيطان كان يتقمص جسدها فعــلا ، ويخلق لها مع كل عشيق ميزة تستهويه .. الى غير ذلك من هذيان السكارى !

وأردف الشاهد قائلا انه لم يتبين شيئا من هذا ، حتى دعاه الكونت « دى كرواكسمار » ــ أخيرا ــ الى حفلة فى منزلها ، فما أن رآها ــ وهو فى هذا الطور من شيخوخته ــ حتى أحس بشبابه يعود اليه من جديد .. ونفذ صوت هذه الشيطانة الى قلبه قبل أن يصل الى أذنيه ، وأذكى وجــدا عنيفا فى جسده . وبالرغم من أنه راح يعب من نبيذ قبرص

ليعمى بصره عن النظر الى عينى مضيفته الناريتين ، ولكى لا يمكنها من قلبه ، الا انه ما كان ليحجم عن منازلة « كرواكسمار » الشاب فى سبيل الاستمتاع بتلك المرأة ـ غير العادية ـ ولو للحظة واحدة ! .. ولكنه ـ عملا بنصيحة كاهن اعترافه ـ عاد الى زوجته ومكث فى بيته .. **ومع ذلك ، فقد ظل صوت المرأة المذكورة يرن فى أذنيه ، ويهفو بعقله أحيانا . وكثيرا ما اتجه فكره ـ على الرغم منه ـ الى هذه الشيطانة ، فى سويعات الفجر ، فيشتعل جسمه كالكبريت ، وينفعل وكأنه فى عنفوان شبابه !** . ولما كان ذلك يدفع الى بدنه بشحنات قوية من الحرارة والحيوية التى تؤلمه وتضنيه .. فقد توسل الينا الا نواجهه بهذه المرأة التى شاء الله ، بل شاء الشيطان ، أن يهبها سلطانا عجيبا على عقول الرجال !

ولقد عرضنا عليه ـ بعد ذلك ـ الرجل الافريقى ، فتعرف عليه ، وقرر أنه خادم السيدة ووصيفها !

* * *

. **ومثل** أمامنا ـ بعد ذلك ـ الشاهد الرابع ، وهو يهودى يدعى « سالومون آل راتشيلد » .. وعلى الرغم من عار شخصه ويهوديته ، فقد استمعنا الى شهادته حتى النهاية



كى نعلم كل شيء بشـــأن سلوك الشيطانة ســـالفة الذكر
ولقد ســـألنا هـذا المدعو ســـالومون - دون ان نطلب اليه اداء اليمين ، اذ أنه غير خاضع لقانون الكنيسة ويفصـل بيننا وبينه دم المخلص - فقرر لنا أنه قام بأعمال خطيرة للسيدة المقيمة فى منزل « تورتبراس » ، فباعها شمعدانات ذهبية ذات شعب متعددة ، منقوشة نقشا دقيقا ، كما باعها أطباقا من الفضة الحمراء ، وأقداحا مطعمة بالجواهر الكريمة والزمرد والياقوت .. ولقد جلب اليها - من الشرق الادنى - كثيرا من الأقمشة النادرة ، والأبسطة الفارسية ، والأنسجة الحريرية ، وأشياء أخرى من النفاسة بحيث أن أية ملكة فى العـــالم المسيحى لا تملك أن تزعم انها اقتنت مثيـلا لها . وقال انه - من ناحيته - قد تلقى منها ثلاثمائة ألف جنيه ، نظير ندرة المبيعات التى جلبها اليها : كالزهور الهندية ، والببغـــاوات ، وريش الطيور ، والتوابل ، والخمور الاغريقية ، والماسات .

وسألناه عما اذا كان قد جاء اليها بالمواد التى تستعمل فى أمور السحر والكهانة ، كالتعويذات ، ودماء الاطفال الحديثى الولادة ، وكتب الشعوذة ، وغيرها من الاشياء التى يستعملها السحرة .. وطلبنا اليه أن يقرر الحقيقة ، مؤكدين له أنه لن يتعرض - فيمـا بعـــد - لان يجرى معه أى تحقيق أو استجواب بهذا الصدد ، فأقسم آل راتشيلد المذكور بشرفه العبرانى ، بأنه لم يكن ليزاول هذه التجارة أبدا وانه ما كان ليتورط فيها ولا حاجة به اليها ، لوفرة كسـبه . فهو وكيل لكثير من الحكام العظام ، كمركيز مونتيفيرا ، وملك انجلترا ، وحاكم قبرص وأورشـــليم ، وأمير بروفانس ، وكونتـات فينيس ، وكثيرين من السادة الجرمانيين . وأنه يمتلك سفنا تجارية من كل نوع - تذهب الى مصر باذن السلطان - للاتجار فى الفضة والذهب .

وقد قرر - فضلا عن ذلك - أنه يعتبر السيدة المذكورة ،

التى يجرى التحقيق بصـــددها ، امرأة طبيعية ، صادقة الاستقامة والولاء ، وقد أوتيت أجمل وأنبل شمائل عرفها فى حياته .. وانه يعتقد أن ما يذاع عن انها ذات روح شيطانية، مجرد زعم كاذب ، لم يصدر الا عن مخيلة سقيمة . وعندما رأى - بفضل احتكاكه بها وتعامله معها - أنها أصبحت بلا رجل ، عرض عليها أن يكون رجلها ، فوافقت عن طيب خاطر . ومع أنه يشعر - منذ تلك الليلة - بعظامه مفككة ، وبأمعائه منسحقة ، الا انه لم يتعرض لما يقال من أن الذى يسلمهاقيادة لا يسترد حريته - بعد ذلك - أبدا .. وهـــكذا انزلق الى مصيره ! ..

ومع اننا أكدنا لسالومون هذا ان شهادته لن تمس سلامته ، الا انه - باعترافه بتلك الامور - قد أقر اقرارا كاملا بتعامله مع الشيطان . ومن ثم فاننا نثبت هنا - المعلم - انه أعلن عزمه على أن يتبرع بمبلغ عظيم للمجمع المقدس ، فى نظير العفو عن المرأة المذكورة اذا صدر الحكم عليها بالحرق ! .. ولما كان هذا المبلغ يكفى لاتمام بناء كنيسة سان موريس ، فاننا نوصى بالتريث فى النظر فى هذا العرض ، حتى يطـرح أمام المجمع منعقدا بكامل هيئته .

وقد انصرف سالومون المذكور دون أن يترك لنا عنوانه ، قائلا أن من الميسور اخطاره بقرار المجمع فى هذا الشـــأن ، بالاتصال بأحد أعضاء المعبد اليهودى بمدينة (تورين) ، وهو المدعو ثوبياسى أتاينوس .

على أننا عرضنا على الشاهد المذكور - قبل رحيله - ذلك الرجل الأفريقى ، فعرفه مقررا أنه خادم المرأة الشيطانة ، وانه من الخصيان الذين اعتاد العرب تجريدهم من صفات رجولتهم، لكى يعهدوا اليهم بمهمة حراسة نسائهم ، جريا على عادة « نارسيز » حاكم القسطنطينية ، وغيره من الحكام القدامى

* * *

• وفى اليوم التالى ، حضرت أمامنا الكونتة «كرواكسمار»، النبيلة الموقرة . وبعد أن أقسمت على الأناجيل المقدسة ، قصت علينا – خلال دموعها – كيف أسلمت ابنها الأكبر الى الثرى ، اذ مات بسبب افراطه فى حب المرأة الشيطانة.. وكان هذا الشاب النبيل فى الثالثة والعشرين من عمره ، حين عرف المرأة المذكورة .. وكان ذا خلق رفيع ، ورجولة فائقة كالمرحوم والده . وبرغم ما كان يتمتع به من حيوية مفرطة ، فانه أخذ يذوى رويدا ، خلال تسعين يوما من اتصاله بشيطانة شارع (شود) – كما قرر كل الناس – وتلاشى سلطان الأم عليه .. وما لبث – فى أواخر أيامه – أن بدا كالحشرات الجافة التى يعثر عليها الخدم فى أركان الحجرات ! .. ولكنه ظل دائبا – وبقدر ما كانت تحمله قدماه – على التردد على تلك المرأة اللعينة ، ليقصر من أجله .. حتى اذا لازم الفراش ، وعلم – آخر الامر – بأنه فى آخر لحظاته ، راح يلعن أهله ويتوعدهم .. وانهال بالشتائم على أخيه واخته وامه ، وثار فى وجه الكاهن ، وجدف فى حق الله ، وأعلن أنه يريد أن يموت كافرا ، مما أحزن كل اقاربه الذين دبروا أمر اقامة قداسين سنويين فى الكنيسة لينقذوا نفسه الضالة وينتشلوها من الجحيم ! .. كما آلوا على انفسهم ان تقوم أسرة « كرواكسمار » بتقديم الشمعدانات لكنائس المدينة – فى عيد باسكال – طيلة مائة عام !

وأخيرا قررت الشاهدة أن الأخت الفاضلة « دوم لوبيوت »، الراهبة بدير (مارموتييه) ، والتى كانت تعنى بالبارون – فى ساعاته الأخيرة – قد ذكرت أنه – فيما عدا تلك الكلمات

الطائشة التى فاه بها على فراش موته ـ لم يفه قط بأية كلمة تمس الشيطانة التى تسببت فى هلاكه !

* * *

• **وحضرت** أمامنا ـ بعد ذلك ـ الشاهدة السادسة « جاكيت فيوزونج » ، وهى خادم مطبخ ، تتردد على البيوت لتغسل الصحون .. وبعد أن أقسمت ألا تقول شيئا لا تعتقده حقيقيا ، قررت أنها فى يوم من الايام ذهبت الى مطبخ الشيطانة المذكورة ـ التى لا تشعر نحوها برهبة ما ، لأنها لم تكن تسلط سحرها الا على الذكور ـ فأتيحت لها الفرصة لان ترى فى الحديقة أنثى الجن هذه ، مرتدية لباسا فاخرا ، وقد راحت تتمشى بصحبة فارس كانت تضاحكه وكأنها امرأة عادية . ولاحظت الشاهدة الشبه التام بين هذه الشيطانة والمرأة المراكشية التى سبق أن ألحقت براهبات دير « نوتردام دو ليجرينيول » ـ بوساطة النائب السابق للملك فى (تورين) و (بواتو) ، السيد بروين ، كونت دى روش كوربون ـ والتى كان الغجر قد تركوها فى مكان تمثال سيدتنا العذراء الذى سرقوه منذ حوالى ثمانى عشرة سنة . وكانت المراكشية المذكورة فى الثانية عشرة من عمرها ـ اذ ذاك ـ وقد انقذت من كومة الحطب التى كانت ستحترق فى نارها ، بأن تم عمادها ..

واذ كانت الشاهدة المذكورة غسالة فى الدير ـ فى ذلك الحين ـ فانها تتذكر أن المراكشية المذكورة فرت من الدير ـ بعد عشرين شهرا من دخولها فيه ـ بطريقة بالغة الدهاء ، لم يستطع أحد أن يكشف كنهها . ولذلك فقد اعتقد الجميع ـ فى ذلك الحين ـ انها طارت فى الهواء ، بمساعدة الشيطان !

واذ عرضنا الرجل الافريقى على الخادمة المذكورة ، قررت أنها لم تره من قبل !

* * *

• **وحضر** أمامنا ــ بعد ذلك ــ الشاهد السابع « هيجيوس دى فو » ــ نجل البارون « بريدوريه » ــ وهو تحت رعاية أبيه ، لأنه فى العشرين من عمره ، ومتهم بالاشتراك مع عدد من الشبان الاشرار بمهاجمة السجن التابع لرئيس الأساقفة والمجمع المقدس ، ومناوشة حرس المحكمة الاكليريكية ، حتى تسببوا فى فرار الشيطانة التى يجرى الآن بشأنها التحقيق . وعلى الرغم من سوء مسلك « هيجيوس دى فو » المذكور ، فقد طلبنا اليه أن يشهد بالحق فيما يتعلق بالأمور التى يعلمها عن الشيطانة المذكورة ، التى عرف أنه كان على علاقة بها . فقال :

« أقسم بخلاصى الأبدى ، وبالأناجيل المقدسة التى أضع يدى عليها الآن ، ان المتهمة بأنها شيطانة ليست سوى ملاك . فهى امرأة كاملة .. بل انها أكمل عقلا منها جسدا ، وانها تحيا حياة سليمة ، ممتلئة بمباهج الحب ومسراته .. فهى ليست شريرة بأى وجه ، بل انها فى منتهى الكرم ، كثيرة المساعدات الفقراء والمعوزين .. كذلك أقرر أننى رأيتها تبكى بدموع صادقة ، لوفاة صديقى الفارس « كرواكسمار » .. وقد عاهدت ــ فى ذلك اليوم ــ سيدتنا العذراء ، بأن لاتقبل بعد ذلك عشق الشبان الضعيفى البنية مثله . ولذلك فانها لم تدعنى أتمتع بجسدها ، وانما منحتنى حبها ، وقلبها ! ..
ومنذ هذه المنحة الكريمة ــ وبرغم النار المتأججة فى جسدى ــ بقيت وحدى فى مسكنها ، حيث رحت اقضى معظم أيامى ، سعيدا بأن أرى محياها ، وأن أسمع صوتها . أواه ! لقد كنت آكل بقربها ، وأشاركها الهواء الذى يدخل فى رئتيها ،

والضوء الذى يتألق فى عينيها الجميلتين ، وكنت أجد فى هذا كله سعادة تفوق ما فى الفردوس . ورغم أنى كنت قد اخترتها لتكون الى الأبد مولاتى ، وقرينتى ، وحبيبتى الوحيدة ، فاننى ـ أنا الأحمق المسكين ـ لم أتلق منها شيئا من المسرات التى كناندخرها للمستقبل ، بل كنت أتلقى منها ألف تحذير ، والف نصيحة ، وألف عظة فاضلة .. وبفضل ذلك اشتهرت بأننى فارس مستقيم ، وغـــدوت رجلا قويا فتيا فاتنا ، لا أخاف غير الله .. واتفقنا على انه اذا اشتد عودى ، واذا ظل قلبها ـ الى ذلك الوقت ـ مستعدا لأن يسلمنى زمامه ، فانهـــا ستغدو لى ! »

واذ قال السيد هيجيوس هـذا راح يبـكى ، واستمر فى بكائه وهو يقول انه حين يفكر فى هذه المرأة الفاتنة الضعيفة ـ التى لا تكاد ذراعها تحتمل ثقل حليها الذهبية ـ لايدرى كيف يمسك عن النحيب ، اذ يتخيل القيود التى ترسف الآن فيها ، والتعاسات التى تقع بغدر على عاتقها ، وانه ليسمح لنفسه بأن يفضى امام العدالة باشجانه لأن حياته مرتبطة كل الارتبـاط بحياة حبيبته الجميلة ، التى يموت اذا لحقها يوما أى ضر !

وهتف الشاب المذكور بالف عبارة ثناء أخرى على الشيطانة المذكورة ، مما يدل دلالة واضـحة على السحر العنيف الذى سلطته عليـه وأسرته به ، ويثبت ـ فضـلا عن ذلك ـ نوع الحياة الشنيعة التى يحياها ، والتى لا تغيـير فيها ولا شفاء منها ، ما دامت تسيطر عليه اعمال الكهانة المضللة ، التى لا بد لسيدنا رئيس الاساقفة ان ينظر فى امرها ، عسى أن يتيسر ـ بالتعازيم الروحية والصلوات الكهنوتية ـ انقاذ هذه الروح من هاوية الجحيم !

ولقد سلمنا الشاب النبيل المذكور الى أبية البارون بريدوريه ،

بعد أن عرضنا عليه الرجل الأفريقى فقرر أنه خادم المتهمة .

* * *

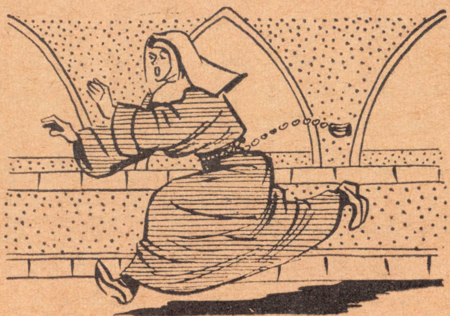
• **وحضرت** امامنا ـ بعد ذلك ـ الشاهدة الثامنة ، التى وصلت الى هنا فى مظاهر تكريم عظيم تحف بها فرقة الحرس المشاة التابعين لسيدنا رئيس الاساقفة .. وهى الأم الموقرة الجليلة « جاكلين دوشان شيفرييه » ، رئيسة دير « نوتردام دى مونت كارميل » ، التى كان نائب الملك السابق فى (تورين) ـ والد الكونت دو روش كوربون ، محامى الدير المذكور ـ قد وضع تحت رعايتها هذه المراكشية المسماة ، فى حوض المعمودية ، « بلانش بروين » .

ولقد شرحنا لرئيسة الدير المذكورة وقائع الدعوى الحالية ، التى تتعلق بشرف الكنيسة المقدسة ومجد الرب ، والمستقبل الأبدى لشعب الأبروشية الذى لحقه أذى الشيطانة ، وكذلك حياة مخلوق قد يكون بريئا من الذنب .. ثم رجونا الرئيسة المبجلة ان تتكرم بالأدلاء بشهادتها ـ بما يدخل فى نطاق علمها ـ بصدد الاختفاء السحرى لأبنتها فى الرب ، المدعوة « بلانش بروين » المتزوجة بمخلصنا تحت اسم الاخت « كلير » .. فأجابتنا الأم النبيلة الجليلة ، بالآتى :

« أن الأخت كلير ، المجهولة الأصل ـ وان كان مفروضا أنها ولدت من أبوين زنديقين معاديين للرب ـ قد الحقت بالدير بعد عمادها فعلا . وقد أتمت الأخت المذكورة مدة تلمذتها واختبارها ، ونذرت نفسها بعد ذلك للرهبنة ، حسب النظام المقدس المتبع . الا انها لم تكد تفعل ذلك ، حتى اعتراها حزن عظيم ، وراحت بنيتها تذبل وقوتها تضمحل .. واذ سألناها عن علة حزنها وأساها ، أجابت ـ باكية ـ بأنها لم تكن تعرف سبب ذلك ، وأن ألف دمعة كانت تسيل وتترى من عينيها ، اذ ترى أن شعرها الفاتن لم يعد يزين رأسها .. وأنها كانت

تحن الى الهواء الطلق ، ولا تكاد تقوى على مقاومة رغبتها فى ان تتسلق الاشجار ، وان تهبط عنها — حسب هواها — كما كانت عادتها أثناء حياتها الطليقة .. **وقالت انها كانت تمضى لياليها فى النحيب ، حالمة بالغابات التى كانت تنام — فيما مضى — تحت ظلالها .. وانها تشعر بالكراهية نحو الدير الذى يختنق فى جوه تنفسها .. كما قالت انها — من أجل ذلك — تمتلىء بأهواء شريرة ، ولا تفتأ تسرى عن نفسها — احيانا — بالافكار الآثمة التى تنسيها كل ما كان يحيط بها ! .**

« وما ان سمعت هذا من المخلوقة التعيسة ، حتى رحت أذكر وأكرر لها تعاليم الكنيسة المقدسة ، وأذكرها بالسعادة الأبدية التى يتمتع بها أولئك النسوة غير الخاطئات فى فردوس النعيم ، قائلة لها ان الحياة الدنيا زهيدة وزائلة ، مؤكدة لها ان الرب يحتفظ لنا بحب لا نهاية له . الا أن الروح الشريرة ظلت مقيمة فى الأخت المذكورة ، فكانت تتطلع — دائما — الى أوراق الشجر وعشب الحقول ، من خلال نوافذ الكنيسة أثناء القداس .. وأخذ لونها يحيل ، وهى لا تفتأ تبدى الضعف والاعياء لكى تبقى فى فراشها . وكانت فى بعض الاحيان تنطلق بين صوامع الدير كشاة ضالة أفلتت من رباطها . واستمر



هذا شأنها حتى اشتد آخر الأمر هزالها ، وزال جمالها ، وبدا أنها تقترب من نهايتها .. واذ رأيناها قد وصلت الى هذه الحال ، وضعناها فى غرفة المرضى ، ورحنا نرقب كل يوم وفاتها . وفى صباح يوم من أيام الشتاء ، فرت الأخت المذكورة ، دون أن تترك أى أثر لخطواتها ، ودون أن تكسر أى باب ، او تنتزع أى قفل أو تفتح أية نافذة ، او تخلف أى علامة تدل على طريقة افلاتها . واذ كانت هذه مغامرة غامضة محيرة ، فقد اعتقد الجميع أنها حدثت بوساطة الشيطان .. وأعلنت سلطات الكنيسة الأسقفية أن بنت الجحيم هذه ، انما أرسلها الشيطان كى تصرف الراهبات عن طريقهن المقدس .. وقد عبرت الهواء على جناحى ساحر ، كى تهزأ بديانتنا الكاثوليكية الصحيحة ! »

فلما أتمت الرئيسة الفاضلة شهادتها ـ على هذا الوجه ـ انصرفت فشيعتها فرقة الحرس باحترام عظيم ، كأمر سيدنا رئيس الأساقفة .

* * *

• **واستدعينا** بعد ذلك الشاهد التاسع ، المدعو «جوزيف ليشالوبييه » ، وهو صراف ، يقيم فوق الجسر المعروف باسم (بيزانت دور) .. وبعد أن أكد ولاءه الكاثوليكى ، وأقسم ألا يقول غير الحق ، وأن يقرر كل ما يعلمه فيما يتعلق بالقضية المطروحة أمام المحكمة الكنسية ، قرر الآتى قائلا :

« أننى أب بائس وتعيس ، وقد شاءت ارادة الرب المقدسة ، ان يحل بى ضيق عظيم . فلقد كان لى ـ قبل مجىء شيطانة شارع (شود) ـ ولد جميل كأبناء النبلاء ، متعلم كموظف عظيم . وقد قام بأكثر من اثنتى عشرة رحلة الى بلاد الارض . وكان فوق ذلك كاثوليكيا فاضلا ، حافظا نفسه من مخاطر الحب ، متجنبا الزواج ، مدركا انه هو ساعد شيخوختى ..

كان ابنا حريا بملك فرنسا أن يفخر به .. والآن ياسيدى، ها هو ذا الكنز الذى لانظير له قد اخذ منى ،وألقت به الشيطانة فى هوة الجحيم .. **أجل يامولاى ، فما انوقع بصره على هذه المخلوقة الماكرة – التى ضمت جوانحها مصنعا كاملا لآلات الهلاك ، والتى اتحدت فيها اللذة بالبهجة – حتى غرق الى آخر انفاسه فى وعاء الحب هذا . وبعد ذلك أقام على الدوام بين أعمدة معبد ((فينوس)) ، الا أنه لم يعش هناك طويلا ، فان فى ذلك المكان حرارة عظيمة .. فواحسرتاه ،وواولداه !..**
ان تلك الهاوية ابتلعت حظه فى الحياة ، وآماله الواسعة ، ومستقبله .. بل ابتلعت – الى الأبد – ذاته وحياته كلها .. واذ أصبت هكذا بالثكل فى شيخوختى ، فلن تكون لى متعة أعظم من أن أرى هذه الشيطانة – المثقلة اليدين بالذهب وبالدماء – تحرق أمام ناظرى بلهيب النار .. هذه الأبليسة التى طالما حطمت زيجات ، وهدمت عائلات ، وأدمت قلوبا ، وأفرغت جيوبا ، أحرقوها ، مزقوها .. راقبوا هذه الشيطانة، وشددوا الحراسة عليها ، لأن لها نارا أشد اشتعالا من كل نيران الأرض .. فى كيانها كل أتون الجحيم ، وفى شعرها قوة شمشون ، وفى صوتها أنغام الموسيقى السماوية ! .. أنها تنفث سحرها لتقتل الجسد والروح بضربة واحدة ! .. انها تبتسم لتلدغ ، وتعانق لتلتهم .. وقصارى القول : انها قديرة على ان تغوى ملاكا ، وتجعله يجحد الله .. ولدى ! ولدى ! أين هو فى هذه الساعة ؟ .. آه ، ياسيدى القاضى! لماذا بالله استدعيتنى؟ .. هذه هى شهادتى التى أتوسل الى السيد ((توربنوش)) أن يكتبها دون أن يسقط حرفا واحدا ، وان يعطينى بيانا أقوله للرب كل مساء فى صلاتى ، لكى يرتفع صوت دماء البرىء الى أذنيه ، ولكى أحصل من رحمته اللانهائية على عفو ومغفرة لابنى ! »

* * *

• **وتأتى** - بعد ذلك - سبع وعشرون شهادة، لو اننا أردنا كتابتها بكل تفصيلاتها ، لكان ذلك فوق طاقتنا ، ولبعد بنا عن خط سيرنا فى هذه القضية . لذلك فاننا نكتفى بأن نسجل فيما يلى خلاصة هذه الشهادات فى كلمات قليلة . وبيانها : ان عددا عظيما من المسيحيين الافاضل . من رجال المدينة ونسائها ، شهدوا بان الشيطانة كانت تقيم كل يوم ولائم فخمة ، وحفلات فاخرة ، لا يمكن ان يرى الانسان مثلها فى اية كنيسة .. وانها لعنت الرب ، وهزأت بالكهنة .. وأنها لم ترسم على صدرها علامة الصليب فى أى مكان .. وانها تتكلم بكل لغات الأرض ، وهى موهبة لم يمنحها الله الا لرسله القديسين . وانها رؤيت - عدة مرات - فى الحقول ، وقد امتطت حيوانا غير معروف ، يمضى بها مسابقا السحاب .. وأنها لا تكبر فى السن أبدا ، بل ان وجهها ناضر الشباب دائما .. وأنها تستقبل الأب والابن فى ذات النهار ، قائلة ان بابها لا خطيئة فيه ! .. **وانها تنبعث عنها تيارات شريرة تراها العين ، فقد كان صانع فطائر يجلس - ذات مساء - على أريكة عند باب منزله ، فما أن مرت به ، حتى رأى نفحة من الحب الملتهب تنطلق من جسدها ، فتهب عليه وتشعل فيه حرارة عظيمة جعلته يهرع الى فراش زوجته ، حيث وجد - فى الصباح التالى - ميتا من عنف عاطفته ! ..**

وان شيوخ المدينة يذهبون ليضيعوا بقية ايامهم واموالهم معها ، ثم يموتون منكفئين على بطونهم عند قدميها ، وقد اسودت وجوههم كوجوه المراكشيين .. وأن هذه الشيطانة كانت تتعمد ألا يراها أحد عند تناول الوجبات ، فقد كانت تعيش على عقول البشر ! .. وأن كثيرين قد رأوها تذهب - أثناء الليل - الى المقابر ، فتعانق الرجال من الموتى ، لأنها لم تكن تملك طريقة اخرى لاطفاء ظمأ الشيطان الجاثم فى احشائها ..

وغير ذلك من مئات اخرى من الاقوال والتصريحات والتقريرات، التى يتضح منها أجلى وضوح ، طبيعة هذه المراة الجهنمية ، التى لا بد أن تكون ابنة الشيطان أو أخته او زوجته أو بنت عمه أو بنت عمته ! .. فضلا عن الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على أفعالها الشريرة وعلى النكبة النكباء التى بلت بها كل الأسرات على السواء !

وقد ختمنا هذا التحقيق فى يومه العاشر ، بعد أن أمكننا الوصول الى الدليل الحاسم المدعم بالشهادة الموثوق فيها ، والمعزز بالشكاوى والتحذيرات والتوصيات والاعترافات والمشاهدات التى على الشيطانة المذكورة أن تدفعها عن نفسها وأن تبين حقيقتها .

٢ ـ ما الذى اتخذ بشأن الشيطانة المذكورة ؟

• **انه** فى عام الرب الهنا ، الواحد والسبعين والمائتين بعد الألف .. أمامنا نحن « هيروم كورنى » ـ كبير القضاة الكنسيين ـ حضر الآتى ذكرهم بعد ، بناء على استدعائهم بمعرفتنا ، وهم :

السيد « فيليب ديدريه » ، محضر مدينة تور ومقاطعة تورين ، المقيم فى شارع لاتيسورى بجهة شاتونوف ..

والسيد « جيهان ريبو » ، رئيس نقابة تجار الأصواف ، المقيم فى ميناء بريتانى بالقرب من تمثال سان بيير ايليان ..

والسيد « انطوان جيهان » ، رئيس نقابة الصيادلة ، المقيم فى ميدان (بونت) ، بالقرب من تمثال سان مارك ..

والسيد « مارتن بويرتييه » ، قبطان صيادى المدينة ، المقيم فى الميناء بالقرب من جزيرة (سان جاك) ، وأمين صندوق نقابة ملاحى نهر اللوار ..

و «مارك هيروم » ، المعروف باسم **« ماشيفر »** ، رئيس

جمعيـة أصحاب الحرف ، المقيم بالقـرب من تمثـال سـان سيباستيان ..

و« **جاك** » **الملقب** « **فيدوميه** » ، صاحب حانة ، وساقى خمور ، يقيم فى شارع هاى عند (البوم دوبان)

وقد قرأنا على مسمع السيد « ديدريه » المذكور ، وسائر المواطنين السالفى الذكر ، الالتماس المكتوب ، والموقع عليه والمقدم منهم ليوضع تحت أنظار المحكمة الأكليريكية ، ونصه كالآتى :

التماس

« **نحن** الموقعون أدناه ، وجميعنا من مواطنى (تور) ، قد اجتمعنا بمنزل السيد «ديدريه» ـ محضر (تورين) ـ وقد طلبنا اليه أن يستمع الى شكوانا وأقوالنا بخصوص الوقائع التالية التى اعتزمنا أن نطرحها أمام قاضى الجرائم الكنسية كى يصدر حكمه بشأنها ، وهى الآتى بيانها :

« **منذ وقت طويل مضى ، وفدت الى هذه المدينة شيطانة شريرة فى صورة امرأة ، وأقامت فى أبروشية (سان اتيان) ، بمنزل السيد « تورتبراس » الخاضع للسلطة الزمنية الاسقفية . وهذه المرأة الاجنبية تحيا حياة الدعارة المنطوية على أبشع صور الاسراف ، والاتلاف ، والخلاعة . وما فتئت فضائحها تزداد خطرا حتى أصبحت تهدد بالدمار شرف العقيدة الكاثوليكية فى هذه المدينة ، اذ أن أولئك الذين يهرعون اليها لايلبثون أن يعودوا مجللين بالخزى ، وقد ضاعت أرواحهم وثرواتهم .**

« وحيث أن عددا كبيرا من أولئك الذين وقعوا فى براثنها ، قد انتهى أمرهم الى الموت .. وحيث انها كانت ـ حين وفدت الى مدينتنا ـ لاتملك ثروة ما سوى جمالها ، فاذا بها تصبح ـ

حسب الأقوال الشائعة فى المدينة كلهـا ـ ذات ثروة لا تعد ولا تحصى ، مما وطد الاعتقاد بأنها انما جمعت ثروتها تلك ، من أعمال الكهانة والسحر ، أو من السرفات التى استخدمت فى ارتكابها الوسائل السحرية .. على الأقل !

« وحيث أنها مسألة تتعلق بشرف أسراتنـا ، وسلامتها . وحيث انه لم يحدث قط من قبل ، أن رؤيت فى هذه البلاد امرأة ضارية الجسـد ، تزاول ـ بكل هـذا القدر من الشر والأذى ـ مهنتها الشهوانية ، وتهدد ، على هذا النحو البشع ، حياة أهـل هـذه المدينـة ، ومالهم ، وأخـلاقهم ، وعفتهم ، وعقيدتهم ، وكل شىء يتعلق بهم ..

« وحيث أن الضرورة تدعو لاجـراء التحقيق فيما يتعلق بحقيقة شخصها ، ومصدر ثروتها ، وفضائح سيرتها ، ليمكن التحقق مما اذا كانت وقائع الحب هذه مشروعة ، وغير مترتبة ـ كما توحى تصرفات المرأة ـ على الوسائل السحرية للشيطان ، الذى كثيرا ما يزور العالم المسيحى فى صورة امرأة ، كما جاء فى الكتب المقدسة ..

« وحيث أنه فى حالة المرأة المذكورة قد قام ألف دليل ودليل على أنها شيطـانة .. وحيث أنه من الضرورى ـ من أجـل سلامة المرأة المذكورة ذاتها ـ أن يفحص الأمر ، حتى لاتتعرض لاعتداء بعض أولئك الذين حطمتهم بشرورها ..

« فاننا نرجو ان تتكرموا بأن ترفعوا الى مسـامع سيدنا الروحى ، أب هـذه الأبروشية ـ صـاحب القـداسة رئيس الأساقفة « جيهان دومونسورو » ـ متاعب شعبه المحزون ، حتى يسدى نصيحته اليهم .. وبذلك تؤدون واجبات وظيفتكم ، بما يتحتم على كل المنوط بهم أمر المحافظة على سلامة هـذه المدينة .. كل منهم فى دائرة اختصاصه ..

« وقد تم توقيعنا على هذا الالتماس فى عام الرب الهنا :

ألف ومائتين وواحد وسبعين ، فى يوم جميع القديسين ، بعد القداس »

وبعد أن فرغ السيد « توربنوش » من قراءة هذا الالتماس، وجهنا نحن « هيروم كورنى » ، خطابنا لمقدمى الالتماس ، قائلين لهم : « هل أنتم مصممون ـ ايها السادة ـ على هذه الأقوال ، فى الوقت الحاضر ؟ .. وهل لديكم غير هذه الادلة المستمدة من معلوماتكم الخاصة ؟ وهل تتكفلون بتأكيد صحة هذه الاقوال على مقتضى الحقيقة ، أمام الله ، وامام الناس ، وأمام المتهمة ؟ »

وأصر الجميع ـ ماعدا السيد « جيهان رابليه » ـ على ادعائهم ، وقد انسحب رابليه المذكور من الدعوى ،قائلا انه يعتبر المراكشية المذكور امرأة طبيعية ، وانسانة طيبة ، ولاخطأ لها الا أن فى طبيعتها طاقة عظيمة من الحب .

وحينئذ وجدنا ـ نحن القاضى المشار اليه ـ بعد كثير من التروى ، ما نستند اليه فى رفع الدعوى بشأن التماس المواطنين السالفى الذكر . وقد اصدرنا أمرنا برفع الدعوى على المرأة ـ المحبوسة حاليا فى سجن المجمع ـ وتطبيق كافة الاجراءات القانونية اللازمة لذلك ، كماهى واردة بالقوانين والاوامر الرسمية .. وسيعلن هذا الامر المكتوب ـ بوساطة منادى المدينة ـ فى كل انحائها .. ويعلنه المنادى المذكور بواسطة البوق ، حتى يكون معلوما لدى الجميع ، وكل من لديه شهادة بهذا الصدد فليتقدم للادلاء بها ، وليكن مستعدا لمواجهته بالشيطانة المذكورة . واخيرا فاننا نصرح للمتهمة باحضار محام يدافع عنها حسب التقليد المتبع ، وسوف تتم الاجراءات ، والمرافعات طبقا للقانون .

(توقيع) هيروم كورنى
(الكاتب) توربنوش

• **فى عام** الرب الهنا : ألف ومائتين وواحد وسبعين ، وفى اليوم العاشر من فبراير ، بعد القداس ، بأمرنا نحن «هيروم كورنى » ـ القاضى الاكليريكى ـ قد احضرت من سجن المجمع المقدس ، الى حضرتنا ، المرأة المقبوض عليها فى منزل صاحب الفندق « توربتراس » ، الواقع فى املاك مجمع وكاتدرائية « سان موريس » ، وهى بذلك تكون خاضعة لسلطة القضاء الزمنى والاقطاعى لقداسة رئيس أساقفة (تور) .. وهى فضلا عن ذلك ـ بسبب طبيعة الجرائم المنسوبة اليها ـ خاضعة لمحكمة القضاء الاكليريكى ، وقد احطناها علمـــا بذلك ، حتى لا تكون جاهلة به ..

وبعد ان سمحنا للمرأة المذكورة بالاطلاع على أوراق الدعوى ، وبعد ان قرأتها قراءة دقيقة تنطوى على الفهم السليم التام لما تقرأه ، بادئة بالتماس أهل المدينة ، ثم أغضبها بأقوال الشهود ، والشكاوى والاتهامات والادعاءات ـ المدونة فى اربع وعشرين رقعة عريضة من الورق ـ شرعنا بمعونة الله ، والكنيسة ، فى العمل على الوصول الى الحقيقة باستجواب المتهمة المذكورة .

وقد طلبنا الى المتهمة ـ أول ما طلبنا ـ ان تخبرنا « فى أى أرض أو مدينة ولدت ؟ » .. فأجابت قائلة **« فى موريتانيا »**

فسألناها عما اذا كان لها أب أو أم او اى اقارب ؟ فأجابت بأنها لم تعرف أحدا منهم ابدا .

فسألناها عن اسمها ، فأجابت بلهجة عربية قائلة ان اسمها « سلمى »

وسألنا : كيف تتكلم بلغتنا ؟ فأجابت قائلة : « لانها جاءت الى هذه البلاد » .. فلما سألناها : «فى أى وقت ؟ » ، أجابت قائلة : « منذ حوالى اثنى عشر عاما »

فسألناها : « كم كان سنها فى ذلك الوقت ؟» فأجابت قائلة « خمسة عشر عاما او نحو ذلك » .. واذ ذاك سألناها :

« اذن فأنت تعتبرين نفسك فى السابعة والعشرين من عمرك؟ »
فأجابت قائلة : « نعم »

وهنا قلنا : « انها اذن الطفلة المراكشية التى وجدت فى كوة السيدة العذراء ، والتى عمدها رئيس الأساقفة ، وحملهاالى حوض المعمودية المرحوم الكونت دى روش كوربون ، وزوجته كونتة آزى ، ودخلت بوساطتهما ــ بعد ذلك ــ الى دير «مونت كارميل » ، حيث نذرت نفسها للتبتل والحرمان والوحدة ومحبه الله ، بمعونة القديس كلير .. فأجابت المتهمة : «هذا صحيح » .

فسألناها قائلين : « فأنت اذن تعترفين بأن ما قالته الام الجليلة رئيسة دير «مونت كارميل » ، وما قررته المدعوة فيزونج ــ خادمة المطبخ ــ صحيح ؟ » فأجابت المتهمة قائلة : « ان هذه الاقوال صحيحة الى حد بعيد ! »

وحينئذ سألناها قائلين : «فأنت اذن مسيحية ؟» فأجابت: « نعم ، يا أبى » !

فلما قالت ذلك ، طلبنا اليها ان ترسم علامة الصليب ،وان تتناول من الماء المقدس ــ من وعاء وضعه السيد توربنوش بين يديها ــ ففعلت . وقد شهدنا ــ بما لا يدع مجالا للشك ــ ان «سلمى» المراكشية ، المسماة فى بلادنا « بلانش بروين » راهبة دير «مونت كارميل » ، التى كانت تدعى فيه بالاخت «كلير» ــ والمتهمة بأنها شيطان فى شكل امرأة ــ قد أتت فى حضورنا عملا من أعمال الدين ، لكى يكون هذا موضع اعتبار المحكمة الاكليريكية .

ثم قلنا لها : « يا ابنتى ، أنت متهمة اتهاما قويا ، بأنك تستعينين بالشيطان .. ويدل على ذلك الطريقة التى هربت بها من الدير ؛ وهى طريقة غير طبيعية من كل وجه ! » ..

فقالت انها ــ فى ذلك الوقت ــ قد خرجت بطريقة طبيعية من باب الدير ، بعد صلاة الغروب ، مختفية فى ثياب الراهب

((جيهان دومارسيليز)) ، الذى كان يزور الدير فى ذلك اليوم، والذى أخفاها بعد ذلك فى كوخ يخصه فى زقاق (كيوبيدون)، خلف احد ابراج المدينة .. وانه هنالك اذاقها مباهج الحب التى كانت من قبل تجهلها كل الجهل ، وانها سعدت بهـــذه المباهج ، واستمرأتها كل الاستمراء ، ووجدتها أحلى من كل شىء فى الوجود ! .. وان البارون ((دامبواز)) رآها ــ يوما ــ تتكلم فى نافذة الكوخ ، فشغف بحبها .. واذ أحبته ــ هى كذلك ــ اكثر من حبها للراهب ، فانها هربت معه الى قلعـة (أمبواز) المملوكة للبارون المذكور ، حيث تمتعت هنالك بآلاف من لحظات السعادة ، ورحلات الصيد ، وحفلات الرقص ، والملابس الجميلة التى تليق بالملكات .. ثم حدث ــ فى احد الايام ــ أن دعا ((البارون دامبواز)) صديقه ((الكونت دولاروش بوزيه)) ، ليتناول معه الغداء ويسرى عن نفسه . **وهنـــاك سمح له بأن يراها وهى خارجة من الحمام ، فما ان أبصرها الكونت المذكور وهى عارية ، حتى وقع فى غرامها ، وسرعان ما استل سيفه ، وقتل به البارون ((دامبواز)) ، واستولى عليها ، وانطلق بها من القلعة . ثم أخذها معه الى الارض المقدسة، حيث عاشت هنالك معيشة المرأة المحبوبة المدللة المبجلة بفضل جمالها الفائق ..**

الا أنها ما لبثت ــ بعد عدة مغامرات من هذا النوع ــ ان عادت الى هذه البلاد ، رغم خوفها مما قد يصادفها هنا من سوء الحظ .. فقد كانت هذه هى رغبة سيدها وعاشقها ((البارون دو بويى)) ، الذى كاد ان يموت فى الارض المقدسة شوقا الى اقطاعيته فى أرض الوطن . وقد وعدها بأن يحميها من كل شر ، فأولته ولاءها وثقتها ، واحبته حبا عظيما ، الا أنه لم يكد يصل الى هذه البلاد ، حتى انتابه مرض شديد ، مالبث ان قضى عليه ، دون ان يقبل تناول اى دواء ــ رغم

تضرعاتها الحارة - لانه كان يكره الاطباء والجراحين والصيادلة . وان هذه هى كل الحقيقة !

وسألنا المتهمة عما اذا كانت تعترف - اذن - بصدق ماقرره السيد الفاضل «هاردوين» ، وصاحب الفندق «تورتبراس» .. فأجابت بأنها تعتبر الشطر الاكبر منه صحيحا ، الا ان بعضه ادعاء خبيث ، وافتراء كاذب ، وخيال سخيف .

* * *

• **وهنا** طلبنا الى الشيطانة ان تخبرنا بما اذا كان حقا ما علمناه ، من انها قارفت أعمال اللذة ، وكانت على صلة جسدية مع كافة النبلاء وغيرهم من المواطنين ، كما ورد فى الشكاوى التى تقدم بها أهل المدينة ضدها .. فأجابت فى قحة عظيمة : **« اما اللذة ، فنعم ! .. واما العلاقة الجسدية ، فلا أدرى ! »** .

واذ قلنا لها ان الجميع ماتوا نتيجة فعالها ، قالت ان موتهم لم يكن بفعلها .. **فلقد كانت ترفض - على الدوام - ان تهبهم نفسها ، ولكنهم كانوا يلاحقونها - بقدر ما كانت تهرب منهم - ويأخذونها فى احضانهم بشوق عنيف . واذ ذاك كانت تمنحهم نفسها بكل قوتها وحرارتها ، لانها كانت تشعر فى ذلك بلذة عظيمة ما كانت لتجدها فى أى شىء آخر !** .. وقررت انها ماجاهرت بمشاعرها الخفية هذه ، الا لاننا طلبنا اليها ان تذكر الحقيقة كلها ، وانها فى اشد الخوف من ألم التعذيب .

ثم طلبنا اليها ان تذكر لنا : فى أى حال من حالات العقل والشعور كانت تنظر الى أى شاب نبيل يموت عند قدميها نتيجة اتصاله بها ؟ فأجابت بأنها كانت تعانى عذابا شديدا وتود فى تلك اللحظة ان تقتل نفسها ، ولا تفتأ تبتهل الى الله والعذراء وجميع القديسين ان يتقبلوها فى الفردوس ، لأنها ما كانت تستقبل ابدا الا ذوى قلوب فاضلة مخلصة لاغش فيها

.. وكانت اذ تراهم يموتون بين يديها ، يتولاها الم عظيم ، وتعتقد انها مخلوق شرير ، او ضحية حظ تعيس يلاحقها كالطاعون !

ثم طلبنا اليها ان تذكر لنا أين تؤدى صلاتها . فقالت انها تصلى فى بيتها ، راكعة على ركبتيهــا أمام الرب الذى يرى ويسمع كل شىء ، ويوجد فى كل مكان ، كما جاء فى الاناجيل .

فطلبنا اليها ان تجيبنا عن السبب فى أنهــا لا تتردد على الكنائس او تحضر الاحتفالات فى الاعيــاد .. **فأجابت بأن أولئك الذين كانوا يفدون عليها للتمتع بحبها انما كانوايختارون على الدوام أيام الاعياد لهذه الغاية ، وانهــا تفعل كل شىء يرضيهم !**

قلنا لها أنها بذلك انما تخضع لرغبات الرجال ، أكثر مما تخضع لاوامر الله . فقالت انها من أجل أولئك الذين يحبونها، مستعدة لان تلقى بنفسها فى أتون النار . **وانها ما كانت تسير فى حبها على أى نظام ، وانما كانت تنطلق فى ذلك على سجيتها .. ولو وهبت وزن الارض ذهبا !! بذلت جسدها او حبها لملك ، مالم يكن قد احبها بقلبه وعقله وكل جارحة فيه .** وانها ما أتت أبدا أى عمل من اعمال الفسق ، لانها لم تبع يوما ذرة واحدة من الحب لرجل لم تكن قد اختارته ليكون حبيبها . وان ذلك الذى يضمهــا بين ذراعيـــه لحظة واحدة أو يقبل فمها قبلة واحدة ، انما يمتلكها كل ايامها ، وتصير له الى آخر عمرها !

وبعد ذلك طلبنا اليها ان تذكر لنــا من اين حصلت على المجوهرات ، والصحاف الذهبية ، والفضيات ، واليواقيت الثمينة والاثاثات الفخمة ، والطنافس الفاخرة ، والمائتى الف من الجنيهات ، الواردة فى قائمة حصر المنقولات التى وجدت فى مسكنها ، والتى وضعت تحت حراسة أمين خزانة المجمع . فأجابتنا قائلة انها تثق فينا ، وان اعتمادها علينا ، يكاد يماثل

اعتمادها على الله ، ولكنها لا تستطيع أن تجيب عن هـذا السؤال ، لأنه يتعلق بأجمل مباهج الحب التى عاشت عليها كل حياتها !

واذ أعدنا عليها السؤال مرة أخرى ، اجابتنا قائلة : **اننا نعلم بأى قوة وحرارة كانت تحب ذلك الذى تغرم به ، وبأى طاعة كانت تتبعه فى السراء والضراء — على السواء — وبأى خضوع كانت تذعن له ، وبأية سعادة كانت تلبى رغباته ، وبأى اعجاب كانت تتطلع الى شخصه . واننا — نحن قاضى التحقيق — لابد أن نرى من ذلك ، ماكان يراه أولئك الذين أحبوها — من أنه مامن مال يمكن ان يجزى هذا العشق العظيم الذى يجرى وراءه كل الرجال ..** واكدت لنا انها ما طلبت يوما من أى رجل احبته ، اية هدية او عطية او منحة ، وانما ظلت قانعة — على الدوام — بأن تعيش فى قلوبهم ، اذ كانت تشعر لذلك بسعادة لا سبيل الى وصفها ، لأنها كانت ترى نفسها اغلى من كل هدية .. وكانت لاتفكر الافى أن تهب عشاقها سرورا وبهجة يفوقان ماكانت تأخذه منهم .. ورغم رفضها كل الرفض أمثال هذه الهبات ، فان عشاقها كانوا يصرون على أن يسبغوا عليها افخر الهدايا .. فكانت تغضب من هذه الحماقات ، وان لم تكن تستطيع ان ترفض الاحتفاظ بحلية تتيح للحبيب — الذى كان يقدمها — مسرة .. وكان من العشاق من يجد مسرته فى ان يمزق الثياب الفاخرة التى مالبستها الا لتبهجه .. ومنهم من كان يحلو له ان يزين باليواقيت الزرقاء ذراعيها وساقيها وشعرها ونحرها وكل مكان فى جسمها ..

كانت رغبات عشاقها ونزواتهم تصادف اعظم السرور فى نفسها ، وكانت هذه الاشياء تطربهم وتفرحهم وتملأ جوانحهم غبطة !

واستطردت المتهمة قائلة ان الانسان لا يحب شيئا قدر ما يحب سعادته ، ويتوق الى أن يكون كل شىء مشرقا بالجمال

والتناسق ، فى خارج القلب كما هو فى داخل القلب .. ومن ثم فان عشاقها جميعا كانوا يشتهون ان يروا المكان الذى تقيم فيه مؤثثا بأجمل الرياش . وبهذه الفكرة كانوا يجدون سرورا عظيما فى ان يحيطوها بالذهب والحرير والزهور . واذ كانت ترى ان هذه الاشياء الجميلة لا ضرر منها لأحد ، فانها لم تكن تجد مقدرة على أن تمنع فارسا أو مواطنا غنيا تحبه ، من ان يأتيها بمثل هذه الاشياء ، مادامت هذه هى ارادته ورغبته .. **وهكذا وجدت نفسها مضطرة ان تتقبل العطور النادرة ، وغيرها من التحف الفاخرة التى ترامت عليها من كل حدب وصوب !** .. وكان هذا هو مصدر الذهب ، والصحاف ، والطنافس ، والمجوهرات التى وجدها رجال العدالة فى بيتها ..

وبهذا انتهى الاستجواب الاول الذى وجهناه الى الأخت « كلير » ، المتهمة بأنها شيطانة .. لأننا ، نحن قاضى التحقيق ، و «جيوم تورنبوش» قد شعرنا بالاعياء الشديد لسماع صوت المرأة المذكورة فى آذاننا ، كما أحسسنا باضطراب ادراكنا !

وقد حددنا للاستجواب الثانى ثالث يوم بعد اليوم ، حتى يتسنى لنا ان نمحص الادلة على وجود الشيطان فى جسد المرأة المذكورة ، وسيطرته عليها . وقد أمرنا نحن قاضى التحقيق باعادة المتهمة الى السجن .

* * *

◆ فى اليوم الثالث عشر التالى من شهر فبراير الجارى ، أمامنا نحن « هيروم كورنى » ، حضرت الأخت كلير السالفة الذكر ، لكى نستجوبها بشأن الوقائع والافعال المنسوبة اليها ، والمطلوب محاكمتها من أجلها .

وافتتحنا المحضر بأن قلنا للمتهمة أننا بمراجعة الاجابات المختلفة التى أدلت بها — عن الاسئلة السابق توجيهها اليها — قد تبينا وتأكدنا من ان هذه الاجابات لا يمكن ان تكون صادرة

عن امرأة عادية .. وانها ـ ولو كان مرخصا لها بأن تحيا حياة الفجور ، وان تمنح اللذة لكل من يقصدونها ـ فان العدد الكبير من الوفيات التى تسببت فيها ، واعمال السحر والكهانة التى تزاولها ، لا يمكن ان تتأتى جميعا الا بمساعدة شيطان ما يسكن فى جسدها ، نتيجة تحالف بينها وبينه ، باعث بموجبه روحها اليه . **واننا قد تثبتنا بوضوح من ان تحت مظهرها الخارجى شيطانا يقيم ويتحرك ، وهو فاعل هذه الشرور . واننا قد استدعيناها الآن لكى تخبرنا فى أى سنى عمرها قد استقبلت الشيطان ، وتصارحنا بالاتفاق المعقود بينهما ، وتقرر الحقيقة فيما يتعلق بأفعالهما الشريرة !**

فقالت أنها سوف تجيبنا ـ نحن قاضى التحقيق ـ كما تجيب الله الذى هو قاضينا جميعا ، ثم زعمت انها ما رأت الشيطان قط ، ولا كلمته ، ولا هى ترجو ان تراه اطلاقا .. وانها ما زاولت قط حياة العاهرات ، لانها لم تمارس من فنون الهوى ، سوى تلك التى تنبع عن المتعة التى بثها الخالق الاعظم فى الحب .. **وانها ما كانت مدفوعة فى ذلك بأية شهوة هوجاء ، وانما بالرغبة فى ان تحلو وتروق للسيد الذى يهواها ! ..** فاذا كان ما فعلته وليد شهوة ـ دون ان تدرى ـ فقد رجتنا المتكلمة بأن نذكر انها افريقية بائسة ، أجرى الله فى عروقها دما حارا ، وغرس فى عقلها الساذج معرفة بلذائذ الحب ، فلا يكاد ينظر اليها أى رجل نظرة واحدة ، حتى تشعر بهزة عنيفة فى قلبها .. وما ان يمس اى فتى فاتن أى جزء من جسمها ، حتى تقع تحت سلطانه .. **فان قلبها لا يلبث على الفور ان يخذلها ، واذا هذه اللمسة تعيد الى ذاكرتها وتوقظ فى صدرها كل ملذات الحب ومسراته ، وتبعث حرارة جارفة ، يعلو لهيبها ، ويجرى سعيرها فى كل عروقها ، ومن ثم يتفجر بركان الحب فى كل كيانها ! ..** وانها منذ اليوم الذى ايقظ فيه دون مارسيلس ادراكها لهذه الأمور ـ لأول مرة ـ لم تعد

تفكر فى سواها . فأصبحت ـ من ذلك الحين ـ تعتبر الحب ضرورة تلائم طبيعتها ، حتى لقد تحقق لديها ـ منذ ذلك الوقت ـ انها كانت خليقة بأن تموت وتذوى فى الدير ، اذا ما حرمت من الحب ومباهجه الطبيعية .. والدليل على هذا أنها لم تقض يوما واحدا ، بل ولا لحظة واحدة ـ بعد فرارها من الدير ـ فى حزن او شجن ، وانما كانت على الدوام سعيدة مبتهجة . وهكذا تبعت ارادة الله المقدسة ، التى تعتقد انها كانت منصرفة عنها أثناء الوقت الذى اضاعته فى الدير !

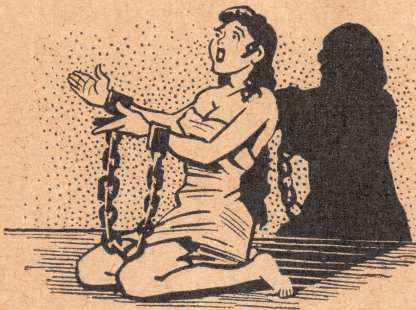
وهنا اعترضنا ـ نحن « هيروم كورنى » ـ على الشيطانة المذكورة ، لانها بهذا القول قد جدفت صراحة على الله ، فما خلقنا جميعا الا من أجل مجده العظيم ، وما جىء بنا فى هذا العالم الا لنعبده ، ولنضع نصب أعيننا على الدوام اوامره المقدسة ، فنعيش حياتنا كلها فى طهارة ، كى ننال الحياة الابدية .. وليس لنقضى العمر فى فراشنا ، نفعل مالا تفعله الحيوانات الا فى أوقات معينة . فأجابت بأنها تمجد الله كل تمجيد ، وانها حرصت ـ فى كل البلدان التى حلت فيها ـ على اعانة المعوزين والمعذبين ، مانحة اياهم المال والثياب ، وانها تأمل ان تحف بها ـ يوم الحساب ـ حاشية طيبة من الاعمال الصالحة التى تروق فى عينى الله ، وتشفع لها عنده . **وانها اولا هوانها ، وخوفها من غضب رجال المجمع المقدس ، لأنفقت ـ بكل سرور ـ كل ثروتها فى اتمام بناء كاتدرائية « سان موريس » ، ولأنشأت فيها ما يكفل طمأنينة روحها .. وبذلك تستمد متعة جديدة من ليالى الحب ، لان كل واحد من عشاقها ما كان ليضن بأن يضيف حجرا الى بناء هذا الهيكل المقدس .. وانهم ـ فى سبيل هذا الغرض كذلك ، ومن أجل سعادتها الابدية ـ جديرون بأن يجودوا بثرواتهم !**

ثم قلنا لهذه الشيطانة انها لا تملك ان تبرر عقمها ، اذ أنها لم تنجب طفلا واحدا ، برغم علاقاتها التى لا حد لها .. وهذا

دليل على وجود الشيطان فى نفسها .. فضلا عن انه لا يملك ان يتكلم بكل اللغات ، وبلهجات كل الاقوام سوى «عشتروت» أو احد الرسل .. وهذا دليل آخر على وجود الشيطان فى جوفها ! .. فقالت : «وما هى هذه اللغات ؟» .. اماالاغريقية، فانها لم تكن تعرف منها الا كلمة « كيريا ليصون » التى تكثر من استعمالها . واما اللاتينية ، فلم تكن تعرف منها سوى كلمة « آمين » ، التى تقولها لله ضارعة اليه ان يرد اليهـا حريتها . وفيما عدا ذلك ، فانها لتشعر بأسى عظيم لانها لم ترزق أولادا . واذا كانت الزوجات الفاضلات ينجبن ، فماذلك – فى اعتقادها – الا لانهن لايجنين من الاتصال بالازواج سوى متعة ضئيلة ، فى حين انها كانت تحظى بمتعة اكثر . ومع ذلك فما من شك فى انها ارادة الله ، الذى رأى بعظيم حكمتـه ان الدنيا تتعرض للهلاك ، اذا تمتعت كل النسـاء باللذات العارمة !

واذا تأملنا هذه الاقوال – التى ادلت بها المتهمة – لوجدناها تأكيدا قاطعا على وجود الشيطان فى جسدها ، لان الشيطان يمتاز بأنه يبتكر – دواما – حججا مارقة ، تلبس ثوب الحق. **ولذلك فقد أصدرنا امرنا باستعمال وسائل التعـذيب فى حضورنا لقسر الشيطانة المذكورة على الخضوع لسلطان الكنيسة .** وطلبنا لهذا الغرض معاونة السيد فرانسـوا دوهانجست ، طبيب المجمع ، وكلفناه – بمقتضى التفويض المرفق بهذا – بأن يفحص المتهمة ، ويتحقق من وجود صفات الانوثة فى جسدها الظاهر امامنا ، وان يبين للكنيسة الوسائل التى تستعملها لكى تسيطر بها على المسيحيين !

واذ ذاك بكت المتهمة بكاءا مريرا ، وهى تتمثل التعذيب قبل وقوعه . وبالرغم من اغلالها ، جثت امامنا ، مستغيثة مستعطفة – وهى تبكى – قائلة ان اطرافها ضعيفة واهنة ، وعظامها هشة لا تحتمل قسوة الايلام ، وانما هى خليقة بان



تتهشم كالزجاج .. ثم عرضت ان تبتاع خلاصها من ذلك ، بأن تمنح للمجمع كل املاكها ، وان تغادر البلاد فى الحال !.. وهنا سألناها ان تعترف بمحض اختيارها ، بانها شيطانة من اناث الشياطين ، تعمل على افساد المسـيحيين ، باغوائهم واغرائهم بملذات الحب . فأجابت بأن الاقرار بذلك سيكون كذبا شنيعا .. اذ أنها تشعر دائما بأنها امرأة طبيعية ، عادية!

وعندئذ رفع الرجل ـ الموكل بتعذيبها ـ اصفادها فانحسر عنها ثوبها . واذ ذاك ، بهرتنا واضلت عقولنا بمنظر جسدها ، الذى يؤثر اخبث تأثير على الرجل حقا !

وفى هذه اللحظة ترك السيد «جيوم توربنوش» قلمه وانسحب، محتجا بأنه لا يستطيع ان يشهد وسائل التعذيب هذه ، لانه يشعر ان الشيطان يغزو جسده بعنف ! .. ولذلك فقد انهينا ذلك الاستجواب الثانى . ولما كان المجمع قد انتدب السيد « فرانسوا دوهانجست » لعمل آخر فى المدينة ، فقد قررنا ارجاء عملية التعذيب والاستجواب الى ظهر الغد ، بعد صلاة القداس ..

وقد توليت ـ انا هيروم ـ اكمال كتابة المحضر بنفسى ،بعد انسحاب السيد جيوم توربنوش ، ووقعته باسمي : « هيروم كورني »

التماس

• **حضر** اليوم ، الرابع عشر من شهر فبراير ، امامنا — نحن هيروم كورنى — السادة المذكورون : « جيهان ريبو » ، و«انطوان جيهان» ، و «مارتن بويرتييه» ، و«هيروم ماشيفر»، و «جاك دوفيدومير» ، والسيد ديدريه ، نيابة عن عمدةمدينة (تور) المتغيب فى الوقت الحاضر .. وهم مقدمو الشكوى فى قضية المدعوة «بلانش بروين» ، التى سبق لها ان اعترفت بأنها من راهبات دير « مونت كارميل » ، حيث تحمل اسم الاخت كلير . وكنا قد اعلناهم بالاستئناف المرفوع من المرأة المذكورة طالبة فيه حكم الله ومبدية استعدادها لان تجتاز الامتحان النهائى ، تحت الماء والنور ، بحضور اعضاء المجمع المقدس وأهالى مدينة (تور) ، لتبرهن على انها ليست شيطانة وانما هى امرأة طبيعية ، ولتثبت بذلك براءتها .

وقدابدى الحاضرون موافقتهم على هذاالالتماس ، وتعهدوا باعداد المكان المناسب وكومة الحطب اللازمة لاشعال النار . وحددنا — نحن قاضى التحقيق — اول ايام السنة الجديدة للقيام بالاجراءات ، وهو اليوم التالى لعيد «باسكال» ، على ان يتم التنفيذ فى ساعة الظهيرة — بعد القداس — واحطنا كل أصحاب الشأن علما بذلك . وسوف يعلن المنادى هذا القرار فى كل مدن اقليم (تورين) وقراها وقلاعها ، طبقا للقانون — **«هيروم كورنى»**

٣ — ما فعلته الشيطانة ، لتستولى على روح القاضى الشيخ . وما وقع من الملذات الشيطانية

• **هذه** هى وثيقة الاعتراف الكامل ، المحررة فى اليوم الاول من شهر مارس من سنة ألف ومائتين وواحد وسبعين ، بمعرفة «هيروم كورنى» ، الكاهن ، وقاضى مجمع كاتدرائية

سان موريس ، وكبير آباء الاعتراف ، وهى المناصب التى يقر ويعترف انه ليس أهلا ولا مستحقا لها ، وهو الخاطىء الذى يرى ان ساعته الاخيرة قد حانت ، والذى يرغب ـ بقلب منسحق من آثامه ، وشروره ، وخداعه ، وخبثه ـ فى اعلان اعترافه وندمه ، خدمة للحقيقة ، وتمجيدا للرب ، واقرارا للعدالة ، عسى ان يشفع ذلك فى تخفيف عقوبته فى العالم الآخر . فقد استدعى «هيروم كورنى» المذكور ـ وهو على فراش موته ـ الاب « جيهان دولاهاى » ، كاهن كنيسة سان موريس ، و «بييترو جيار» ، امين خزانة المجمع ، الموفد من قبل سيدنا « جيهان دى مونسورو » ـ رئيس الاساقفة ـ ليكتب اقواله ، ودون لويس بوت ، راهب دير (مارموتييه) ـ الذى اختاره المعترف ليكون اباه الروحى ومتلقى اعترافه ـ والسيدالجليل الدكتور جيوم دوكونسورى ، «الارشيداكيون» الرومانى ـ الموفد فى الوقت الحاضر الى ابروشيتنا من ابينا صاحب القداسة البابا ـ وعددا كبيرا من المسيحيين الذين جاءوا ليكونوا شهودا ، وفقا لرغبة «هيروم كورنى» المذكور ـ المشرف على الموت ـ فى ان يعلن اعترافه وندمه على رؤوس الاشهاد ـ وهو يرى انه ينهار بسرعة ـ ويرجو ان يفتح بكلماته أعين المسيحيين فلا يتردون فى هوة الجحيم .

« واذ كان هيروم المذكور قد بلغ اقصى درجات الضعف والوهن ، حتى أصبح غير قادر على الكلام ، فقد تولى «دون لويس بوت » قراءة اعترافه بجوار فراش موته .. وهذا هو نص الاعتراف الذى قرأه على الجماعة المذكورة ، التى كانت تستمع اليه فى دهشة بالغة وجزع عظيم :

« يا اخوتى : حتى السنة الواحدة والسبعين من عمرى ، التى بلغتها اليوم ، اعتقد اننى ـ فيما عدا الخطايا الصغيرة التى يقع فيها كل مسيحى ، مهما تكن قداسته ـ عشت عيشة مسيحية ، واستحققت الثناء والذكر العاطرين ، مما كوفئت

عليه فى هذه الابروشية ، اذ رقيت الى وظيفة كبير آباء الاعتراف التى لا أستحقها ! .. والآن وقد اقتربت ساعتى ، وبدأت سكرات الموت تدفع بى الى المصير الذى ينتظر الاشرار والضالين فى أتون الجحيم ، رأيت ان أخفف من فداحة خطاياى بالندم الاعظم الذى قررت ان اعلنه فى اللحظة الاخيرة ، عسى ان يشملنى الله ببعض رحمته . ولذلك فقد توجهت بضراعتى الى الكنيسة ـ التى خدعتها وغدرت بها ، وبعت أمانتها ولوثت سمعتها ـ كى تمنحنى فرصة اعلن فيها على الناس أثمى وجرمى ، على طريقة المسيحيين القدماء . وقد ساورنى الامل فى أن يكون باقيا فى جسدى من الحياة ما يمكننى به ان ابدى ندمى ، وان اتلقى كل صنوف اللعنة والمهانة عند باب الكاتدرائية من كل أخوتى . **وان ابقى هناك يوما كاملا ، حاسر الرأس حافى القدمين جاثيا على ركبتى ، ممسكا شمعة فى يدى ، وواضعا حبلا فى رقبتى ، جزاء ما اقترفته اذ سرت فى مسالك الجحيم !** ..

وازاء هذا المصير التعيس الذى آلت اليه فضيلتى المنهارة ، وعفتى الذاهبة ـ والذى يجب أن يكون بالنسبة اليكم انذارا صارخا بأن تفروا من وجه الرذيلة ومكائد الشيطان ، وان تعتصموا بالكنيسة ، حيث النجاة والخلاص ـ واذ كنت ضحية لا حول لها ولا قوة امام مكائد الشيطان الماكر الخبيث ، فأننى ليحدونى الرجاء العميق بأن يستمع مخلصنا يسوع المسيح الى وساطتكم أنتم جميعا ، يامن ألتمس معونتكم وصلاتكم ورحمتكم بى ، أنا المسيحى المسكين الخاطىء الذى تفيض عيناه الآن بالدموع .. ولو اننى وهبت حياة اخرى لقضيتها فى أعمال الندم والتوبة والتكفير عن ذنبى العظيم !.

« والآن ، اسمعوا وارتجفوا بخوف عظيم ! .. فلقد اختارنى المجمع منعقدا ، لكى أقوم بتحقيق الدعوى التى أقيمت ضد شيطانة ، ظهرت فى شكل امرأة ، تمثلت فى راهبة هاربة من الدير ، تحمل اسم «سلمى» ـ فى البلد الذى جاءت منه ـ

وتعرف فى الابروشية باسم الاخت «كلير» ، من راهبات دير «مونت كارميل» .. وقد ازعجت المدينة واشاعت فيها الذعر والقلق ، اذ ألقت شـباكها على عدد لا يحصى من الرجال ، فاقتنصت أرواحهم ، ملقية بها بين براثن ابليس وعشتروت ومامون امراء الجحيم .. **وقد وقعت انا نفسي - انا القاضي - فى هذه الشباك ، فى أواخر ايامى ، ففقدت عقلى ، والتمست المنافذ لاروغ من الواجب الجليل الذى اختارنى له المجمع المقدس ، لثقته فى رزانتى ووقارى !** .. فبالله فلكم كانت هذه الشيطانة غاوية ، وكم استطعت - فى اول الامر - ان أصمد أمام حيلها واحابيلها !

« ففيما كنت أنصت الى الاجابات الأولى للشيطانة المذكورة ، رأيت - فى ذعر - أن القيود المحيطة بيديها وقدميها ، لم تكن تترك أثرا فى جسدها ، فأدهشتنى قوتها الخفية التى كانت تتناقض مع ضعفها الظاهر .. **الا أن عقلى ما لبث أن اضطرب فجأة ، اذ وقع بصرى على مفاتن الطبيعة التى كانت تتجلى فى تقاطيع جسدها .. وأصغيت الى موسيقى صـوتها ، التى بعثت الحـرارة فى كل جسمى ، وجعلتنى أتمنى أن أعـود شابا ، وأن أهب نفسي لهذه الشيطانة ، موقنا من أن خلاص روحى ثمن زهيد لساعة واحدة بجوارها ، بل لحظة واحدة بين ذراعيها البديعتين !..** وهكذا لم ألبث أن فقـدت أمام نظراتها الساحرة ، ذلك الثبات الذى ينبغى - على الدوام - أن يكون أول صفة من صفات المحققين والقضاة .. واذ بدأت أوجه أسئلتى اليهـا ، راحت تجيبنى ، وتجادلنى ببراعة أذهلتنى ، حتى أننى ما انتهيت من استجوابها حتى اقتنعت اقتناعا تاما بأننى انما ارتكبت جريمة اثيمـة ، اذ عرضت لأساليب التعذيب والقسوة هذه الصبية المسكينة التى كانت تبكى كطفل برىء .. على أن هاتفا علويا لم يلبث أن حذرنى ، طالبـا منى أن أقـوم بواجبى ، قائلا لى أن هذه الكلمـات

الذهبية ، وهذه الموسيقى السماوية ، لم تكن سوى خدع شيطانية .. وأن هذا الجسد الفائق الجمال الطاغى الفتنة ، سرعان ما يتحول الى وحش مفترس ذى أنياب حادة ، ومخالب جارحة .. وأن هاتين العينين الساجيتين الساحرتين ، لا تلبثان أن تنقلبا الى جمرتين من جمرات الجحيم .. وأن عودها اللدن الرطيب لا يلبث أن يثبت له ذيل ذو حراشيف .. وفمها الوردى ذا الشفتين الشائقتين سرعان ما يستحيل الى فكى تمساح .. فثبت الى عقلى ، وشددت من عزيمتى ، مصدرا أمرى بطرح هذه الشيطانة على آلة التعذيب ، حتى تعترف بكنهها وحقيقة طبيعتها .. **الا انهم لم يكادوا يخلعون عنها ملابسها ليعذبوها ، فأرى جسدها عاريا ، حتى وقعت فجأة تحت سلطانها وقوة سحرها ، وشعرت بعظامى الهرمة الهشة قد اشتد عودها ، ونفذ الى عقلى نوردافىء ، وأرتد قلبى شابا ، يرسل الدماءتغلى فى عروقى .. واذا بالثلوج المتراكمة على جبينى تذوب ..** وفقدت كل شعور بحياتى المسيحية ، ووجدتنى كتلميذ صغير يهرب من مدرسته ليسرق التفاح .. ولم تعد لى قدرة على أن أرسم علامة الصليب ، ولا عدت أذكر الكنيسة ، ولا الله الآب ، ولا الابن مخلص البشر . ورحت أهيم فى الطرقات، مفكرا فى سحر ذلك الصوت ، وفى مفاتن ذلك الجسد اللذين أوتيتهما الشيطانة ، محدثا نفسى بألف خاطر طائش .. حتى اذ نفذت فى أعماقى مذراة الشيطان ـ الذى كان قد استقر فى رأسى كثعبان فى جذع سنديانة ـ قادتنى تلك المذراة ذات الشعب المسنونة نحو السجن ، رغم ارادة ملاكى الحارس ، الذى ما فتىء يردنى ـ من آن لآخر ـ ويدفع هذه المغريات عنى .. الا أننى رغم نصيحته المقدسة ومعونته التى كان يبذل أقصى الجهد فى اسدائها لى ، شعرت بألف مخلب تنغرس فى قلبي ، وسرعان ما وجدت نفسي فى السجن الذى حبست

الشيطانة فيه . وما أن فتح الباب لى حتى اختفى عن بصرى كل مظهر من مظاهر السجون ، اذ كانت الشيطانة قد أقامت - بمساعدة الجن والعفاريت - سرادقا من الحرير والدمقس تتضوع فى أرجائه رائحة العطور والأزاهير . ورأيتها جالسة على سجيتها ، فلا أغلال فى عنقها ، ولا أصفاد فى يديها ، ولا سلاسل فى قدميها .. **وارتضيت لنفسى أن أجرد من ثيابى الكهنوتية . وبعد أن أدخلت فى حمـــام تفوح منه الروائح الذكية ، اقبلت الشيطانة فدثرتنى بثوب عربى ، وأجلستنى على مائدة حافلة بالأطعمة الشهية ، والخمور الأسيوية ، والكؤوس الذهبية ، والصحاف الفاخرة .. وقد انبعثت حولنـــا موسيقى رائعـــة ، تسربت الى روحى فأبهجتها وأفرحتها** . وجاءت هذه الشيطانة فبقيت كل الوقت الى جانبى ، وعناقها اللذيذ يدفع بمزيد من الحرارة فى أعضائى .. وقد فارقنى ملاكى الحارس ، فلم أعد أعيش الا بالضـــوء الجبار الذى كان يشع من عينى المرأة المراكشية ، ملتصقا بجسدها الدافىء البديع ، مشتهيا طيلة الوقت أن أرشف شهد شفتيها العقيقيتين ، اللتين كنت أخالهما فى تلك اللحظة طبيعيتين ، فلم أخش من عضة أسنانها التى تجر الانسان الى قاع الجحيم . وكنت أستشعر البهجة والتلذذ بنعومة يديها - التى لا تدانيها نعومة - دون أن يخطر ببـــالى أنهـــا مخالب غير بشرية . وهـكذا رحت أتصرف كزوج يشـــتهى عروســـه ، دون أن يحسب أن هذه العروس هى المـــوت الأبدى . ولم أعد أفكر فى أمور هذا العـــالم ، ولا فى مجد الرب ، وانما غرقت الى أطراف شعرى فى النشوة ، فلم أعد أشعر بشىء فى الدنيا الا بالحب ، ولم أعد أعلم الا بصدر تلك المرأة ، وبأبواب جحيمها الذى كنت مشـــوقا الى أن أرتمى فيه .. فوا أسفاه ، يا اخوتى ، لقد غصت فى لجة الاشتهاء حتى قرارها .. **وظللت ثلاثة أيام ، وثلاث ليال أنهك قواى ،**

دون أن أملك ايقاف التيار الذى انهمر فى عروقى ، وقد فجرته تلك الشيطانة التى روت شيخوختى وعظامى الجافة برحيق الحب ، الذى لم أدر كنهه !.. وكان حبها لى فى بدئه ينساب فى بدنى ناعما كاللبن ، ثم ما لبث أن اشتد لهيبه ، وراحت السنة سعيره تخزنى وكأنها آلاف من الابر سلطت على ضلوعى ، ونخاعى ، ومخى ، وأعصابى .. ثم دبت النار فى كل كيانى ، فرحت ألظى بنيران جحيم حقيقى ، وأخذت أعانى أفظع آلام العذاب .. وكنت خلال هذه المتعة القاتلة أرى وجه الشيطانة وقد توهج كالجمرة الملتهبة ، وراحت تضحك وقد استخفها الطرب ، هاتفة من فرط النشوة والشهوة : « يا فارس ، يا مولاى ، يا فرحى ، يا نهارى ، يا بهجتى ، يا حياتى ! » .. وهى لا تفتأ تضمنى اليها فى شدة تزيد ثم تزيد ، حتى كأنها تريد أن تدخلنى فى ذات جسمها ، أو تدخل هى فى ذات جسمى ، وتمزج رسمها برسمى

وبينما كان الدم يجف فى عروقى ، والدنيا تغيم فى وجهى — لفرط ما بذلت من ماء الحياة فى حبى — ظلت هى منتشية ، منتعشة ، متأججة .. وراحت تقول لى ضاحكة :

— أيها الأحمق المسكين ، يا من كنت تحسبنى شيطانة !.. لو أننى طلبت منك الآن أن تبيعنى روحك من أجل قبلة ، أفلا تعطينيها مع كل قلبك ؟!

فقلت لها : « بلى » .

فقالت : **« لو أنك داومت على ما تفعل الآن ، اوجب عليك أن تغذى نفسك بدماء الأطفال الحديثى الولادة ، كى تتوفر لديك — دائما — حياة جديدة تبذلها بين ذراعى .. أفلا تقبل على رشف هذه الدماء عن طيب خاطر ؟ »**

فقلت لها : « بلى » .

فقالت : **« ومن أجل أن تكون دائما فارسى ، وتكون مرحا**

كشاب فى عنفوان شبابه ، مستمرئا الحيـاه ، شـاربا كأس اللذة ، غائصـا فى لجج المسرة ، كما يغـوص السابح فى نهر اللوار .. أفلا ترتضى أن تجحد الله ، وتجدف على المسيح ؟»

فقلت لها : « بلى » .

فقالت : « فاذا قدر لك أن تسترد الآن عشرين عاما من حياة النسك والرهبنة ، أفما تبذلهـا فى نظير سنتين اثنتين تقضيهما غارقا فى هذا الحب ، مقبلا على هذه الملهاة العذبة ؟»

فقلت لها : « بلى » .

عندئذ شعرت بألف مخلب حاد تمزق أحشائى ، ثم اذا بقوة سحرية ترفعنى عن الأرض وقد امتطيت ظهر الشيطانة التى نشرت جناحيها فى الفضاء وهى تهتف صـائحة بى : « اركب ، اركب ، يافارسى الهمام !.. اثبت على ظهر مطيتك ، وتشبث بناصيتها ورقبتهـا .. أركب ، أركب ، يافارسى الهمام .. فكل شىء يركب ! »

حتى اذا ارتفعت بى فى الجـو تراءت لى مـدن الأرض كرقعات من الضباب الكثيف ، وهنـالك رأيت كل رجـل تصحبه شيطانة ، وقد تعانقـا فى شـهوة عظيمة ، والكل يصرخون بكلمات الهوى ، وهتافات الهيـام ، ويرتجفون من فرط النشوة .. وفيما نحن منطلقان ، أشـارت الى مطيتى ذات الرأس المراكشى ــ وهى تطير وتقفز بين السحاب ــ الى الأرض وقد استلقت بين أحضان الشمس وانبثقت منهمـا النجوم .. ثم أدرت البصر من حولى فاذا كل أنثى من الكواكب تعانق كوكبا ذكرا ، وكل عالم يعانق دنيـا .. وبدلا من الكلمات والشهقات التى ينفثها البشر فى ساعة اللذة ، كانت الأكوان تصدر هزيم العواصف ، وقصف الرعود ، وهى تنفث وميض الصواعق !.. حتى اذا بلغنا آخر المدى فى اجـواز الفضاء ــ ونحن سادران فى الصعود ــ رأيت الطبيعة الأنثى كلها ترتمى فى أحضان أمير الحركة وتطارحه الهـوى ..

واذ ذاك أرادت الشيطانة أن تمازحني وتسخر مني ، فألقت بي في معمعان المعركة الأبدية المروعة ، فغصت كما تغوص ذرة من الرمال في البحر .. وما لبثت شيطانتي أن صاحت بي : « أركب . أركب . يافارسي الهمام ، فكل شيء يركب ! » وفي تلك اللحظة تصورت مدى تفاهة الراهب في لجج العوالم المتلاطمة .. فها هي ذي الطبيعة كلها تتعانق : المعادن ، والأجواء ، والمياه ، والأحجار ، والرعود ، والاسماك والنبات ، والحيوان ، والانسان ، والارواح ، والاشباح .. كلها تتعانق في وجد !.. فكفرت بالعقيدة الكاثوليكية ، وآمنت بقوة الحب السرمدية ، وما لبثت أن ضممت شيطانتي الساحرة بأعنف ما في امكاني وكياني ، وأنا أشتهي أن أشعر بأنني أضم الطبيعة كلها بين أحضاني !

* * *

• **وما لبثت** أن شعرت بضعف هائل ينتابني من جراء ما بذلت من جهد جبار ، واذا بي أسمع ضحكة جهنمية مجلجلة ، فانتبهت لأجد نفسي في فراشي ، يحيط بي خدمي الذين أبدوا منتهى الشجاعة في مقاتلة الشيطانة ، اذ ألقوا على فراشي ملء حوض من الماء المقدس ، وهم يرددون الصلوات الحارة الى الله . ومع ذلك ، فقد اضطررت — برغم عونهم — الى أن أخوض معركة عنيفة مخيفة مع الشيطانة المذكورة ، اذ كانت مخالبها لاتزال ناشبة في قلبي ، مسببة لي أشد الآلام .. **فما أن أفقت الى نفسي ، حتى رحت أحاول أن أرسم علامة الصليب المقدسة ، في حين كانت الشيطانة الخبيثة تستلقي على فراشي ..** كانت صورتها في كل شبر من السرير ، وقد انهمكت في اغوائي واذكاء حرارتي ، ضاحكة ، مداعبة ، متمسحة ، قابضة على خصلات شعري ، رابضة على صدري ، عارضة أمامي ألف صورة فاحشة ،

نافثة فى كيانى ألف شهوة داعرة !

واذ رآنى سيدى رئيس الأساقفة ـ على هـذه الحال ـ أخذته الشفقة بى ، فأمر باحضار صندوق الآثار الباقية من جثة القديس «جاتيينى» .. فما أن مس الصندوق فراشى ، حتى أسرعت الشيطانة بالفرار ، تاركة خلفها رائحة كرائحة الكبريت ، نفذت الى حلوق خدمى وسائر أصدقائى فأحرقتها فلما سطع نور الله فى انحاء حجرتى وضاء روحى ، أحسست بأننى أصبحت على شفا الموت ، بسبب أثمى الذى خلفت عنه الامى وأوجاعى ، فتضرعت الى الله أن يهبنى قدرا من القوة عيش به زمنا قصيراً يمكننى فيه ان ابدى ندمى أمام ربى ، وأكفر عن ذنبى .. فقبـــل الرب ضراعتى ووهبنى فســحة من الوقت يتسنى لى فيهـــا أن أعلن على الناس خطاياى ، وأن اتوسل الى أعضاء كنيسة « القديس موريس » أن يصلوا من أجلى ، اذ أوشك أن انطلق الى النار الأبدية ..

ومن أجل ذلك أدلى باعترافى هذا ـ أمام الجميع ـ مقرراً أن الالتماس الذى قدمته الشـيطانة المذكـورة ، مبديه فيه استعدادها لاجتياز امتحان الماء المقدس والنار ، لم يكن الا خدعة ماكرة كانت تقصد من ورائها النجاة من قرار محكمة رئيس الأساقفة والمجمع المقدس .. فلقد اعترفت لى سرا بأن فى مقدورها أن تكلف شيطانة أخرى ـ ألفت اجتياز هذا الامتحان ـ بأن تظهر فى مكانها !.

وفى الختام أعلن اننى أنزل عن جميع أملاكى وأوصى بهـا لمجمع كنيسة القديس موريس ، ليتسنى له بناء دار للمجمع وزخرفتها ، وتكريسها باسم القديسين هيروم ، وجاتيينى ، اذ أن أحدهما شفيعى ، والآخر منقذ روحى !..

وبعد أن سمع الجميع نص هذا الاعتراف وضعه «جيهان دو لاهاى » تحت أنظار المحكمة الاكليريكية .

• **نحن** « جيهان دولاهاى » ، المنتخب أبا أعظم للاعتراف بكاتدرائية القديس موريس – بوساطة الجمعية العامة للمجمع ، طبقا لتقاليد وطقوس هذه الكنيسة – والمعين لاعادة الاجراءات فى قضية الشيطانة ، المحبوسة حاليا فى سجن المجمع .. قد أصدرنا أمرنا باجراء تحقيق جديد فى القضية المذكورة ، وسماع أقوال كل مواطن فى هذه الأبروشية ، تكون لديه معلومات عن موضوع القضية المذكورة .. وذلك اذ نقرر أن الاجراءات التى تمت حتى الآن ، أصبحت كلها لاغية وباطلة ، بكافة ما تتضمنه من استجوابات واقرارات وقرارات ، وقد أصدرنا أمرنا هذا باسم أعضاء الكنيسة عموما ، والمجمع المقدس منعقدا .. كما نقرر أن الاستئناف المتضمن قبول حكم الله باجتياز امتحان الماء والنار ، الذى رفعته الشيطانة – خداعا منها – قد اعتبر كأن لم يكن ، ولن يصير اجراء الامتحان المذكور نظرا لما عمدت اليه الشيطانة من غش وخداع .. وسيعلن قرارنا هذا بوساطة البوق فى كل أنحاء الأبروشية ، التى سبق أن أعلنت فيها القرارات الباطلة السابق اصدارها فى الشهر الماضى ، والتى صدرت تحت تأثير خداع الشيطانة وأغوائها ، طبقا لاعترافات المرحوم « هيروم كورنى » .

جيهان دو لاهاى

كيف أفلتت المرأة المراكشية من قيدها
وكيف أمكن بعد ذلك احراقها وهى حية ؟

• **كتب** هذا فى شهر مايو من عام ألف وثلاثمائة وستين ، فى صيغة وصية :

« أى ابنى العزيز ، يا أحب الناس عندى ، وأقربهم الى

قلبى : حينما يغدو فى امكانك أن تقرأ هذا سأكون ـ أنا أبوك ـ راقدا فى القبر ، طالبا صلواتك ، متوسلا اليك أن تسلك فى الحياة ما رسمته لك هنا من طريق ، باذلا أقصى جهدك فى رعاية عائلتك ، وضمان مستقبلك وسلامتك ..

لأننى انما كتبت هذا فى الوقت الذى كنت فيه متأثرا بما رأته عينى من ظلم البشر .. فلقد كنت ـ فى صدر شبابى ـ شديد الطموح لأن أصل الى مركز رفيع فى الكنيسة ، اذ كنت أعتقد حينذاك أنه ما من حياة أبدع من حياة الكهنوت .. وعلى هدى هذه الفكرة المتألقة انطلقت أتعلم القراءة والكتابة بهمة وعزم ، وأعددت نفسى ـ بعد مجهود متواصل وتعب شديد ـ لأن أنخرط فى سلك الأكليروس .. ولما لم يكن لى من وسيط ولا معين ، فقد رأيت أن أقنع بأن أكون موثقا لدى مجمع سان موريس ، الذى كان يضم أرفع وأغنى شخصيات العالم المسيحى ، ولم يكن ملك فرنسا الا مجرد عضو فيه .. مما كان يتيح لى الفرصة ـ أكثر مما فى أى مكان آخر ـ لأن أجد سيدا يمكننى بمساعدته أن أعين فى وظيفة من وظائف رجال الدين ، وأن أضع فوق رأسى قلنسوة أسقف ، وأحتمى بكرسى رئيس أساقفة فى احدى الابروشيات . ولكن سرعان ما تبين لى أننى كنت فى هذا التفكير ساذجا غريرا ، وأننى كنت مغاليا فى طموحى ، ومبالغا فى تقدير قيمة روحى ، اذ رأيت « جيهان دوفيدوميه » ـ الذى أصبح بعد ذلك كاردينالا ـ وصل الى ما كنت أصبو اليه ، وعين فى المنصب الذى كنت أطمع فى الحصول عليه ، فى حين فشلت أنا ولم أنل الا الهزيمة والخذلان .. وفى تلك اللحظة التعيسة ، حدث ما خفف من متاعبى على يد الأب الفاضل « هيروم كورنى » ، ذلك الشيخ الطيب القلب ـ الذى طالما حدثتك عنه ـ فقد أقنعنى بعطفه ، بأن أكون كاتبا لمجمع سان موريس ورئيسا لأساقفة (تور) ، فقبلت هذا العرض بكل سرور ،

اذ كنت قد اشتهرت بأننى ناسخ ماهر . **فما أن تم تعييني فى هذه الوظيفة حتى كان المجمع قد بدأ فى مباشرة الدعوى المشهورة ضد شيطانة شارع لا رو شود ، التى مازال المسنون من المواطنين يتحدثون عنها ، والتى كانت تروى ـ اذ ذاك ـ فى كل منزل فى فرنسا ..** ولما كنت قد اعتقدت أن هذه الدعوى سوف تكون فرصة موانية لتحقيق مطامعى والوصول الى المركز الذى كنت دائب الطموح اليه ، فقد اختارنى رئيسى الفاضل لكتابة كل ما يتعلق باجراءات هذه القضية الضخمة

وهكذا بدأت أقوم بمهمتى تحت اشراف الأب « هيروم كورنى » ، الذى كان يناهز الثمانين من عمره ، وكان رجلا عظيم الحكمة موفور الذكاء ، مشهور الميل الى العدالة فى أحكامه .. فما أن قطع شوطا فى تحقيق القضية المذكورة ، حتى وضح له ما يختفي وراءها من ضغائن ، أضمرها الذين أثاروها نحو المرأة المتهمة . وقد اختمر هذا الاعتقاد فى ضمير القاضى العادل ، رغم انه لم يكن يتحيز للفتيات الساقطات ، ولم يتصل بامرأة فى كل حياته ، وانما كان قديسا مبجلا مزدانا بالتقوى والطهارة وكل الصفات الفاضلة التى أهلته بجدارة لمنصبه الجليل .. **الا أنه فى هذه الحالة بالذات ، تبين ـ بمجرد أن أدلى الشهود بشهاداتهم ، وأفضت الفتاة المسكينة بأقوالها ـ أن هذه الغانية الطروب كانت ـ برغم فرارها من نذرها الدينى وهروبها من ديرها ورهبنتها ـ بريئة مما اتهمت به من أنها شيطانة أو أن الشيطان يتقمصها .. وأن كل ما فى الأمر ان لها ثروة عظيمة أطمعت فيها أعداءها ، وأشخاصا آخرين !**

ولقد انطلقت ألف اكذوبة وفرية ملفقةضد هذه الفتاة ـ التى كانت موضع الحقد والحسد من كل السيدات الشريفات ـ فصدقها الناس وآمنوا بها كما يؤمنون بالكتاب

المقدس .. حتى اذا اتضح وتأكد لدى الأب المبجل « هيروم كورنى » ، انه لا شيطان هناك غير شيطان الحب ، أقنع الفتاة بأن تقلع عن حياة اللهو ، وأن تقضى بقية عمرها فى الدير .. واذ تحقق من أن بعض النبلاء الفرسان ـ الذين أوتوا شجاعة فى الحرب ووفرة فى المال ـ على استعداد لأن يفعلوا كل شيء لانقاذها ، فقد استدعاها سرا ونصحها بأن ترفع التماسا الى الذين اتهموها ، طالبة تحكيم الله باجتياز امتحان الماء والنار ، وأن تسارع ـ فى ذات الوقت ـ الى النزول عن ممتلكاتها للمجمع المقدس ، كى تخرس الألسنة التى قد تعترض على قبول التماسها . وبهذه الطريقة كان من الممكن انقاذها من النار .. ولكن الشيطان الحقيقى أقحم نفسه فى هذا الأمر ، متمثلا فى صورة راهب . فان نقيض الفضيلة والقداسة والحكمة ـ المجسمة فى الأب هيروم كورنى ـ وهو ذلك المدعو « جيهان دو لاهاى » ، الذى لم يكد يعلم بأن الفتاة المسكينة تعامل فى السجن كأنها ملكة ، حتى راح يتهم الأب الفاضل ـ قاضيها العادل ـ بمحاباتها والمداراة عليها .. **بل انه اتهمه بأنه أصبح خادما لها ، وعابدا فى محراب جمالها ، لأنها ـ كما زعم ذلك الكاهن الأحمق ـ جعلت الأب الشيخ الفاضل يرتد شابا ، متأجج القلب .. وازاء هذه التهمة الظالمة ، سقط الرجل الطيب مريضا ـ لفرط الحزن ـ ففقد قوته كلها فى يوم واحد ، وما لبث أن أشرف سريعا على الموت ، اذ تأكد من أن « جيهان دو لاهاى » قد أقسم على تحطيمه ، وتقديمه قربانا على مذبح مطامعه .. فقد كان يطمع الى أن يخلفه فى وظيفته .**

والواقع أن سيدنا رئيس الأساقفة زار السجن ، فوجد المرأة المراكشية فى مكان مريح ، متمتعة بالحرية التامة ، ولا قيود فى يديها أو فى قدميها ، اذ أنها كانت ـ بما أوتيت من المال والجمال ـ قد اشترت رحمة سجانها .. وقال البعض

ـ فى ذلك الوقت ـ أن السجان قد وقع فى حبها ، وأنه بدافع من الحب ـ أو لعله بسبب الرعب الذى ساوره من عشاقها الفرسان ـ قد رسم لها خطة الهرب من السجن !

أما الرجل الفاضل « كورنى » ، فان اشرافه على الموت ـ من جراء وشاية الخائن جيهان دو لاهاى ـ حملت المجمع الى أن يتدبر أمر الغاء الاجراءات التى سبق له أن تولاها ، والقرارات التى سبق أن أصدرها . واذ ذاك تقدم « جيهان دو لاهاى » المذكور ـ وكان فى ذلك الوقت كاهنا بسيطا فى الكاتدرائية ـ فلفت نظر المجلس الى أنه يكفى لتدبير هذه الغاية ، الحصول على اعتراف علنى من الرجل الطيب وهو على فراش موته ! **وعند ذلك انهالت صنوف التعذيب والايلام على المريض المسكين ـ بوساطة رجال المجمع ، وكهنة سان مارتان ، ورهبان دير مارموتييه ، ورئيس الأساقفة ، ومبعوث البابا ـ لكى يحملوه على الارتداد عن ايمانه واعلان زندقته** ، فتشبث الرجل الصالح بالرفض .. الا أنهم بعد ألف صورة من صور الشر الذى أنزلوه بذلك الشهيد ، مالبثوا أن أعدوا له اعترافا مزيفا ، اشترك فى تزييفه كل أشرار المدينة وما أن قرىء هذا الاعتراف جهارا ، الى جانب فراش الرجل ، حتى دب الرعب فى كل أنحاء المدينة ، ورفعت كنائس الأبروشيه الصلوات العامة من أجل هذه النكبة ، وراح كل واحد من الأهالى يتوقع أن يرى الشيطان متسللا الى منزله عن طريق المدخنة !.. فى حين ان الحقيقة كانت تتمثل فى أن وطأة الحمى اشتدت على الأب الفاضل «هيروم كورنى» فتراءت له بعض الحيوانات فى حجرته ، وراح يهذى ويخلط فى كلامه ، لفرط السخونة التى دبت فى دمائه فانتهز أولئك الاشرار الفرصة ، وزعموا أنه ارتد عن عقيدته وجحد ربه ، وانصرفوا فرحين بهذا الاعتراف الزائف الذى دبروه له ، وحكموا عليه بمقتضاه .

فلما علم منى ذلك القديس المسكين بالخدعة ، بكى بكاء مرا ، ومات بين ذراعى ، كسير القلب ، مبلل الوجنتين بالدموع .. وكان كل ذلك بسبب هذه المرأة المراكشية ، التى استثارت – بضعفها وضراعتها – رحمته ، فوافق على ما طلبته من احتكام الى الله ، ومن تقدم لامتحان الماء والنار ، عسى أن ينقذ بذلك الروح الالهى الذى كان فى جسدها ، والذى قال عنه انه جوهره صافية جديرة بأن يزدان بها تاج الخالق القدوس، بعد أن تنطلق من هذه الحياة الى الفردوس !

واذ علمت بالاجراءات التى اتخذت فى هذه القضية – بعد ذلك – والاجابات الساذجة التى أدلت بها تلك التعيسة البائسة ، وكل ما وقع من المكائد ووسائل الخديعة والغش والتلفيق والتزوير ، قررت أن أتظاهر بالمرض ، وأن أهجر خدمة الكنيسة والأسقفية ، كى لا أغمس يدى فى الدم البرىء الذى مازال يصرخ ، وسيظل يجأر الى الله حتى يوم الدينونة

* * *

. **واقد** علمت بعد ذلك أنهم طردوا السجان ووضعوا مكانه الابن الثانى للجلاد ، فبادر هذا بالقاء المرأة المراكشية فى سرداب مظلم ، بعد أن أثقل يديها وقدميها بأغلال زنتها خمسون رطلا ، وأحاط خاصرتها بحزام خشبى ، وأقام على حراسة سجنها كتيبة كاملة من رماة السهام وجنود رئيس الأساقفة .

فراحوا يعذبون الفتاة التعيسة ، ويصبون على جسدها الرقيق أشد ألوان القسوة والايلام ، حتى اذا تكسر عظمها وتمزق لحمها وخارت قواها وانهارت مقاومتها ، فاهت بالاعتراف الذى أراد « جيهان دولاهاى » انتزاعه منها . واذ ذاك ، صدر الحكم عليها – فى الحال – بأن تحرق فى ميدان القديس أتيين ، وأن توضع – فى انتظار تنفيذ الحكم – فى ردهة

الكنيسة ، بعد ألباسها قميصا من الكبريت ، وأن تصادر كل أموالها لصالح خزينة المجمع .

ولقد كان هذا الحكم سببا فى وقوع اضطرابات خطيرة ، ونشوب معارك قتال فى المدينة . لأن ثلاثة فرسان من شباب اقليم (تورين) أقسموا أن يموتوا فى سبيل الفتاة المسكينة ، وأن يحرروها بكل وسيلة ممكنة فأتوا الى المدينة ، يصحبهم آلاف من الفقراء والمعذبين وقدماء المحاربين — وآخرون ممن سبق أن أسدت اليهم الفتاة المذكورة يد العون — وراحوا يفتشون فى كل منازل المدينة عمن أحسنت الفتاة اليهم .. واحتشدوا جميعا ، ثم اندفعوا فى هياج وثورة نحو سهل (مونت موريس) ، حيث انضم اليهم كل حافظى الجميل فى عشرين قرية من القرى المحيطة بالمدينة .

واذ اكتمل شملهم وقويت شوكتهم ، اتجهوا نحو سجن رئيس الأساقفة ، فضربوا الحصار حوله ، وطلبوا تسليم المرأة المراكشية اليهم ، زاعمين انهم يبتغون الفتك بها ، وهم — فى الواقع — قد اضمروا اطلاق سراحها ووضعها على ظهر جواد سريع العدو ينطلق بها الى خارج المدينة !..

وفى هذه العاصفة الجارفة من الرجال رأينا خلال الحديد المجدول — الذى ينسدل على نوافذ قصر رئيس الأساقفة — أكثر من عشرة آلاف رجل محتشدين ، فضلا عن أولئك الذين كانوا جاثمين على سطوح المنازل أو فى أعلى الشرفات، ليشهدوا خضم الجموع الثائرة .

وهنالك كان من السهل سماع الصيحات الهائلة التى انطلقت — فى هياج مخيف — من المسيحيين الذين أحاط بعضهم بالسجن قاصدين أطلاق سراح الفتاة المسكينة وتهريبها عبر (اللوار) ، الى الجانب الآخر من (سان سيمفوريان) . وكان التجمع وضغط الأجسام شديدا جدا .. وكان التعطش الى الدماء بالغا أقصى درجاته الوحشية لدى

بعض المتجمهرين وبلغ من وطأة الزحام والاحتدام ـ فى ذلك اليوم المشهود ـ أن سقط سبعة أطفال ،وثمانية رجال ، واحدى عشرة امرأة ، فسحقوا تحت الأرجل ، وكأنهم كانوا قطعا من الطين .. وبدت الجموع الزاخرة كشين رهيب ، انبعث زئيره عاليا : «الموت للشيطانة !.. اطرحوها خارجا لنمزقها !» « المجد للرب ، والموت للشيطانة ! » .. وظلوا يرددون هذا الهتاف جميعا ، فى صوت واحد عنيف مخيف يهتز له السمع ، ويرتجف منه القلب .

واذ ذاك قرر رئيس الأساقفة أن يعمل على تهدئة هذه العاصفة ، التى كانت تهدد بتحطيم كل شىء فيخرج فى موكب عظيم من الكنيسة ، متظاهرا بأنه قد اصطحب السجينة ، التى كادت تتسبب فى وقوع كارثة هائلة ، اذ أقسم بعض النبلاء الشبان أن يهدموا ويحرقوا كل الكنائس والأديرة !..

وبهذه الخدعة التى دبرها رئيس الأساقفة ، اضطرت الجموع الى التفرق ، وعاد أغلب الناس الى منازلهم التماسا للقوت .. فلما أقبل الليل ، انعقد اجتماع يضم رهبان (تورين) ونبلائها وكثيرين من مواطنينا .. وتحاشيا لماخشى أن يجرى ـ فى اليوم التالى ، من سلب ونهب ، قبلوا نصيحة المجمع بالتزام الهدوء ، والمحافظة على الأمن ، وبذلك أمكن ارجال الأمن الذين احتشدوا وقد بذلوا جهدهم فى تهدئة الأهالى ، أن يقوموا بالحراسة فى أنحاء المدينة .. وقتلوا فى سبيل اقرار الأمن فريقا من الرعاة ، والشريرين ،وقطاع الطرق ـ الذين جاءوا اذ علموا بما ساد المدينة من الاضطراب ـ ليضاعفوا الشغب

« وتقدم السيد هاردوين دو مايبه » ـ وهو نبيل كبير السن ـ فاتصل بالفرسان الشبان ، الذين تزعموا حركة الثورة لانقاذ المرأة المراكشية ، فواجههم قائلا : «أمن أجل امرأة تافهة الى هذا الحد ، تريدون أن تعرضوا تورين للنار والدمار ؟ »

وقال لهم أن انتصارهم ـ اذا قدر لهم أن ينتصروا ـ لن يؤدى الا الى تقوية لشـوكة الأشرار الذين جمعوهم وجاءوا بهم ، فلسوف يتحول هؤلاء النهابين ـ بعد أن ينهبوا قلاع أعدائهم ـ الى قلاع زعمائهم ، فيصبح هؤلاء ضحية ماصنعت أيديهم ، وان الكنيسة ـ اذا استفحل الخطر ـ لن تلبث ان تستنجد بالملك ، وحينئذ ستدور الدوائر آخر الأمـر عليهم

وساق ألف حجة أخرى ، ولكن الفرسان أجابوا على هذه الحجج قائلين ، **انه من السهل على المجمع أن يساعد على فرار الفتاة تحت جنح الليل ، وبذلك يزول سبب الأضطراب ..**

فأجاب الكاردينال « دو سنسورى » ـ مندوب البابا ـ على هذا الاقتراح الانسانى الحكيم ، بأنه ينبغى أن تكون كلمة الكنيسة هى العليا .. وانتهى الأمر الى أن وقع الغرم على عاتق الفتـاة المسكينة ، اذ أقر الجميع بأنه لا سـبيل الى الطعن فى التحقيق !

« وبذلك أصبح للكنيسة الترخيص الـكامل فى أن تتخذ ما تشاء من الاجراءات لتنفيذ العقوبة فى الفتاة .. فأقبـل الناس من كل فج فى دائرة حول (تورين) ، قطرها عشرون فرسخا ، ليشهدوا الاحتفال الكنسى باحراقها .. حتى لقد كان من العسير على أى سيد أو راهب أن يجد مـكانا ينزل فيه ، فى الليلة السابقة على اليوم المحدد .. فأقام كثير من الناس خياما ـ خارج المدينة ـ ليقضوا الليل فيها ، ومنهم من نام فى الحقول ، أو على سفوح التلال .. ومع ذلك فانهم لم يتمكنوا من أن يشهدوا الا انعكاس لهيب النار من بعيد !

* * *

• « **وعندما** جىء بالفتـاة المسـكينة لتحرق » كانت قد أصبحت شبه ميتة فعلا ، وقد ابيض شعرها ، ولم تعد الا هيكلا عظميا يكسوه جلد رقيق .. وكانت سلاسلها أثقـل

من وزنها هى ذاتها .. واذا كانت قد تمتعت بالسعادة فى حياتها ، فانها دفعت ثمنها غاليا ، فى هذه اللحظة التى يتضاءل أمام هولها كل ما جنت من مباهجها وملذاتها .. **ولقد أكد أولئك الذين رأوها تمر فى موكب الموت ، انها كانت تبكى وتولول بدرجة تستدر العطف والاشفاق فى قلب أقسى أعدائها .. حتى اذا بلغوا بها ساحة الكنيسة ، اضطروا أن يضعوا قطعة من الخشب فى فمها حتى تكف عن صياحها وعويلها ، فراحت تعض عليها كذئب تولاه السعار وجن جنونه !..**

« ثم جاء الجلاد فأوثقها فى سارية منصوبة ، الا انها مافتئت تناضل كى تفك وثاقها ، وظلت تجاهد فى سبيل ذلك جهادا عنيفا مرا ، حتى تهالكت آخر الأمر وقد فقدت كل مقاومتها .. ولكنها ما لبثت أن انتصبت فجأة ، وقد استعادت كامل وعيها وقوتها — بصورة خارقة — فتمكنت أخيرا من أن تقطع الحبال التى كانت تقيدها ، وانطلقت هاربة الى داخل الكنيسة ، حيث راحت — بخفة عجيبة وسرعة مذهلة — تتسلق جدران الشرفات العليا ، وتطير كعصفور بين الأعمدة الشاهقة والأفاريز الضيقة ، وكانت على وشك أن تفر من ثغرة فى السقف ، لولا أن رآها أحد الجنود فرماها بحربته !

« وبالرغم من أن الحربة أصابت قدمها ومزقتها ، الا أن المسكينة ظلت تقفز — كالطائر المذعور — بين أروقة الكنيسة ، وهى مهشمة العظم ، والدماء تنزف بغزارة من جرحها ، والأشرار يطاردونها كما تطارد الذئاب الضارية فريستها التعيسة !.. واستطاعوا بعد جهد هائل أن يمسكوها ، فصفدوها بالأغلال ، وقيدوها فى سارية منصوبة وسط كومة من الحطب .. واستكانت — فى هذه المرة — واستسلمت ، فلم تصدر منها صرخة واحدة .. حتى اذا ألقى بها الجلاد فى اللهيب ، قفزت قفزتين أو ثلاث قفزات هائلة ، ثم سقطت

فى قاع الكومة المشتعلة التى ظلت تتقد ليلا ونهارا .. ولم يعد الناس يرون أمامهم الا نارا وأوارا !

« وذهبت بنفسى – فى المساء التالى – لأتبين ما اذا كان قد بقى شىء ، من تلك الفتاة اللطيفة التى كانت تسيل رقة وعذوبة .. الا أننى لم أجد سوى حفنة من الرماد . ومن المستحيل أن أصف لك – يا ولدى – مدى حزنى المرير الذى لا حد له ، ولا نظير ، والذى ظل أكثر من عشرة أعوام يثقل على صدرى .. ولقد ظللت على الدوام أفكر فى ذلك الملاك الذى أحرقه أولئك الأشرار .. فما برحت مخيلتى صورة هذه الصبية الفاتنة التى ذابت – كالشمعة – فى لهيب النار ، وعيناها الفاتنتان ، اللتان طالما أشاعتا البهجة والسرور فى القلوب ، تتطلعان ضارعتين ، ولا مجيب ولا منقذ من اللهيب!

« ولم أعد أجد ملاذا من آلامى وأوهامى وهمومى ، الا باللجوء الى الكنيسة التى فاضت عندها روح هذه الشهيدة .. وهناك أجثو وأصلى الى الله ، ليرحمها ويغفر لها ذنوبها ..

« وأخيرا ، لا يسعنى الا أن أرتجف كلما تمثلت منظر أب الاعتراف الأعظم « جيهان دو لاهاى » ، الذى دبر هذه المكيدة الشيطانية .. فقد مات بعد أن أكلته الديدان حيا !.. اذ كان مرض الجذام هو جزاؤه الحق على جريمته ، وقد أحرقت النار بيته وأتت على زوجته .. وما من أحد ممن كانت لهم يد فى حرق الفتاة ، الا نال جزاء وفاقا !

« أما أنا – يا ولدى العزيز – فقد خرجت من هذه الأحداث كلها ، بألف فكرة وألف عبرة كتبتها لك هنا ، كى تكون الى الأبد دستورا لاسرتنا ، تعيش على مبادئه ، وتتصرف على مقتضاه !.. ولقد هجرت خدمة الكنيسة ، وتزوجت من والدتك – التى تلقيت على يديها بركات لا تعد ولا تحصى – وقاسمتها حياتى ، ومالى وكل حالى ..

هذا هو نص الخطاب الذى وجد ـ أثناء عملية الحصر، التى أجريت فى قصر البارون فرانسوا ثوريفوش ، مستشار ولى العهد ، الذى حكم عليه بالاعدام ـ عند ما ثار الامير المذكور ضد الملك ـ وصودرت أملاكه بقرار من برلمان باريس. وقد سلم هذا الخطاب الى حاكم (تورين) ، باعتباره تحفة تاريخية ، وأضيف الى أوراق الدعوى المحفوظة فى دار الأسقفية بواسطتى ، انا « بيير جوليتيه » ، رئيس نقابة التجار

* * *

• واذ أنجز المؤلف نسخ هذه الرقاق وحل رموزها وترجمها من لغتها الغريبة الى اللغة الفرنسية ، أعادها الى الرجل الذى أعطاه اياها .. ومنها علم ان اسم «الارو شومد» ـ أى الشارع الملتهب ـ انما أطلق على هذا الشارع ، لأن الشيطانة المذكورة كانت تقيم فيه !

ونخرج من هذه القصة كذلك بأننا ينبغى ألا نرهق جسدنا، بل يجب أن نستعمله بحكمة وعقل .. من أجل خلاص نفوسنا !

ـ * ـ

٤/٦/١٩٥٨

شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩